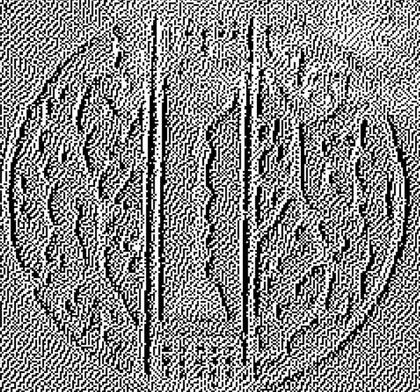
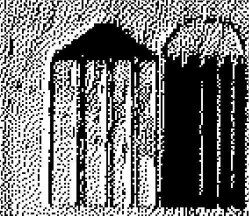
طاغور
فيفيكاناندا
غاندي
آزاد
أوروبيندو
كريشنا
نهرو

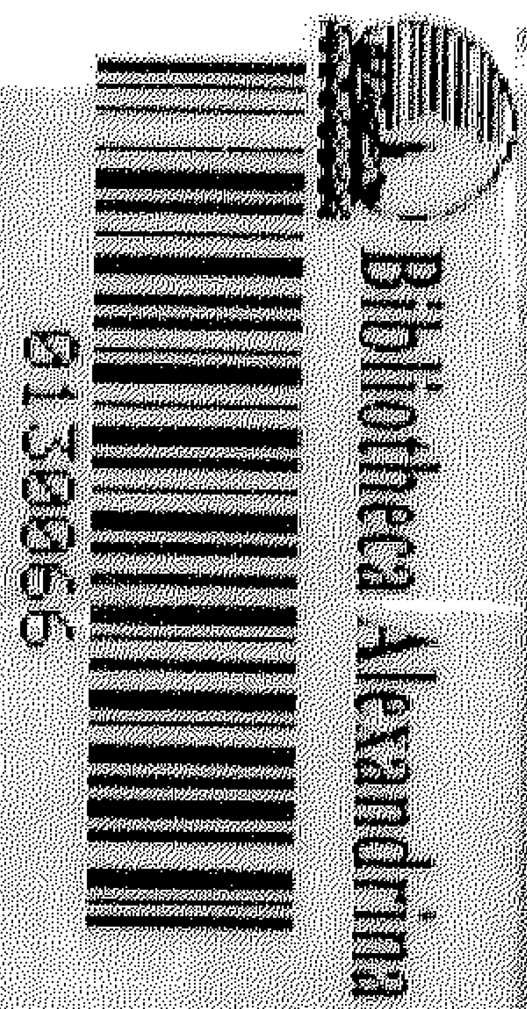
# صورة الهند عبر أعلامها

## مختارات

ترجمة: عدنان بغجاتي







صورة الهند

صورة الهند

* صورة الهند «مختارات»
* ترجمة: عدنان بغجاتي
* الطبعة الأولى ٦/ ١٩٩١
* الغلاف للفنان غسان دردير.

* التوزيع في جميع أنحاء العالم.
- الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
قسم التوزيع.
دمشق - هاتف: ٤٢٠٢٩٩ - ٢١٣٩٦٢
ص.ب: ٩٥٠٣ - تلكس ٤١٢٤١٦

# صورة الهند

## مختارات

رابندرانات طاغور
سوامي فيفيكانادا
مهاتما غاندي
شري اوروبندو
مولانا أبو الكلام آزاد
د. سارفيبالي راداكريشنا
جواهر لآل نهرو

ترجمة : عدنان بغجاتي

العنوان الأصلي للكتاب:

VISION OF INDIA

«Selections»

# تمهيد

أعماق أي تراث ثقافي تنعكس على أفضل وجه في كتابات العقول الراجحة. وفي هذه المجموعة نقدم سبعة من كبار الهنود عاشوا في هذا القرن وأثروا فيه. ولعبوا دوراً فعالاً في احياء الثقافة الهندية المعاصرة وتوحيدها. في هذه الطبعة الموسعة من «صورة الهند» نطلع القارىء على كوكبة من المفكرين، أسهم كل منهم اسهاماً هاماً في آداب الهند والعالم.

## رابندرانات طاغور ١٨٦١ - ١٩٤١

عظيم شعراء الهند الحديثة وفلاسفتها، وما كانت جائزة نوبل للآداب إلا معززاً لمكانته الأدبية العالمية العالية. تعد أشعاره الزاهية المؤثرة التي ترجمها بنفسه عن أصلها البنغالي (الى الانكليزية) جزءاً من تراث القرن العشرين. مثلها في ذلك كتاباته النثرية الألقة والمحرضة للفكر.

## سوامي فيفيكانادا ١٨٦٣ - ١٩٠٢

الأول في سلسلة من معلمي الدين والمصلحين الاجتماعيين ممن حملوا رسالة الفلسفة الهندوسية، ليس فقط إلى كل أرجاء الهند بل إلى العالم الغربي. وكان

لبروزه في (برلمان الديانات) في شيكاغو عام ١٨٩٣ نقطة علّام لانطلاق حركة جديدة، استمرت حتى يومنا هذا. وعلى الرغم من أنه كان وطنياً متحمساً فإن رسالته «الفانداتا» موجهة إلى الانسانية جمعاء. وتتلخص نظرته في أن هنداً ناهضة يمكن أن تلعب دور المنارة الروحية للبشر.

## مهاتما غاندي ١٨٦٩ - ١٩٤٨

بدهي أنه يعد أباً للأمة، إلا أنه من الخطأ التصور أن اسهاماته مقصورة على الحقل السياسي. ما من شك في أنه قائداً سياسياً فريداً. لكنه إلى ذلك كان مصلحاً اجتماعياً وصاحب نظرية سياسية، استحدث اسلوباً جديداً كلَّ الجدة العمل الاجتماعي والسياسي يقوم على فكرتين توأمين هما الحقيقة واللا عنف. وسيظل المهاتما غاندي واحداً من أهم رموز هذا القرن وأشدهم تأثيراً خلقياً وروحياً في هذا العصر النووي.

## شري اوروبندو ١٨٧٢ - ١٩٥٠

واحد من أهم رموز الحركة الوطنية في مطلع هذا القرن التي أخذت جذورها تتشعب وتنتقل من قاعات المؤتمرات الى شوارع الهند وقراها. عاش على مدى أربعين عاماً من ١٩١٠ الى ١٩٥٠ في بوندشيري يعمل على وضع نظام فكري فريد في شموله وعمقه يدور المفهوم الأساسي في فلسفته حول التطور الروحي. وتعد كتاباته دعامات أصيلة في الفكر الفلسفي في هذا القرن.

## مولانا أبو الكلام آزاد ١٨٨٨ - ١٩٥٨

علامة بالعربية وبالفارسية. وواحد من كبار كتاب اللغة الأردية في هذا القرن. لعب دوراً هاماً في حركة تحرر الهند. وتسلم منصب أول وزير تربية في دولة الاستقلال وأول رئيس للمجلس الهندي للعلاقات الثقافية. استطاع بمعرفته

العميقة للإسلام أن يكوّن نظرة واسعة متكاملة عن الثقافة الهندية والعالمية.

## د. سارفيبالي راداكريشنا ١٨٨٨ ـ ١٩٧٥

رجل الدولة والفيلسوف البارز في الهند وأكاديمي لامع حققت له استاذيته شهرة عالمية. شغل أيضاً عدة مناصب في الدولة كان أعلى درجاتها منصب رئيس الجمهورية، كان من أفضل شراح تقاليد الثقافة الهندوسية. وتعد أعماله من كلاسيكيات العصر، لغنى معلوماتها وصفاء تعبيرها.

## جواهر لآل نهرو ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤

القائد الغيور لنضالنا من أجل الحرية. رجل متعدد الجوانب؛ انساني، اشتراكي، ديموقراطي، معاد للاستعمار، مؤلف ومؤرخ. كان لدوره في تحرير الهند أثر بالغ امتد إلى آسيا كلها وأفريقيا. ولعل مساهمته في فكرة عدم الانحياز قد ساعدت على تجنيب العالم كارثة كبرى في أوائل الخمسينات. ظل سبعة عشر عاماً رئيساً لوزراء الهند الحرة. وبقي حتى نهاية أيامه في خدمة الأمة.

كتب هؤلاء المفكرون الذين استعرضناهم كتابات غزيرة خلال حياتهم معظمها باللغة الانكليزية ـ مهاتما غاندي كتب أيضاً باللغة الهندوسية والكوجارانية ومولانا آزاد كتب بالأردية والنص المنسوب إليه في هذه المجموعة هو الوحيد المترجم أما باقي النصوص فكما كتبها أصحابها.

حين نقدم هذه المختارات القليلة من كتاباتهم نأمل أن تكون حافزاً للقراء للعودة إلى أعمالهم الأصلية ليتعمقوا في استكشاف روائع التراث الثقافي الهندي وأسراره. وانها المهمة التي أنشيء من أجلها المجلس الهندي للعلاقات الثقافية.

نيودلهي ٢٠ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٨٢.

**د. كاران سينغ**

**نائب رئيس المجلس الهندي للعلاقات الثقافية**

# رابندرانات طاغور.

### رابندرانات طاغور

# دين الفنان

ولدت عام ١٨٦١ . ليس هذا عاماً هاماً في التاريخ، إلا أنه ينتمي الى حقبة عظيمة في البنغال، حين أخذت تيارات حركات ثلاث في حياة بلدنا بالتلاقي. احداها كانت الحركة الدينية وقد تأسست على يدي رجل ذي قلب كبير وذكاء خارق هو راجا راموهان روي. وقد كانت حركة ثورية حاول فيها اعادة فتح قنوات الحياة الروحية التي أنسدت على مدى السنين برمال وحصى العقائد المتمسكة بالشكليات والمنصرفة الى الشؤون المادية المحصورة في طقوس شكلية والمفتقرة الى المغزى الروحي. إن الذين يتعلقون بالماضي العريق ويعتزون بقدم ماتوارثوه وبروعة الأسوار التي أكسبها الزمن المهابة يتأذون ويغضبون حين نتخطى روح عظيمة أسوارهم أو يخرق عاشق للحرية نوافذهم ويغمرها بضوء شمس الفكر نافخاً فيها روح الحياة. فالأفكار التي تسبب الحركة وكل الحركات التي تنشد التقدم يرون فيها خطراً يهدد أمن حصونهم.

كان هذا ما يحدث في الزمن الذي ولدت فيه. ومن دواعي فخري أن والدي كان واحداً من القادة العظام في تلك الحركة. عانى من أجلها مقاطعة الناس له وواجه بشجاعة الاهانات الاجتماعية.

ولدت في هذا المناخ الذي تتولد فيه مثل جديدة هي في الوقت ذاته قديمة بل أقدم من كل ما يفخر به ذلك العصر.

كانت هناك حركة أخرى توازيها في الأهمية. كان بانكيمشاندرا شاترجي - معاصري، ورغم أنه كان أكبر مني سناً فقد عاش طويلاً بما يكفي لأن أعرفه - أول

رواد الثـورة الأدبيـة التي قامت في البنغـال في ذلـك الحين. كانت تطغي على أدبنا فخـامـة تخنق روحـه، وتغرقه بزخارف عطلت تقدمه. وكان لدى بانكيمشاندرا من الشجـاعـة ما أهله لمعـارضة التقاليد التي تؤمن بسلام شواهد الأضرحة، والقطعْية التي لا تنتمي إلا إلى الجمود والموت. لقد نزع عن لغتنا ركام الصيغ الميتة. وبلمسة سحـريـة من عصـاه أيقظ أدبنا من سباته العميق وبهذه اليقظة كشف أدبنا عن وعد عظيم ورؤيا جمال وبدا كامل القوة والبهاء.

الى جانب هاتـين الحـركتـين نشأت في الـوقت ذاتـه تقريباً حركة ثالثة أطلق عليهـا اسم «الـوطنيـة» لم تكن حركة سياسية محضة، غير أنها كانت الصوت الذي عبرَّ عن أفكـار النـاس في محاولتهم تأكيـد شخصيتهم. كانت صوت النقمـة على الاذلال الـذي تمارسـه باستمـرار الفئـات غير الشرقية والتي تعودت أن تقسم العالم الانساني الى عالم أخيار وعالم أشرار تبعاً للجهة التي ينتمي إليها في الكرة الأرضية.

كانت روح الازدراء التي يتحلى بها هؤلاء المترفعون تسبب الأذى لنا وتوقع الخراب في عالمنا الثقافي. كما زرعت لدى شبابنا الشكوك في كل ما ورثوه من الماضي وراح طلابنـا يسخـرون من الصور الهندية القديمة والأعمال الفنية الأخرى مقلدين سخرية أساتذتهم الأوروبيين في عصر الجهالة والانحراف ذاك.

ومع أن أساتذتنا أنفسهم غيروا نظرتهم بعد ذلك غير أن تلاميذهم لم يكونوا استعـادوا ثقتهم بمـزايـا فنوننا بعده. لقد ظلوا طويلاً تحت تأثير التشجيع المتواصل على الإعجـاب بنسـخ من الدرجة الثالثة من الصور الفرنسية والمطبوعات المبهرجة للوحـات الشـديـدة الـرخص والرسوم التي هي انتاج آلي متكرر. واعتبروها مظاهر لثقافة أرقى بحيث رفضوا الابداعات الشرقية وازدروها.

أخـذ الشبـان الجـدد في تلك الفـترة يهزون رؤوسهم قائلين: إن الأصـالـة الحقيقيـة ليست في اكتشـاف الايقـاع الجـوهـري في قلب الـواقع بل هي في الشفاه المكتنـزة والـوجنـات الـرقيقة والصدور العارية التي تبرزها الصور المستوردة. وأخذ مثيـلٌ لروح الـرفض هذه النـاشئـة عن الجهـل المطبق طريقـه الى الـدوائر الثقافية الأخـرى. كل ذلـك نتيجـة تنويم مغناطيسي سلّطهُ على عقول الناشئة أناس ذوو صوت عال وأذرع قوية.

أعلت الحركة الوطنية أنه لا ينبغي أن يكون رفضنا شاملاً لكل ما ورثناه عن الماضي بلا تمييز. لم تكن نشاطاً رجعياً بل ثورياً لأنها أوضحت وبشجاعة كبيرة أن

الاستنكار والرفض يجب أن يوجهنا للاعتزاز بما هو مستعار فقط.

بلغت هذه الحركات الثلاث أشدها وكان لأفراد عائلتي دور فعال في كل منها. تعرضنا للقطيعة بسبب آرائنا غير المحافظة في الدين فتمتعنا بالحرية التي حققها نفينا الاجتماعي، وصار علينا أن نشيد عالمنا الخاص بأفكارنا الخاصة وبطاقة عقولنا وحدها.

ولدت وترعرعت في هذا المناخ الذي تمازجت فيه آثار هذه الحركات الثلاث والتي كانت كلها ثورية. كان على أسرتي أن تعيش حياتها الخاصة مما قادني منذ نشأتي إلى أن اهتدي إلى التعبير عن ذاتي بمعاييري الذاتية لأحكامي الخاصة. كانت لغتي الأم هي واسطة التعبير بالطبع وكان لابد لهذه اللغة التي تنتمي الى الشعب من أن يجري تعديلها بحيث تتناسب مع الدوافع والغايات التي لدي كفرد.

ليس على الشاعر أن يستعير وسائطه جاهزة من دكاكين المحافظين المحترمين. إذ لابد أن يكون له بذوره الخاصة وتربته التي يمهدها بنفسه لغته التي هي واسطته المتميزة ـ لا لأنه يصنع اللغة بأكملها بل لأن استخدامه لها كفرد يسبغ عليها لمسة الحياة السحرية فيحولها الى أداة نقل خاصة من ابداعه.

يكمن الشعر في قلوب العروق البشرية ومن الضروري لهم أن يقدموا قدر المستطاع تعبيراً محكماً عن عواطفهم. من أجل ذلك لابد لهم من واسطة مؤثرة ومتكيفة بحيث تصبح خاصة بهم عبر العصور. لقد خضعت جميع اللغات العظيمة للتغيير ولا تزال تخضع، أما اللغات التي تقاوم التغيير فمحكوم عليها بالموت ولن تستطيع أن تنتج محاصيل عظيمة في الفكر والأدب. حين تتجمد القوالب فللروح إما أن تتقبل الأسر ضمنها لضعفها أو أن تثور والثورات كلها صراع بين ما هو داخلي وبين غزو ما هو خارجي.

لقد كتب فصل من أعظم فصول تاريخ الحياة على هذه الأرض حين تلمست قوة الانسان الداخلية التي لا تقاوم، طريقها الى الخارجي نظام الأشياء وأطلقت العنان لصوتها المتمرد المنتصر بالصرخة بأنها لن تسحقها قوة وحش الجسد العاتية. ما أشد ما بدت عاجزة في ذلك الحين لكن ألم تقترب من النصر؟ في حياتنا الاجتماعية أيضاً تندلع الثورة حين تركز سلطة ما نفسها في ترتيبات خارجية وتهدد باستعباد قوانا الداخلية لمصلحتها.

حين تتحول منظمة، هي آلة، الى قوة مركزية سياسية أو اقتصادية أو تربوية أو دينيـــة فإنهـا تعيق مجرى الحيـاة الـداخليـة الحـر للشعب وتحـولـه وتستغله لدعم سلطتها. وفي يومنا هذا يتسارع تعدد أشكال تركيز السلطة على الحدود الخارجية، وقـد علت صرخـة روح الانســان المقموعة في الداخل تناضل من أجل تحرير نفسها من ربقة المسامير والرتاجات والهواجس التي بلا معنى.

لابـد من أن تأتي الثـورة ولابـد للبشـر من أن يواجهـوا الصـد وعدم التفهم وخـاصـة من أولئـك الذين يبغون الراحة والذين وقفوا إيمانهم على المادية والمنتمين حقاً الى الماضي لا الى العصور الحديثة، الماضي الذي عفا عليه الزمن حين كانت الغلبة لحجم الجسد وقوة العضلات لا لعقل الانسان.

الهيمنـة الفيـزيـائيـة آلية بحتة والآلات الحديثة تضخـم أجسادنا فقط، فهي تطيـل أطـرافنـا أو تزيـدهـا عدداً. والعقـل الحـديث، بطفـولتـه الفطـرية، يسعد بالضخـامـة الجسـديـة التي تمثـل قوة مادية لا تلجم فيقول: «لأحصل على اللعبة الكبـيرة لا العـاطفـة المقلقـة» ولا يدرك أننـا في هذا نعود الى عهود ما قبل الطوفان المتميزة بالأطر المادية الضخمة غير مفسحة أي مجال لحرية الروح الداخلية.

جميع الحركات العظيمة في العالم تقترن بمثل أعلى ما. قد يقول أحدكم إن أمثال هذه الاعتقادات بالروح تعاني من سكرات الموت منذ أكثر من قرن وهي الآن تلفـظ الأنفـاس، وليس لدينـا ما نعتمـد عليه إلا القوى الخارجية والأسس المادية. غير أنني، من جهتي أقول: إن عقيدتكم هي التي عفا عليها الزمن من عصور. لقد تدمـرت منـذ بواكـير الحياة منذ أن زالت سيادة الحجم لوحده من على وجه الأرض واستبـدلت بالانسـان الـذي جيء به عاريـاً الى قلب الخليقـة، الانسـان بجسده العاجز، لكن بروحه وعقله اللذين لا يقهران.

حين بدأت حيـاتي شعـراً كان الكتـاب في وسطنـا الثقـافي يهتـدون بالكتب المدرسية الانكليزية التي أمطرتهم بدروس لم تنقع غلتهم تماماً. ولعلّني كنت محظوظاً لأني لم أتلق أي تعليم أكـاديمي من الـذي كان يعـد لائقـاً لفتى من عائلة محترمة. وعلى الرغم من أنني لا استطيع القول إنني نجوت كلياً من التأثير الذي كان يحكم العقـول الشـابـة في تلك الأيـام فإن مجرى كتـابـاتي تحرر من سكة الصيغ المقلدة. وأخضعت نفسي في نظمي ومفرداتي وأفكاري إلى نزوات خيال لم يصقله العلم مما جعلني تحت وابـل من تعليقـات النقـاد المتعلمين وقهقهات الظرفاء. وحولني جهلي

المصحوب بهرطقتي الى قاطع طريق أدبي.

كنت حين بدأت حرفة الكتابة فتى غراً؛ في الواقع كنت أصغر واحد في عصبة من نصبوا أنفسهم نصحاء. لم يكن لدي درع السن الناضجة الواقي ولا الانكليزية الكافية لفرض الاحترام. وهكذا حصلت على حريتي في معتزلي بعيداً عن الازدراء والتشجيع المؤهّل وكبرت مع السنين ـ فليس لي فضل في هذا. وبثبات قطعت طريقي مصحوباً بالتهكم حيناً والرعاية أحياناً الى أن انتزعت الاعتراف بي. وكانت نسبة مانلته من مديح ولوم شبيهة بنسبة اليابسة الى الماء على أرضنا.

والذي منحني الجرأة في شبابي كان معرفتي المبكرة بقصائد الفيشنافا البنغالية المتحررة من الوزن والجريئة في التعبير. وأظن أني لم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة من العمر حين بدىء باعادة طباعتها. ولقد حصلت عليها خفية من على مكاتب الكبار. وتبعاً لما يقتضيه حس الأدب يجب أن اعترف بأن ذلك لم يكن سلوكاً صائباً لولد في سني. كان علي أن أنجح في امتحاناتي الدراسية لا أن أسلك الطريق المؤدي الى خسارة الدرجات. وعلي أيضاً أن أعترف أن معظم تلك القصائد إباحي لا يلائم صبياً مشرفاً على المراهقة. غير أن خيالي صار مأخوذاً بجمال صيغها وموسيقى كلماتها، وهبّت أنفاسها المثقلة بالشهوة على ذهني من غير أن تشوشه.

وكان لتشردي في أزقة حرفة الأدب سبب آخر. كان والدي قائداً لحركة دينية جديدة تؤمن بوحدانية صارمة مستمدة من تعاليم الاوبانيشاد. وقد نظر اليه مواطنونا في البنغال على أنه سيء سوء مسيحي إن لم يكن أسوأ. وهكذا قوطعنا مقاطعة كاملة مما نجاني، ربما، من كارثة أخرى وهي تقليد ماضينا.

معظم أفراد عائلتي ذوو موهبة ما ـ بعضهم كانوا فنانين وبعضهم شعراء وآخرون موسيقيين وكان الجو العام في منزلنا مسكوناً بروح الابداع. وكان لدي منذ طفولتي المبكرة حس عميق بجمال الطبيعة، وشعور حميم بمصاحبة الأشجار والغيوم وكنت أنسجم مع اللمسة الموسيقية للفصول. وفي الوقت نفسه كان عندي حساسية خاصة للوداعة الانسانية. كل هذا كان يتوق للتعبير. جدية عواطفي تاقت الى أن تكون صادقة في التعبير عن ذاتها على الرغم من أني لم أكن من النضج بما يسمح أن أعطي هذه التعبيرات حقها من كمال الصياغة.

من ذلك الحين اكتسبت سمعة في بلدي، ولكن حتى وقت متأخر ظل تيار

قوي من العـداء في قطـاع واسـع من مواطني يلاحقني. قال بعضهم إن قصائدي لم تنبـع من القلب الـوطني. وشكـا البعض من أنهـا غير مفهـومة، وآخرون قالوا إنها فاسدة. وفي الواقع لم أجد أبداً تقبلاً من أبناء شعبي، وهذا أيضاً كان نعمة؛ ذلك .أنه لا شيء يفسد مثل النجاح الخالص.

هذا هو تاريخ مجرى حيـاتي الأدبية. أود لو استطعت الكشف عنها بوضوح أشـد عبر تلاوة لأعـمالي بلغتي الأم. آمـل أن يكون ذلك ممكناً بشكل أو بآخر في يوم ما. اللغـات غيـورة. إنهـا لا تسلم كنـوزهـا الى أولئك الذين يتعاملون من خلال وسيـط ينتمي الى خصم غريب. علينـا أن نراودها شخصياً ونسرف في ملاطفتها. الأشعـار ليست مثـل سلع السـوق قابلة للبيـع والشـراء. لا نستطيـع أن نتلقى ابتسامات الحبيب وإيماءاته بواسطة وكيل، مهما بلغ من البراعة والأمانة.

أنا نفسي حاولت أن أحصِّل ثروة الجمال في آداب اللغات الأوروبية، قبل أن أكسب حقي الكامل في النزول بضيافتها بزمن. حين كنت شاباً حاولت أن أقارب دانتي وللأسف من خلال ترجمة انكليزية. أخفقت تماماً وشعرت أن واجب التقوى يدعوني للتخلي عنه، وظل دانتي كتاباً مغلقاً دوني.

رغبت أيضـاً في أن أعـرف الأدب الألماني وظننت، من خلال قراءتي هايني مترجماً، أني التقطت لمحات الجمال فيه. ولحسن الحظ التقيت بمبشرة ألمانية وسألتها المعـونـة. واجتهـدت عدة شهور، لكني ولكوني سريع البديهة، وتلك ليست صفة حسنة، لم أحفظها. كانت لدي الملكة الخطرة التي تساعد المرء على أن يخمن المعنى بسهولة فظنَّت معلمتي أني امتلكت ناصية اللغة. ولم يكن ذلك صحيحاً. على كل حال نجحت في انجـاز هايني مثـل رجـل يمشي نائـماً عابـراً ممرات مجهـولـة بيسـر وحصلت على سعادة غامرة.

من ثم حاولت غوتـه. لكن ذلـك كان طمـوحـاً كبـيراً، وبواسطة القليل مما تعلمته من الألمانية نفذت الى فاوست. أظن أني بلغت مدخل القصر، لا كمن معه مفـاتيـح كل الأبـواب بل كزائر عابر سمح له بارتياد احدى قاعات الضيوف بارتياح دون ان يحاط بالـود. وبكـلام أدق لا أعرف غوته حق المعرفة، وبالطريقة ذاتها فإن كثيراً من النجوم الأخرى المتألقة غامضة عليّ.

هذا ما يجب أن يكون، فالمرء لا يبلغ المزار إن لم يحج إليه. لذا لا يأملنّ أحد أن يجد شيئاً صحيحاً من لغتي مترجماً.

في ميدان الموسيقى فإني أزعم أني موسيقي ذو شأن. ألفت أغاني كثيرة تحدت أصول التقليديين. أما الطيبون من الناس فقد نظروا شزراً إلى وقاحة رجل لم يتلق التدريب. ولكني اصررت، ويغفر الله لي لأني لا أدري ما أفعل. ولعل ذلك أحسن أساليب العمل المنتج في دنيا الفن ورأيت الناس يلومون ولكنهم يغنون أغاني، ولو لم يكن بشكل صحيح دائماً.

أرجو ألا تظنوا بأني مغرور. أنا قادر على الحكم على نفسي موضوعياً. ولو أن أعبر عن إعجابي علناً بأعمالي لأني متواضع. لا أتردد في القول: إن أغاني وجدت مكانها في قلب بلادي جنباً إلى جنب مع زهورها التي لا تنقطع الذيول وأن الشعب في المستقبل سيغنيها في الأفراح وفي الأتراح وفي الأعياد، هذا أيضاً عمل انسان ثوري.

إذا كنت أرغب عن شرح وجهة نظري في الدين فربما كان ذلك بسبب أني لم أبلغ الدين الذي أنا عليه من خلال التقبل السلبي لعقيدة معينة أورثت بالولادة. ولدت في أسرة كان أفرادها، في بلدي، رواداً في إحياء دين قائم على ما نطق به الحكماء الهنود في الاوبانيشاد. ولكن كان من المستحيل، بسبب حساسيتي الشديدة لم أستطع إجبار نفسي على اعتباري اتباع ديانة لا لشيء إلا لأن من أثق بهم يعتقدونها قيّمة.

ديني أساساً دين شاعر، حلت نفحته عليّ من خلال دروب غير مرئية وغير مطروقة كما يفعل الالهام في موسيقاي. أخذت حياتي الدينية خط النمو الغامض كما في حياتي الشعرية. وتزاوجت بشكل ما حياتي الدينية وحياتي الشعرية ورغم أن عقد القران هذا حدث منذ وقت طويل إلا أنه ظل سراً مطوياً عليّ. لا أباهي، كما آمل، حين أقر بفضل موهبتي الشعرية، أداة التعبير الدقيق الاستجابة للنَفَس الطالع من أعماق الشعور. كانت لي منذ طفولتي الحساسية الشديدة التي أبقت ذهني عالقاً بوعي العالم من حولي، عالم الطبيعة وعالم الانسان.

لقد حلت عليّ نعمة حس الدهشة الذي يهب الطفل حقه في دخول عالم كنز الأسرار في قلب الوجود. تخليت عن دراستي لأنها نأت بي عن العالم المحيط بي الذي كان رفيقي المصاحب. وحين بلغت الثالثة عشرة حررت نفسي من قبضة نظام تربوي حاول أن يبقيني سجيناً داخل جدران الدروس الحجرية.

كان لدي فكـرة غامضـة حول منْ أو ماذا يمس أوتار قلبي ، كطفل لا يعرف اسم أمه أو من هي؟ أو ما هي؟ وكان لدي دائماً شعور الاكتفاء العميق بالشخصية المنسابة في طبيعتي خلال مسارب حية تتواصل مع كل الجهات.

وكان أمراً عظيماً أن وعيي لم يتصف بالبلادة أمام حقائق العالم المحيط. كان كافياً لي أن الغيمة غيمة والزهرة زهرةً لأنهما تخاطباني مباشرة، ولا أستطيع أن أكون غير مبـال بهما. لازلت أذكـر احـدى اللحظـات عند العصر وأنا عائد من المدرسة، حين ترجلت من العـربـة فجأة رأيت في السـماء خلف شرفة منزلنا العليا بهجة غيمة داكنـة ترشق ظلالاً باردة غنيـة على الجـو. لقـد وهبني كرم حضورها وروعتها فرحاً كان هو الحرية، الحرية التي نحسها في حب صديقنا العزيز.

في صورة، استخدمتها في مقالة أخرى، افترضت أن غريباً من كوكب آخر زار أرضنـا وحـدث أن سمـع صوتـاً بشرياً مسجلاً على اسطوانة. كل ما هو واضح لديـه والفـاعـل البادي للعيان هو الاسطوانة الدائرة. هو عاجز عن اكتشاف حقيقة الذات الكامنة خلفها، ولذا يمكن أن يقبل حقيقة الاسطوانة العلمية المجردة عن الشخصيـة التي هي لا شخصيـة كأمـر نهائي - الحقيقـة التي تلمس وتقـاس. وقـد يتعجب كيف يمكن لآلة أن تخاطب الروح. ثم يبلغ فجأة، وهو يتابع اللغز. قلب المـوسيقى من خلال لقـاء مع المؤلـف، ويفهم فوراً معنى تلك المـوسيقى على أنهـا اتصال شخصي.

إن المعلومـات عن الحقـائق، ومجـرد اكتشاف القوة أمر ينتمي إلى الخارج لا إلى روح الأشيـاء ولا إلى داخلهـا. والسعـادة هي معيـار الحقيقة الوحيد كما نعلم عنـدمـا نلمس الحقيقـة بالموسيقى التي تقـدمهـا، بفـرح الترحاب الذي تحدثه في الحقيقـة التي فينـا. هذا هو الأسـاس الحقيقي لكـل الأديـان. ليس الـدين عقيدة مفـروضـة سلفـاً. وكـما سبق أن قلت لا نتلقى الضوء كما تموج به الأثير في السماء. الصبـاح لا ينتظـر عالماً ما ليد لنا عليه. وبالطريقة ذاتها نحن نلمس الحقيقة الأزلية البـاطنـة فيـه حين نعي حقيقة الحب الصافية أو حقيقة الخير، لا من خلال شروح رجال الدين، ولا من خلال مناقشات المذاهب الاخلاقية المسهبة.

لقـد سبق أن اعـترفت بأن ديني هو دين شاعـر، كل احسـاسي حوله هو من الـرؤيـا لا من المعـرفـة. وبصراحة أقول أنا غير قادر على تقديم أجوبة مرضية عن أسئلة تدور حول مسألـة الشـر، أو ماذا يحدث بعـد الموت؟ ومع ذلك أنا على يقين

بأن هناك لحظات بلغت فيها روحي الأزل اللا محدود وأصبحت واعية له كل الوعي من خلال بريق الفرح. جاء في الأوبانيشاد: أن عقولنا وكلماتنا لتنأى حيرى عن الحقيقة الأسمى، أما من عرف ذلك، فمن خلال فرح روحه مباشرة، ينجو من جميع الشكوك والمخاوف.

في الليل نتعثر بالأشياء ويصير إدراكنا حاداً لوجودها منفصلة عن بعضها لكن النهار يكشف لنا عن الوحدة العظيمة التي تجمعها كلها. ومن اغتسلت رؤياه الداخلية بنور وعيه فسيدرك فوراً الوحدة الروحية سائدة على كل الاختلافات العرقية. ولن يتعثر عقله بحقائق الانفصالية الفردية المشوشة في عالم البشر. وحين يتقبل الانسان الأشياء كغايات يدرك أن السلام كامن في الانسجام الداخلي الذي يسكن في الحقيقة. لا في أية أداة ضبط خارجية، وأن الجمال يحمل تأكيداً خالداً على قرابتنا الروحية مع الواقع الذي ينتظر كماله في استجابة حبنا.

٢

يقول مفسر الفيدا الشهير ناشاريا:

مبارك طعام القربان الفائض بعد انتهاء
الطقوس، لأنه يرمز الى براهما، نبع
الكون الأصلي.

على ضوء هذا التفسير فبراهما بلا حدود في وفرته التي تجد تعبيرها حتماً في سيرورة العالم الخالدة. لدينا هنا عقيدة في أصول الخلق، ومن ثم أصول الفن. الانسان دون جميع الكائنات الحية لديه من الطاقة الحيوية والعقلية ما تفيض عن حاجته كثيراً. بما يدفعه الى العمل في ميادين مختلفة للابداع كغاية في حد ذاتها. مثل براهما ذاته الذي يجد المتعة فيما يبدعه وهو في غنى عنه. لذا فهو يتمثل في تبذيره لا في غل يده. الكافي من الصوت يمكن به أن نتكلم أو نبكي إلى الحد المطلوب في الاستعمال اليومي أما ما يفيض عنه فبه نغني ونجد متعتنا. الفن إذن يشكف عن ثروة الحياة التي يتمتع بها الانسان والتي تبحث عن حريتها في صور من الكمال هي غاية في حد ذاتها.

كل ماهو عقيم عاطل وجامد مقصور على الوجود المحض وحده. أما الحياة فخلاقة باستمرار لأنها تحتوي في ذاتها ذلك الفائض الذي يتجاوز حدود المكان والزمان دائماً وتتابع بدون كلل مغامرتها في التعبير بمختلف أشكال تحقيق الذات. وجسدنا الحي له أعضاؤه الحيوية المهمة لتحقيق احتياجاته، لكن هذا الجسد ليس كيساً مريحاً فحسب من أجل أن يحمل المعدة والقلب والرئتين والدماغ - بل هو صورة قيمتها العليا في حقيقة أنه يعبر عن شخصيته. له لونه وشكله وحركته ومعظمها تتصف بالوفرة ويحتاج إليها في التعبير عن الذات لا من أجل بقائها فحسب.

هذا الجو الحي من الوفرة في الانسان محكوم بخياله، كما جو الأرض محكوم بالنور. إنه يعيننا على توحيد الحقائق المتنافرة في رؤ يا منسجمة ومن ثم على ترجمتها في فعالياتنا من أجل التمتع بكمالها فقط. إنه يبعث فينا (الإنسان الشامل) الذي هو البصير والفاعل في كل العصور والبلاد. والادراك المباشر للحقيقة في أنقى صورها غير المحجوبة بظلال المصلحة الشخصية وبصرف النظر عن الوصايا الخلقية والنفعية، يمنحنا الفرح كما يفعل اكتشافنا لذواتنا. إن ما ندعوه في اللغة العادية (الجمال) الذي هو انسجام الخطوط والألوان والأصوات أو الانسجام في التأليف ما بين الكلمات أو الأفكار انما ينهجنا فقط لأننا لا نملك إلا الاعتراف بحقيقة أنه مطلق. يقول الشاعر: «الحب كفاية» فهو يحمل في ذاته تفسيره والمتعة التي يمكن التعبير عنها هي أيضاً نهائية. الحب يقدم البرهان على شيء هو خارج ذواتنا ولكنه وجود قوي ولهذا يستثير حسنا بوجودنا. إنه يكشف بصورة مشعة حقيقة الاشياء على الرغم من أنها قد تفتقر الى المزايا القيّمة أو العظيمة.

«الأنا موجود» فيَّ تدرك أبعادها ولانهايتها حين تدرك الأشياء الأخرى حق الادراك. وللأسف وبسبب محدوديتنا والألف شاغل وشاغل فإن جزءاً كبيراً من عالمنا، على شدة لصوقه بنا، بعيداً جداً عن دائرة ضوء مصباح اهتمامنا. هو معتم، يعبر بنا، قافلة من ظلال، شأنه شأن منظر يشاهد ليلاً من نافذة عربة قطار مضاءة. المسافر يعرف أن العالم الخارجي مؤجود، وأنه مهم. لكن عربة القطار في ذلك الوقت هي أهم شأناً. فإذا كان العالم واحداً مما لا يحصى من الموضوعات فإن هناك القليل مما يقع تحت مصباح روحنا ولذلك يبدو حقيقة لنا، وتبقى الموضوعات الأخرى تستصرخ عقلنا المبدع من أجل تمثيل دائم لها. إنها تنتمي الى الميدان

نفسه مثل رغبتنا نحن التي تمثل التوق الى ديمومة ذاتنا.

أنا لا أقصد أن أقول إن الاشياء المرتبطين بها بعقدة المصلحة الشخصية، لها ايحاء الحقيقة، بل على العكس انها مكسوفة بظل أنفسنا. ليس وجود الخادم أمامنا واقعياً مثل وجود الحبيب. إن الالحاح الضيق على النفعية يصرف اهتمامنا عن الانسان كانسان الى الانسان النافع. فالبطاقة الدالة على السعر في السوق تلغي القيمة القصوى للواقع (أو العالم).

واقعة أننا موجودون تأخذ صدقها من واقعة أن كل «وجود الآخر» شيء آخر موجود، و«الأنا» موجود فيَّ تتحرر من محدوديتها كلما أدركت نفسها في «كينونتك». وهذا التجاوز الحدود يولد الفرح، الفرح الذي نجده في الجمال، في الحب، في العظمة. وتناسي النفس وبدرجة أعلى التضحية بالنفس هي عرفاننا بجميل تجربتنا اللا «محدود». هذه هي الفلسفة التي تفسر فرحنا بكل الفنون، الفنون التي في ابداعاتها تكثف حس الوحدة التي هي وحدة الحقيقة التي نحمل داخل نفوسنا. شخصيتي هي مبدأ واع من مبادىء وحدة حية؛ إنها تدرك على الفور ومن ثم تسمو فوق كل تفاصيل الحقائق المنتمية إليَّ كفرد: معرفتي، شعوري، رغبتي وارادتي، وذاكرتي، أملي، حبي، فعالياتي وكل ما يتعلق بي، هذه الشخصية التي لديها الاحساس بـ«الواحد» في طبعتها، تحققه في الأشياء وفي الأفكار والحقائق مجمعة في وحدات. ومبدأ الوحدة الذي تنطوي عليه يكتمل كثيراً أو قليلاً بوجه جميل أو صورة جميلة، بقصيدة، بأغنية، بشخصية أو بانسجام أفكار متبادلة أو حقائق، وعندئذ تصبح هذه الأشياء له حقيقية حادة، ولهذا مفرحة. ومستوى تحققها في الواقع الذي يتجلى كل التجلي في اتقان الانسجام يتأذى حين يكون هناك شعور بالنشاز، لأن النشاز هو نقيض الوحدة الأساسية التي هي في المركز.

كل الحقائق الأخرى تأتينا عبر مجرى تجربتنا المتدرج، ومعرفتنا لهذه الحقائق خاضعة باستمرار لتغييرات متضادة عبر اكتشاف معلومات جديدة. لا يمكن أبداً أن نكون على يقين بأننا صرنا على معرفة تامة بالخصائص الكاملة لأي شيء موجود. لكن معرفة كهذه تتحقق لدينا مباشرة بقناعة لا تحتاج الى براهين يدعمها. الأمر إذن أن كل فعالياتي تستمد أصولها من شخصيتي أنا التي يتعذر تعريفها ومع ذلك تقارب الحقيقة التي أنا متأكد منها أكثر من أي شيء في العالم. رغم أن كل الدلائل المباشرة التي يمكن وزنها وقياسها تدعم حقيقة بأنه لا شيء غير أصابعي

يرسم اشارات على الورق، فإنه ما من عاقل يمكن أن يشك لحظة في أن هذه الحركات الآلية ليست هي الأصل الحقيقي لكتاباتي، انما الأصل هو في كيانٍ لا يمكن أن يُعرف اللهم إلا بالمشاركة الوجدانية. وهكذا نكون قد بدأنا ندرك في نفوسنا مظهريْ الفعالية، أحدهما مظهر القانون متمثلاً بالمداد أو الوسط الناقل، والآخر هو مظهر الارادة الكامنة في الشخصية.

تحديد اللامحدود هو الهوية الشخصية؛ والله شخصيٌّ إذ يخلق.

إنه يتقبل حدود قانونه الخص به. وتستمر اللعبة، التي هي هذا العالم الذي حقيقته في علاقته بالشخص. الأشياء متمايزة لا في جوهرها لكن في مظهرها، وبتعبير آخر في علاقتها بمن تظهر له. وهذا هو الفن، حقيقته التي ليست في المادة أو المنطق، بل في التعبير عنه، الحقيقة المجردة قد تنتمي الى العلم والماورائيات (الميتافيزيك) لكن عالم الواقع ينتمي الى الفن.

العالم كفن هو لعبة الذات العلية تلهو بصنع الصور. حاول أن تكتشف العناصر المكونة للصورة - تجدها زاغت عنك ولا يمكن أن تكشف لك سر الظواهر السرمديّ. حين تحاول الامساك بالحياة كما تبدو في نسيج حي، ستجد الفحم، والآزوت وأشياء أخرى لا تماثل الحياة، لكنك لن تجد الحياة نفسها. الظاهر لا يقدم أي تفسير لذاته من خلال مادته. لك أن تدعوها مايا وتتظاهر بعدم تصديقها، لكن الفنان العظيم (The Mayavin) لا يتأذى. لأن الفن هو مايا وليس له تفسير آخر إلا أنه يبدو كما هو. لا يحاول أبداً إخفاء مراوغته، إنه يسخر حتى من تعريفه ذاته ويلعب لعبة (الاختفاء والبحث) خلال طيرانه المستمر في التغيرات.

وهكذا تجد الحياة، التي هي الانفجار للمتواصل للحرية، مقياسها في التراجع المتواصل في العمق. كل يوم هو موت، بل كل لحظة. ولو لم يكن الأمر كذلك لنشأت صحراء بلا شكل بكماء ساكنة أبداً. وهكذا فالحياة مايا، كما يحب الفضلاء أن يقولوا، هي موجودة وغير موجودة. كل ما نجده منها هو الايقاع الذي تعرض نفسها من خلاله. هل الصخور والمعادن أفضل؟ أو لم يرنا العلم واقعة ان الخلاف الأزلي ما بين عنصر وآخر إنما هو في الايقاع؟ الفرق الأساسي ما بين الذهب والزئبق يكمن فقط في اختلاف الايقاع الذي تحكمه قوانيهما الذرية الخاصة بكل منهما. مثل الفرق في النوع بين موضوع الفنان، والذي ليس في مكوناته المختلفة بل في اختلاف مقاييس حالاته وظروفه. هناك ترى الفنان خلف المشهد،

ساحر الايقاع ، الذي يضفي مظهراً مادياً على ما هو غير مادي .

ما الايقاع؟ إنه الحركة مولدة ومنظمة بكوابح الانسجام . هذه هي القوة المبدعة في يد الفنان . فما دامت الكلمات في شكل نثر غير موقع فإنها لا تحدث أي شعور دائم بالواقع . وفي اللحظة التي تؤخذ فيها الكلمات وتوضع في إيقاع فإنها تنبض فتتحول الى اشعاع . الأمر نفسه مع الوردة . انك تجد في كتلة أوراقها كلّ ما جعل منها وردة ، لكن الوردة التي هي (المايا) ، أو صورة ، مفقودة هناك . إن كمالها الذي فيه لمسة اللا محدود ذاهب ، ضائع . تبدو لي الوردة وكأنها ساكنة ، لكن بفضل إيقاعات تصميمها تنبعث أغنية حركة داخل ذلك السكون ، مثلها في ذلك مثل الصفة الحركية التي تتمتع بها صورة تمتاز بانسجام تام . انها تولد موسيقى في وعينا بإعطائها أطراداً في الحركة متزامناً مع حركتها . وإذا ما تألفت الصورة من خليط غير منسجم من الألوان والخطوط فسوف تكون ساكنة سكون الموت .

يصبح الشكل الفني في الايقاع المتقن مثل النجوم في سكونها الظاهري مع أنها ليست كذلك أبداً إنها كالشعلة التي ماهي إلا الحركة ، والصورة العظيمة ناطقة دوماً ، لكن الأخبار في الصحف ، حتى التي تنقل أحداثاً مأساوية ، تولد خامدة . أو ساكنة . بعض الأخبار قد يبدو عادياً غير ذي شأن لاضطرابه (أوغموضه) في الجريدة . لكن إذا صيغ بإيقاع ملائم فلن يكف عن الاشعاع . هذا هو الفن ، إذ عنده العصا السحرية التي تمنح الحقيقة الحية لكل ما تلمسه ، وتصله بذلك الموجود الشخصي فينا . اننا نقف أمام ما ينتجه ونقول : إني أعرفك كما أعرف نفسي ، أنت حقيقي .

أحد الأصدقاء الصينيين ، أثناء تجواله معي في شوارع بكين ، فجأة وبدهشة كبيرة لفت انتباهي إلى حمار . والحمار عادة لا يمثل لنا أية قوة حقيقة خاصة إلا إذا رفسنا أو عندما نحتاج إلى خدماته البليدة . لكن في مثل تلك الحالات فالحقيقة لا تتأكد في الحمار بل في غرض معين منه . أو ألم جسماني خارج عنه . ذكرني سلوك صديقي الصيني فوراً بالأشعار الصينية التي تشعرك بحس الواقع البهيج بعفوية شديدة وبتعبير بسيط جداً .

هذا التحسس لملمس الأشياء وهذه المتعة الغنية في التعرف عليها ، تتعطلان حين تصبح الأغراض الملحة كثيرة ومعقدة في مجتمعنا . وحين تتراكم المشاكل في دربنا شادة اهتمامنا وحين تتعثر حركة الحياة بأشياء وأفكار صعبة التمثل وخالية من

التناغم .

هذا ما يزداد وضوحه كل يوم في عصرنا الحديث الذي يخصص في وقت أطول لاقتناء معدات الحياة لا للاستمتاع بها . وفي الواقع فإن الحياة نفسها تصبح في الدرجة الثانية من الأهمية أمام حيوات المواد . شأنها شأن حديقة مدفونة تحت الآجر المجمع ليكون سوراً لها . بشكل ما يتعاظم جنون الآجر والملاط وتتحكم القاذورات، وتصبح أيام الربيع بلا جدوى والأزهار تتوقف عن التفتح .

عقلنا الحديث، ذلك السائح المتعجل، في تلهفه على المنوعات يفتش في أسواق التحف الرخيصة التي غالباً ما تكون أوهاماً . يحدث هذا لأن حساسية الطبيعة تجاه مظاهر الوجود البسيطة قد تبلدت بالمشاغل المتواصلة التي تلهيه، والأدب الذي ينتجه يبدو دائماً كأنه يدس أنفه في أماكن غير مألوفة من أجل أشياء وتأثيرات خارجة عن المألوف . يرهق موارده من أجل أن يكون مؤثراً . يبذل قصارى جهده في تغييرات متقلبة في الاسلوب، كما في الصناعة الحديثة التي تقدم منتجاتها لمعان الفولاذ أكثر من إزهار الحياة .

النزوات في الأدب التي سريعاً ما تمل نفسها لا تأتي من العمق في الغالب . إنها تنتمي إلى زبد السطح في صخبه العنيف لادراك اللحظة، أدب كهذا، بتوتره الشديد، الذي يرهق نماءه الداخلي فيتناثر سريعاً خلال التغييرات الخارجية كأوراق الخريف، أدب كهذا ينتج بمعونة الدهانات والرقاع مُعاصرةً تجلل نفسها بعار الظهور مباشرة . ومعاييره غالباً ما تكون مكشرة، كصبار الصحراء الذي لا توفر التواءاته وأشواكه الأمان والذي يقف منفوشاً بعدوانيّة عارضاً كبرياء فقر مفروضة عليه . غالباً ما نمر بأشباهه في بعض الكتابات الحديثة الصعب تجاهلها لما فيها من المفاجآت الواخزة والايماءات الحافلة بالمفارقات . لا تخلو هذه الكتابات من الحكمة غير أنها حكمة أضاعت ثقتها بقيمتها الصافية وتخشى أن يتجاهلها الجمهور المأخوذ بالمبالغات وبما هو غير عادي . من المحزن أن نرى الحكمة تجهد في أن تبدو ذكية كنبي يستعرض نفسه بالقبعات والأجراس أمام دهماء معجبين .

في الفنون العظيمة، أدباً كانت أو غير ذلك، عبر الانسان عن مشاعره العادية بأشكال فريدة ولكن غير ممجوجة . حين وصف وورد ورث في قصيدته حياة أقفرت من الحب استنهض لفنه العاطفة العادية التي تتوقعها كل العقول العادية فيما يتعلق بمثل هذا الموضوع . أما الصورة التي جسد فيها العاطفة فكانت غير متوقعة

ومع ذلك يستقبلها أي قارىء عاقل بالفرح عندما تبسط الصورة أمامه:

عُش طائر مهجور مليء بالثلج

وسط دغل النسرين العاري.

ومن ناحية أخرى فقد قرأت في بعض الكتابات الحديثة مَنْ يشبه فيها بزوغ النجوم في المساء بطفح مفاجيء يصيب جسم الظلمة المنتفخ. يبدو أن الكاتب يخشى أن يكون لديه الشعور بالصفاء الهادي في ليلة مشعة بالنجوم والذي هو شعور عادي خوفاً من اتهامه بالابتذال. قد لا تكون الصورة من وجهة نظر الواقعية غير ملائمة كلية، ويمكن أن تعتبر صورة حادة في نفورها ووحشيتها. لكن هذا ليس فناً؛ إنه صرخة مخبولة إنه شيء شبيه بالاعلانات المقززة في الاسواق الحديثة التي تستغل نفسية العامة. الميل الى خلق وهم القوة بالتأكيد على الشذوذ ما هو إلا علامة من علامات فقدان الحس. نشاط سقيم يوظف براعة يائسة في فن اليوم لاحداث صدمات تؤجج الاحساس بغير المألوف. وحين نجد الأدب في أية حقبة يجهد في السعي وراء جدة كاذبة في الموضوع أو المادة فلنعلم أن ذلك ظاهرة هرم، وفقر دم في الاحساس يسعى لاثارة الذوق المشلول ببهار البذاءة الحاد والشهوانية الواخزة. هذه الظاهرة، كما شرح لي أحدهم، هي على الأغلب حصيلة رد فعل ضد أدب القرن الماضي المبالغ في حلاوته والمفرط في تبرجه ونعومة تعبيراته مما جعله يبدو أنه مصفى أكثر من اللازم. وقد رتبت مصطلحاته وصنفت مما جعلها سهلة التداول على المواهب القاصرة وتصل بواسطتها الى مستوى مقبول من التأدب. قد يكون هذا صحيحاً. لكن نادراً ما تكون ردود الأفعال عفوية للأسف. انها تمثل الوجه الآخر من العملة التي يعلنون زيفها. فرد الفعل على سلوكية معينة لابد أن يولد سلوكية مناقضة، تحت اسم الوطنية تعلن الحرب بأسلوب بدائي ولكنه أيضاً مصنوع بروية، شأنها نحو ذلك شأن البستاني الذي مل مشهد مساكب الزهر الدقيقة التنظيم، فراح يبث هنا وهناك صخوراً زائفة، ليكسر ايقاع الموضة القديمة الطاغية بإبقاء مغاير هو نفسه طغيان الموضة الجديدة. وغريزة القطيع التي سيطرت على عصبة العصيان هي نفسها المسيطرة الجديدة على عصبة الثبات والتحدي. انها مضادة للطاعة وفي الوقت نفسه تبدي الطاعة بأسلوب متحد. كمسألة التعصب الشديد للرجولة فهو يقود الى رياضة تنمي العضلات بشكل يفيد في السيرك وتغفل الشهامة الطبيعية المتميزة بالتواضع والمنعة في آن معاً، والتي هي

صاحبة الحق في المطالبة بالعرش في كل الفنون.

لقد قيل دائماً على لسان دعاة هذا المذهب. أن ذلك الاستعراض الصارخ ببذاءته ورخصه يجد مبرره في العرض النذيه الأمين للوقائع، ويذهب هؤلاء إلى أنه ليس لنا أن نتجنب الواقعية، ولو كانت مزرية الشكل يتفوح منها الخبث. لكن عندما يتعلق الأمر بالفن لا بالعلم فعلينا أن نرسم حداً فاصلاً ما بين الواقعية والحقيقة. فالمرض حقيقة يجب أن يقربها الأدب؛ أما المرض في المستشفى فواقع يواجهه العلم، إنه تجريد إذا ما سمح لشبحه أن يسكن الأدب فسيطبعه بطابع التشويش بسبب عدم واقعيته. واشباح كهذه هائمة لا تملك تشكيلاً متناسباً في محيط عادي ونسبها زائفة القسمات لأن نسب البيئة قد تشوهت فيها، إن اختزال الرئيسي ليس فناً، إنما هو حيلة تستغل التشويه لتأكيد ادعاء زائف بالانتماء للواقعية. وللأسف هناك كثير من الناس ممن يعتقدون أن ما يفاجئهم بقوة يتيح لهم أن يروا أكثر مما تريهم الحقائق المتوازنة والمضبوطة التي عليهم أن يقوموا باغوائها ليحققوا انتصاراً عليها. وبسبب انهماك الناس وقلة أوقات الفراغ فإن أمثال هؤلاء يزدادون عدداً في أقبية علم نفس الجنس المظلمة وصيدليات الوباء الاخلاقي قد فتحت أبوابها ليأخذوا منها المنبه الذي يرغبون فيه ويظنون أنه منبه الحقيقة الجمالية.

أحفظ بيت شعر بسيط كانت تغنيه جماعة بدائية في الجوار. أترجمه هكذا: «قلبي مثل سرير الحصى يخفي جدولاً أحمق». إن المحلل النفسي يمكن أن يصنف هذا البيت كشاهد على رغبة مكبوتة. وبذلك ينزل فوراً بمرتبته إلى النظر إليه كمجرد صنف أو نوع يمثل حقيقة مفترضة، كما تفعل قطعة فحم يُشتبه أنها هرّبت في سوادها خمرة الشمس الملتهبة لعصر منسي. لكنه الأدب المنبه الأصلي الذي داهم الفكرة وحولها الى أغنية، إلى حقيقة ثابتة أخذت شكل صورة من ابداع شخصية متفردة وعالمية في وقت معاً. حقائق الرغبات المكبوتة معروفة بكثرة. ولكن هذا التعبير الخاص فردي وليس عاماً. ويتأثر ذهن المستمع بها لا لأنها حقيقة علمية نفسية، بل لأنها قصيدة فردية تمثل حقيقة شخصية تنتمي الى كل زمان ومكان في العالم.

لكن هذا ليس كل شيء، فالقصيدة بلا شك مدينة في صياغتها الى لمسة ولكنها تتجاوز في الوقت ذاته، بإيماءة من التجرد المطلق، مادتها واللحظة النفسية التي كان يحياها المؤلف. انها تحقق حريتها من كل عبودية يفرضها تاريخ حياة

الشـاعر، وتكتب تاريخ حياتها بكمالها الايقاعي الثمين بخصائصه الذاتية الثمينة. هنـاك قصيـدة تقـر من عنـوانهـا بأن أصلها نابع من حالة كآبة. لا أحد يستطيع أن يدعي أمـام عقـل سليم بأن شعـور اليأس يشكـل ذكرى سارة. مع ذلك فإن هذه الأبيـات تعلق بالـذاكـرة لأنـه ما إن تنظم القصيـدة حتى تتحرر من أصولها وتؤكد تحررها. فالأسى الذي كان أمراً شخصياً يصبح امبراطوراً تحرر واتخذ مباشرة شكل أبيـات منقـوشة على حجر. وتصبح الأبيات نصراً على النحيب وفيضاً من البهجة تخفى في الصخـرة السـوداء أصـل معـانـاتهـا، والشيء ذاتـه صحيـح في كل عمل ابداعي. كقطرة الندى وحدة مستقلة لا تتذكر شيئاً عن اسلافها.

حين استخـدم كلمـة (ابداع) أعني أن تجريدات ذهنية معينة قد غدت عبره لدنيـا قطعـة عينيـة مشخصـة، يمكن أن تحلل مادتها أما هي فلا. إن الأدب كفن يكشف لنا سره الكامن في وحدته. لنقرأ القصيدة:

لا تحاول أن تقول لحبيبتك
الحب الذي لم يحك عنه موجود
لأن النسيم العليل يسري
بصمت وخفاء

قلت لحبيبتي، قلت لحبيبتي
حدثتها بكل ما في قلبي؛
راعشة مقرورة شاحبة بالخوف
آه! رحلت.

لحظة فارقتني
مر عابر سبيل؛
وبصمت وخفاء
أخذها بتنهيدة.

أحفـظ بيت شعـر بسيـط كانت تغنيه جماعة بدائية في الجوار. أترجمه هكذا:

«قلبي مثل سرير الحصى يخفي جدولاً أحمق» . إن المحلل النفسي يمكن أن يصنف هذا البيت كشاهد على رغبة مكبوتة . ويذلك ينزل فوراً بمرتبته إلى النظر إليه كمجرد صنف أو نوع يمثل حقيقة مفترضة ، كما تفعل قطعة فحم يُشتبه أنها هرّبت في سوادها خمرة الشمس الملتهبة لعصر منسي . لكنه الأدب المنبه الأصلي الذي داهم الفكرة وحولها الى أغنية ، إلى حقيقة ثابتة أخذت شكل صورة من ابداع شخصية متفردة وعالمية في وقت معاً . حقائق الرغبات المكبوتة معروفة بكثرة . ولكن هذا التعبير الخاص فردي وليس عاماً . ويتأثر ذهن المستمع بها لا لأنها حقيقة علمية نفسية ، بل لأنها قصيدة فردية تمثل حقيقة شخصية تنتمي الى كل زمان ومكان في العالم .

لكن هذا ليس كل شيء ، فالقصيدة بلا شك مدينة في صياغتها الى لمسة ولكنها تتجاوز في الوقت ذاته ، بإيماءة من التجرد المطلق ، مادتها واللحظة النفسية التي كان يحياها المؤلف . انها تحقق حريتها من كل عبودية يفرضها تاريخ حياة الشاعر ، وتكتب تاريخ حياتها بكمالها الايقاعي الثمين بخصائصه الذاتية الثمينة . هناك قصيدة تقر من عنوانها بأن أصلها نابع من حالة كآبة . لا أحد يستطيع أن يدعي أمام عقل سليم بأن شعور اليأس يشكل ذكرى سارة . مع ذلك فإن هذه الأبيات تعلق بالذاكرة لأنه ما إن تنظم القصيدة حتى تتحرر من أصولها وتؤكد تحررها . فالأسى الذي كان أمراً شخصياً يصبح امبراطوراً تحرر واتخذ مباشرة شكل أبيات منقوشة على حجر . وتصبح الأبيات نصراً على النحيب وفيضاً من البهجة تخفى في الصخرة السوداء أصل معاناتها ، والشيء ذاته صحيح في كل عمل ابداعي . كقطرة الندى وحدة مستقلة لا تتذكر شيئاً عن اسلافها .

حين استخدم كلمة (ابداع) أعني أن تجريدات ذهنية معينة قد غدت عبره لدنيا قطعة عينية مشخصة ، يمكن أن تحلل مادتها أما هي فلا . إن الأدب كفن يكشف لنا سره الكامن في وحدته . لنقرأ القصيدة :

لا تحاول أن تقول لحبيبتك
الحب الذي لم يحك عنه موجود
لأن النسيم العليل يسري
بصمت وخفاء.

قلت لحبيبتي، قلت لحبيبتي
حدثتها بكل ما في قلبي؛
راعشة مقرورة شاحبة بالخوف
آه! رحلت.

لحظة فارقتني
مر عابر سبيل؛
وبصمت وخفاء
أخذها بتنهيدة.

إن للقصيدة قواعدها ومفرداتها، وحين نجزئها جزءاً جزءاً محاولين انتزاع اعتراف منها بالسر ترحل مثل النسمة العليلة بصمت وخفاء. لا أحد يعرف كيف تتفوق على جميع أجزائها وتخرج من كل قوافيها وتتواصل مع المتلقي. إن المعنى، الذي هو في الوحدة، لهو عجب خالد.

ربما كانت لدينا شكوكنا حول المعنى المحدد للقصيدة. لو أنها رويت لنا بنثر عادي فقد نحس بالضيق والميل لمعارضتها وقد نطلب توضيحاً عمق كان ذاك العابر ولماذا أخذ معه الحبيبة من غير تحريض معقول. لكن ذلك في القصيدة لا يحتاج الى شرح مالم نكن مصابين بداء جمع المعاني الشبيهة بجنون جمع الفراشات الميتة. القصيدة ابداع والابداع شيء أكبر من فكرة تقتحم انتباهنا بسطوة والمعنى الذي ندركه في كلماتها شبيه بالاحساس بوجه جميل ذي ابتسامة غامضة عميقة الرضا.

الوحدة كقصيدة تقدم نفسها بلغة ايقاعية في هيئة شخصية. والايقاع ليس فقط في المزيج المحسوب للمفردات بل في توافق الافكار المهم، في موسيقى فكرية تتولد عن مبدأ التوزيع الذكي المنطقي من حيث المبدأ ولكن ببساطة ووضوح، ومعنى شخصيته صعب التحديد. إنه مفهوم في تجميع خاص للمبادىء التي تكسبه قوة دفع لا تقاوم، والاتحاد الذي تمثله قد يكون غير مألوف أو قد يكون غير مكتمل أو فيه بعض التنافر ومع ذلك ففيه قوة حركية في كليته تفرض نفسها غالباً على رغباتنا وما يوافق منطقنا، مثله مثل كرة الثلج المتدحرجة التي تكتسب شخصيتها من حركتها الضخمة وفي احتمالاتها غير المحسوبة على النقيض من كتلة

ثلجية ثابتة قد تكون أثقل منها في الوزن.

إن على الفنان أن يذكر العالم أننا في صدق تعبيرنا نكبر في الحقيقة. حين يكون العالم الذي يصنعه الانسان أقل تعبيراً عن روح الانسان المبدعة من جهاز مصنوع لغرض من أغراض القوة فإنه يقسّي نفسه مقدماً البراعة والحزن على حساب ما تنطوي عليه الحياة في نموها من إيماءة ذكية. إن الانسان في فعالياته الابداعية يجعل الطبيعة غريزة بحياته وبحبه. لكنه في طاقاته النفعية يقاتل الطبيعة، ينفيها من عالمه ويشوهها ويدنسها ببشاعة طموحاته.

هذا العالم الذي صنعه الانسان ذاته بصخبه وتبجحاته يضغطه في نظام عالم فاقد للمسة الفرد ولذلك فهو غير مفهوم كلية. ولا بد أن الحضارات العظيمة المنقرضة قد بلغت نهايتها بسبب التعبير الخاطىء عن الانسانية وبسبب نمو الطفيلية بشكل هائل الذي حملته الثروة واعتماد الانسان العنيد على المصادر المادية عبر روح الافكار والرفض والسلبية التي سرقت منا أدوات العيش في دروب الحقيقة.

إن على الفنان أن يجهر بإيمانه بما هو أبداً إيجابي أن يقول: «أومن بأن هناك مثلاً أعلى يحوم فوق الأرض وينفذ فيها، مثلاً أعلى للجنة التي ليست حصيلة الخيال فقط بل الحقيقة المطلقة التي تسكن فيها كل الأشكال وتتحرك».

أومن بأن رؤيا الجنة يجب أن تُرى في ضوء الشمس وخضرة الأرض. في جمال الوجه الانساني وغنى الحياة الانسانية حتى بالأشياء التي قد تبدو غير مفهومة وغير جذابة. من كل مكان على هذه الأرض تستيقظ روح الجنة صادحة بصوتها. وإنها لتبلغ آذاننا دون معرفة منّا بها. تضبط أوتار قيثارة حياتنا وترسل أنفاسنا في موسيقى خلف النهائي. لا بالصلوات والآمال فحسب بل أيضاً في الهياكل التي هي شعل نارية في الحجر. في الصور التي هي أحلام كُتب لها الخلود وفي الرقصة التي هي تأمل جمالي في المركز الساكن للحركة.

---

القي القسم الأول من هذه المقالة محاضرة في الصين عام ١٩٢٤. أما القسم الثاني فمحاضرة في جامعة داكا عام ١٩٢٦.

## رابندرانات طاغور

# مدرسة الشاعر

من الأسئلة التي توجه إلي تولد لدي شعور بأن الجمهور يطالب الشاعر باعتذار لأنه أسس مدرسة، كما فعلت في نوبة طيش. على المرء أن يعترف أن دودة القز التي تغزل الحرير والفراشة السابحة بجناحيها في الهواء تمثلان مرحلتين من مراحل الوجود متناقضتين. لكن يبدو أن لدودة القز رصيداً نقدياً مودعاً لصالحها في احدى دوائر الطبيعة المالية، لقاء العمل الذي تؤديه. أما الفراشة فغير مسؤولة، والأهمية التي قد تتمتع بها لا وزن لها ولا نفع، ولا يُعتد بجناحيها الراقصين. لعلها تسعد أحداً ما في ضوء الشمس، كنز الألوان الإلهي، الذي لا علاقة له بدفاتر الحسابات، والمتحكم بذلك الفن العظيم فن التبذير.

يمكن أن يقارن حال الشاعر بهذه الفراشة الحمقاء. فهو مثلها يحاول ترجمة احتفالات ألوان الطبيعة في اهتزازات أشعاره. فلم يحبسُ نفسه إذن في شرنقة عمل ممل؟ أمن أجل أن يحقق نتائج ملموسة تتلقى الاحترام؟ لماذا عليه أن يؤكد وجوده لهؤلاء العقلاء الذين يحكمون على قيمة نتاجه بقدر ما يحقق من فائدة.

وظني أن جواب الشاعر كان حين جمع بعض الأطفال في يوم مشمس من فصل شتاء تحت الظلال الدافئة لأشجار السال ـ القوية الممشوقة الطول ذات الأغصان المعتدلة البروز ـ وكان قد شرع في كتابة قصيدة بأداة ليست من الكلام

في هذه الأيام، أيام كان التحليل النفسي يسير خطواته الخجلى الأولى، اكتشفت العقول النيرة أن سرّ نبع الشعر يكمن في حالة غامضة لحرية مخنوقة وهياج مستمر لادراك ذات محبطة. وهم ببساطة على حق في هذه المسألة. فأنا قد جاء شبح

طفولتي البعيدة، ليسكن أطلال فرص الشعر المبكرة. حاول هذا الشبح أن يعيش حياة الأولاد الآخرين، كيما يبني فردوسه المفقود. والاطفال يمكن أن يصنعوا شيئاً من أشياء ليست ذات مادة محافظة، أو مقياس محدد، أو قيمة معيارية.

يحضرني في هذا المقام اسم شاعر من شعراء الهند القديمة؛ كاليداسا، الذي لم تكتب قصة حياته، ولكن يمكن أن نخمنها. ولحسن حظ البحاثة أنه لم يخلف اشارة عن مكان مولده، وبذلك صار لديهم موضوع يشغلهم، فالزمن المنسيّ ترك مساحة شاغرة لتنويعات من الاجتهادات التي لا تنتهي. وعلمي لا يزعم التعمق في هذه القضية، ولكني أذكر أني قرأت في مكان ما أنه ولدَ في كشمير الجميلة. ومنذ ذلك الوقت أقلعت عن قراءة الابحاث الخاصة بمكان مولده، خوفاً من أن أصادف رأياً آخر معادلاً في الاقناع. وعلى أية حال أرى من الملائم أن يكون كاليداسا مولوداً فعلاً في كشمير - وإني لأحسده، فقد ولدت في كالكوتا.

لكن يجب على التحليل النفسي ألا يصاب بالخيبة لأن الشاعر كان قد نفي إلى مدينة في السهول - وقصيدته (ميغادوتا) في مجموعها ترجّع صدى أسىً يحمل تاج معاناة «استذكار أشياء أكثر سعادة». أليس مهماً أن تجد في تلك القصيدة ولع الحبيب الهائم، وسؤاله عن المحبوب الساكن في جنة الجمال الخالد، وأن تراه يمشي هوناً ويتوقف قاصداً عند كل تلة وكل جدول أوغابة. يتأمل عيون الفلاحات السود الممتنة، والمرحبة بغيوم حزيران المثقلة بالمطر، يصغي الى شيخ قروي يرتل تحت شجرة تين البنغال الضخمة اسطورة حب شهيرة لا تزال تحتفظ بنضرتها الأبدية، بدموع أجيال من القلوب الطيبة وابتساماتها؟ ألا نشعر في كل هذا بسجين المدينة المتحجرة القلب الملآى بالصخب، ذاك الذي تعقبه في رحلته المتخيلة من تلة الى تلة وانتظره عند كل منعطف في الطريق التي تنتصب فيها اشارات السماء الدالة على الجهات كي ترشد العشاق المفرقين والمنفيين في الأرض؟

لم يكن الحنين المادي الى الوطن هو ماعاناه الشاعر، إنه شيء أبعد وأعمق، هو حنين الروح. ففي معظم أعماله نشعر بجو قصور ملوك تلك الأيام الثقيل الوطأة، الغاص بوسائل الرفاهية، والكتيم بإرضاء الشهوات، وإن يكن ذاك الجو جو حضارة راقية ومدنية مسرفة.

الشاعر وهو في البلاط الملكي يعيش في المنفى - المنفى عن الحضور المباشر للخالد. وقد عرف أنه لم يكن منفاه وحده، بل منفى العصر الذي ولد فيه كله،

العصر الذي ربح الثروة وخسر السعادة، الذي بنى المخازن للأشياء وأضاع جذوره في الكـون العظيم. على أي شكـل ظهـرت رغبته الملحة في الكمال في مسرحه وفي شعـره؟ كان ذلـك في (التـابـوفانا) سكنى الغابة، التي اختارها المجتمع الأبوي في الهنـد القـديمة. وأولئك المطلعون على الأدب السنسكريتي يعلمون جيداً أن ذلك المجتمـع لم يكن مستـوطنـة قوم بدائيي الثقافة وقاصري العقول، لقد كانوا باحثين عن الحقيقة، ومن أجلها عاشوا في جو النقاء، لا جو الطهرانية؛ جو الحياة البسيطة لا وأد الحيـاة. لم يدعـوا الى عدم الـزواج، وكـانوا على اتصال دائم بالناس الذين ارتأوا أن يعيشوا الحياة الدنيوية. ولقد عُبِّر عن هدفهم وجهدهم في الاوبانيشاد في هذين البيتين:

والذين صفت عقولهم ينفذون الى الكل عارفين،
متحدين أينما كانوا مع الروح الكلية الوجود.

ليست هذه فلسفـــة زهـــد سلبي الطـــابـــع، بل فلسفـة ادراك شامـل كل الشمـول، على أيـة حال فإن ذهن كاليـداسا، المعذب في مدينة يوجيني المزدهرة في عصـر (فيكـراماديتيا) المجيد، والمضغوط عليه بالأشياء المعوقة وكل ما يبيد النفس، أخذت افكاره تحوم حول رؤيا التابوفانا لتنفخ فيه روح الحياة والنور والحرية.

وليس نُسخة مقصودة، بل صدفة طبيعية أن الشاعر الهندي المعاصر تولدت لديه الرؤيا نفسها حين شعر في داخله ببؤس النفي الروحي. أقبل الناس، في زمن كاليـداسـا، على الايـمان بُمثُل التابوفانا، المستوطنة الغابية، وهناك كانت في تلك العصور السالفة، مجتمعات بشرية في قلب الطبيعة، لم يكن أفرادها عشاق انتحار بطيء بل هم ناس ذووعقول صافية تبحث عن فهم المعنى الروحي لحيواتهم. ولذا حين غنى كاليـداسـا عن التـابوفانا وجدت أشعاره صداها المباشر في إيمان مستمعيه الحي. غير أن فكـرة التـابـوفـانا اليوم فقدت شكلها الحقيقي وتراجعت الى أرض الاشبـاح النـائيـة في الأسـاطـير. ونـراها في قصيدة حديثة بمجرد براعة شعرية وتقيّم معـانيهـا بمعـايـير النقد الحرفي. ولذلك أيضاً يمكن أن تكون التابوفانا في شكلها الأصيل الصافي مفارقة تاريخية رائعة في هذا العصر. لهذا من أجل أن تكون حقيقة يجب أن تجد تجسدها الجديد في شروط الحياة المعاصرة وتكون نفسها في الحقيقة، لا مجرد تماثل في الواقع. وذلك ما جعل قلب الشاعر الحديث يرغب في كتابة قصيدته

بلغة حسية .

لكن علي أن أعرض التاريخ بشيء من التفصيل .

لقد ابتعد الانسان المتمدن كثيراً عن مدار حياته العادية وتكونت عنده بالتدريج عادات أشبه بعادات النحل من أجل أن يكيف نفسه مع عالمه ـ الخلية . ولذا كثيراً ما نرى معاصرينا يعانون من قلق الفراغ ، ومن متاعب الحياة اليومية ، ومن روح الثورة بلا سبب معقول أيا كان هذا السبب . والثورات الاجتماعية دائماً تصاحب بالعنف الناجم عن عدم الارتياح داخل جدران خليتنا ـ ذلك الأسر الذي يحرمنا المدى الذي نحتاج إليه كل الاحتياج لننال نصيبنا من فن الحياة . وكل هذا مؤشرَ على أن الانسان لَمّا يتقولب في قالب نحلة ، ولذلك يصبح ضد المجتمع بشكل طائش حين تنكر عليه حريته في أن يكون أكثر من اجتماعي .

في ظروفنا البالغة التعقيد نُظمت القوى الآلية بفعالية جعلت المواد المنتجة تفوق قدرة الانسان الانتقائية والاستيعابية على تبسيطها لتكون منسجمة مع طبيعته وحاجاته ، وأصبح تزايد الأشياء المفرط ، والشبيه بالنباتات الاستوائية الكثيفة ، سجناً للانسان ، ذلك أن العشّ بسيط فهو على صلة مريحة بالسماء ؛ أما القفص فمعقد ومكلف وهو بحد ذاته أمر مريع ، يحرم كل ماهو خارجه . والانسان المعاصر مشغول في بناء قفصه وينمي بسرعة طفيليتيه على الوحش ، الشيء ، الذي يتيح له أن يحيط به من كل جانب . إنه دائماً منهمك في تكييف نفسه مع زواياه الميتة ويحدد نفسه على قدر حدوده ليصبح تماماً جزءاً منه .

قد يبدو هذا الكلام شرقياً جداً لبعض مستمعي الذين ، كما قيل لي يعتقدون أن ضغط الحياة العالي والمستمر الناتج عن جوع مصقول بشكل صناعي للأشياء يولد الطاقة التي ترفع الحضارة في رحلتها اللانهائية ويغذيها .

أنا شخصياً لا أعتقد بأن مبدأ القوة الدافعة هذا كان في يوم من الأيام سبباً لتفوق أية حضارة من الحضارات العظيمة المعروفة في التاريخ . لكني تناولت هذا الموضوع لا من أجل البحث فيه بل من أجل شرح سلوك الشاعر أثناء تسلله الى حقل مخصص للخبراء وأصحاب الألقاب العلمية .

ولدت في مدينة كانت تعد الحاضرة الكبرى للهند البريطانية . لقد جاء أسلافنا إليها طافين فوق المد المبكر لتموجات الثروة لدى شركة الهند الشرقية . وأصبحت حياتنا التقليدية تحت تأثير ثقافات ثلاث ، الهندوسية ، والاسلامية ،

والبريطانية. كان جدي ينتمي الى الفترة التي غلب عليها الاسلوب الفيكتوري في الملبس، والتعامل واللهو، وطابع الاقتصاد في الوقت والاحتفالات وفي هيبة المظاهر الشخصية. يدلكم هذا على أنني جئت الى عالم أخذت فيه الروح التقدم الحديثة المفرّخة في المدينة، تسوق مركبة نصرها فوق خضرة حياتنا النضرة التي تميزبها مجتمعنا القروي.

رغم أن عملية التغير الساحقة كانت قد اكتملت حولي، إلا أن عويل صرخة الماضي ظل يدوي فوق الحطام. ما أكثر ما سمعت أخي الأكبر يصف بأسف تشوبه حدة اليأس المجتمع المضياف: الحلو بنكهة العالم القديم الفاغمة، المفعم بالايمان البسيط، والشعر المحتفل بالحياة، غير أن ذلك كله كان ينحسر خلفي في وهج شفق الأفق الذهبي. ولفت طفولتي حقيقة وحيدة هي المدينة الحديثة التي شيدتها عصبة تجار غربيين، وروح العصر الجديث التي تشق طريقها غير المألوف في حياتنا المتعثرة بما لا يعد من الغرائب. وتظل مفاجأة لي فكرة أن تجربتي الوحيدة في العالم كانت تلك المدينة المغلقة القاسية، ورغم ذلك فقد كان ذهني مسكوناً بروح الحنين الى الوطن الذي يرافق المنفي.

يبدو أن تذكر مكان مأهول، عبر العقل الباطن، حيث نُقشت ونطقت في عقول اسلافنا أسرار الصخور الهيولية، والمياه المندفعة والهمهمات الدامسة للغابة، كان يهيج دمي بصرخته. يبدو أن ظلال ذكريات حية في داخلي كانت تئن شوقاً الى الرحم وملاعب الطفولة التي تقاسمنا فيها الحياة الأولى في سحر الأرض اللا محدود وسحر الماء والهواء. صرخة طائرة الورق المحلقة الحادة النفاذة تحت الشمس المتوهجة في ظهيرة يوم هندي خدر أرسلت الى ولد يشعر بالوحشة اشارات قرابة الدم البعيدة المهملة. كانت بضعة أشجار جوز الهند الواقفة عند سور منزلنا كأسرى حرب من جيش الغزاة القديم للأرض، تحدثني عن الرفقة الخالدة التي لا زالت تمنحها أخوة الشجر العظيمة للانسان. لقد جعلت هذه الأشجار قلبي يئن شوقاً لدعاء الغابة. ولقد أسعفني الحظ بإجابة تلك الدعوة شخصياً بعد عدة سنين حين وقفت، وأنا في العاشرة، وحيداً فوق الهيملايا تحت ظلال أشجار الأرز العظيمة، محوطاً برهبة الجلال الغامض لنبل الحياة الوليدة بعبثية صمودها الرهيب واللطيف في آن معاً.

وأنا أستعيد لحظات أيام طفولتي، حين كان ذهني وكأنه يطفو متوازناً فوق

شعـور فسيـح بالسـماء وبـالنـور، ويختلط بالأرض السمراء ذات العشب الألق، لا أملك إلا أن أومن بأن اسلافي الهنود قد غرسوا في أعماقي تراث فلسفتهم، الفلسفة التي تقـول بالكـمال من خلال الانسجـام مع كل الاشيـاء. للخـير أو للشر إن لهذه الفلسفة قدرة عظيمة على استنهاض رغبة عظيمة فينا كي نبحث عن حريتنا، لا في العالم الذي صنعه الانسان، بل في عمق الكون وتدفعنا لتقديم الاحترام للالوهية الحالّة في النار والماء والأشجار وكل ما يتحرك أو ينمو. لقد استمد تأسيس مدرستي أصوله من ذاكرة ذاك التوق الى الحرية، تلك الذاكرة التي يبدو أنها تعود الى ما قبل ولادتي.

الحـريـة، بمعنى الاستقـلال فقـط، بلا مضمـون، ومن ثم بلا معنى. انما تكمن الحرية الكاملة في الانسجام الكامل في العلاقات التي تحققها مع هذا العالم - لا عبر الاستجابة اليها بالمعرفة، بل بالوجود. فموضوعات المعرفة تبقى في منأى عنا نحن العـارفـين. لأن المعـرفة ليست اتحاداً. وعالم الحرية البعيد ينتظرنا هناك حيث نبلغ الحقيقـة، لا من خلال الشعـور بحـواسنـا أو معـرفتهـا بالعقل، بل من خلال الاتحاد بالعاطفة الكاملة.

يُقبـل الأطفـال على العـالم مبـاشـرة بود، بحـواسهـم الغضـة. وهـذه أولى مواهبهم العظيمـة. يجب أن يقبلوا العالم بسيطـاً وعـاريـاً وألا يفقدوا قدرتهم على التـواصـل المبـاشـر معه. ومن أجل كمالنا يجب أن نكون متوحشين حيوياً ومتمدنين عقليـاً، وأن يكـون لدينـا موهبـة أن نكـون طبيعيـين مع الطبيعـة وانسـانيـين مع المجتمع الانساني. ويعود الأسى الذي اعتراني الى الوحشة الخانقة التي غمرتني في مدينـة يحتـل فيهـا البشـر كل مكـان ولا متسع فيها لما هو غير بشري. كانت روحي المنفية القابعة في العزلة المتمدنة لحياة المدينة تصرخ في أعماقي من أجل توسيع أفق فهمهـا. كنت كشطـر بيت شعـر، في حالـة ترقب دائم، في حين كان الشطر الثاني المكمـل مطمـوسـاً بعيـداً على مسـافة يغشاها الضباب والغموض. وكانت القدرة البسيطة على السعادة، التي جلبتها معي، وغيري من الأطفال، الى هذا العالم، تكمن في كوني دائم الحـذر ومخـالفـاً ترتيبـات حيـاة الآجـر والملاط والعادات الآلية الرتيبة، ومبادىء الوجاهة المعتادة.

أرسلت الى المدرسة كما هي العادة، إلا أن معاناتي، ربما، كانت غير عادية وتفوق ما عاناه معظم الأطفال. كان المتوحش فيّ حساساً، لديه ظمأ شديد للّون

وللمـوسيقى ولحـركـة الحيـاة. ولم تكن الـتربيـة في مدينتنا تعبأ بهذه الحقيقة الحية. كانت لديهـا شاحنـة جاهزة لنقل بالات البضائع المنتجة المدموغة بالعلامة التجارية القابلة للتسويق. إن نسبة المتوحش الى المتمدن في الانسان يجب أن تكون كنسبة المـاء الى اليـابسـة. فالمتوحش هو المسيطر. لكن المدرسة قد أعدت عدتها لاصلاح المتوحش باستمرار. مثل هذا الاستنزاف للعنصر السائل يسبب الجفاف وقد لايعد ذلـك أمـراً يؤسف عليـه في ظروف المـدينـة. غير أن طبيعتي لم تتعـود على تلك الظـروف أبـداً ولا على قسـاوة حشمـة الأرصفـة. حقق المتـوحش فيّ نصراً مبكرةً وجـرفني من مدرستي بعيـد تجاوزي العـاشـرة من العمـر. وألفيت نفسي وحيداً في جزيـرة الجهـل المعزولة. وصار علي أن أعتمد وحدي على غرائزي لتحصيل العلم منذ البداية الأولى.

يذكرني هذا، أنني حين كنت فتى، صادفني الحظ بالوقوع على ترجمة بنغالية لروبنسـون كروزو. لا زلت أعتقـد أنـه واحـد من أفضل الكتب الموجهة للفتيان. تحدثت مسبقاً في هذا المقال عن توقي وأنا صغير الى الهرب من نفسي، لأتوحد مع كل شيء في الطبيعة. وقد وصفت هذه الحالة بأنها حالة هندية خاصة ناتجة عن الرغبة الموروثة في توسيع الوعي. وعلى المرء أن يعترف بأن رغبة كهذه شديدة الخصوصية في ذاتهـا. غير أن ذلـك حتمي في ظروفنـا الجغـرافيـة، إذ أننا نعيش تحت الطغيان الاستـوائي الجـائـر ونـدفـع ضريبـة باهظـة في كل لحظـة في سبيل الحق البحث في الـوجـود. الحـرارة، الرطوبة، تكاثر الأحياء الدقيقة الصامت على حساب الأحياء الأخـرى. مصـادر الازعاج التي تنتهي المرئية وغير المرئية... كل ذلك لا يترك إلا هائماً ضئيلاً من رأس المال للتجارب المتطرفة.

الطـاقـة الـزائـدة تبحث عن العوائق من أجل تحقيق الذات، وهذا سبب ما نجده كثيراً في الأدب الغربي من تأكيد مستمر على مظاهر الطبيعة الشرسة، والتي يرى فيهـا أهـل الغـرب، كما يبـدو، عدواً يسعدون كل السعادة في اكتشافه وتحديه للقتال السبب الذي جعل الاسكندر الأكبر يعبر عن رغبته في أن يجد عوالم أخرى ليفتحها بعد أن أتم فتحه لهذا العالم، وجعل أولئك الناس الممتلئين حيوية، عندما تتبـاطأ رسـالتهم المقـدسـة في قتال أهداف ضارة يحولون طريقهم ليبسطوا هيمنتهم على شؤون الشعـوب الأخـرى ويفـرضوا عليها الغرامات بعد سحقها، ومن أجل أن يحصلوا على متعـة ايـذاء النفس المثيرة تراهم يرحبون بمشاق لاتنتهي في ايذاء

غيرهم من المســالمــين ـ الطيــورر الجميلة ، التي حدث أن تعلمت كيف تطــير ، والوحوش المذعورة التي لها ميزة سكنى المناطق العسيرة البلوغ وأتجنب عدم اللياقة بذكر أجناس أعلى في هذا السياق .

يواجـه اكتـمال الحيـاة ، في مسـاره ، الكثير من المضـادات ولكنهـا ضرورية لصالح تقدمها ، الجدول يتخلص من ركود مجراه باعتراض التربة المستمر له ، والتي عليـه أن يشق طريقـه فيها وينشيء منها ضفتيه . إن روح القتال تنتمي الى عبقرية الحيـاة . أوتـار الآلـة الموسيقية يجب أن تضبط لا لنكشف عن الدأب والحذق أمام الصعـوبـة بل لتعـين الموسيقى على الـوصول الكامل . فلنبتهج أن آلة الحياة ، في الغرب ، قد ضبطت أوتارها المختلفة وهي مدينة بذلك الى حقيقة أن الغرب يحقق سعادة المنتصر في صراعه مع العوائق . لكن روح الابداع في قلب الكون لن تسمح أبـداً ، وذلـك لخيرهـا ، أن تزال العـوائق ازالة تامة . إنه بسبب أن الحقيقة الايجابية تكمن في ذاك المثـل الأعلى للكـمال ، الـذي يجب أن نحققـه بجهدنا ليكون ملكـاً لنـا ، وفي أن روح القتـال عظيمـة ، وليس في معـرض الـريـاضة العضلية أو بربرية الجشع الجلف .

في روبنسـون كروزو يتجلى فرح الاتحـاد مع الطبيعـة في قصـة مغـامرة فيها الانسـان الـوحيـد وجهاً لوجه مع الطبيعة الوحيدة ، يتحايل عليها ، يتعاون معها ، يكتشف أسـرارهـا ، يستخـدم كل مهـاراتـه ليربـح عونهـا . لم يكن الفـرح الـذي أحسست به أثناء قراءتها ناجماً عن المشاركة في الاعتزاز بنجاح انساني ضد قبضات طبيعـة شحيحـة مغلولـة الى العنق ، بل عن الادراك الايجـابي للانسجام معها من خلال التعـامـل معهـا بذكـاء وتصميم ، والـذي كانت نتيجتـه النجـاح . هذه هي مغامرة الحب البطولية للغرب ، اغواء الأرض الفعّال .

اذكـر كيف انتـابني ، في شبـابي ، الشعور بالفرح الغامر ورافقتني الدهشة في رحلة لي في القطار عبر أوروبا من برنديزي الى كاليه ، حين تبين لي جمال تلك القارة الفسيح مزهراً في كل مكان بتوهج صحي وغني برعاية عاشق فارس ، هو الانسانية الغـربيـة . لقـد استـولى عليهـا وتملكهـا وفضّ كرم قلبها الذي لا ينضب . وتمنيت بحرارة لو أن تلك الرؤية الداخلية للروح الشاملة التي يحققها متعبد شرقي في عزلته العقلية ، يمكن أن تتحد مع روح تعبيرها الخارجي هذه في العمل .

اذكـر ذلـك الصبـاح الذي جمعت فيه شحاذة في قرية بنغالية في طرف ساريها

الزهور الذابلة التي كانت على وشك أن يلقى بها من مزهرية على مكتبي. بتعبير جمالي عن الحنان دفنت وجهها بها مبهورة: «آه! يا حبيبة قلبي!». لقد استطاعت عيناها النفاذ بسهولة من غلالة الشكل الخارجي ووصلت الى مملكة اللامحدود في تلك الازهار، حيث وجدت لمسة حبيبها الحانية. لكن بالرغم من ذلك كله كانت تفتقر إلى طاقة العبادة، الشكل الغربي للعمل الإلهي المباشر، الذي يساعد الأرض على إنبات ازهارها ويبسط سلطة الجمال على التراب المجدب. أرفض التفكير بأن روحيْ الشرق والغرب التوأمين لا يمكن أن تلتقيا وتحققا التجلي الكامل للحقيقة. وعلى الرغم من فقرنا المادي وخصومة الزمن، فإني لأنتظر بصبر ذلك اللقاء.

تخطر جزيرة روبنسون كروزو في بالي حين أفكر في مؤسسة انسانية، الدرس العظيم الأول فيها هذا في أن الاتحاد الكامل بين الانسان والطبيعة، لا من خلال الحب فحسب، بل من خلال التواصل الفعّال، يمكن أن يكون ميسوراً. علينا أن نرسخ في أذهاننا أن الحب والفعل هما الوسيلتان الوحيدتان اللتان نحصل بهما على المعرفة. لأن هدف المعرفة ليس الحذلقة بل الحكمة. الهدف الأساسي لمؤسسة من هذا النوع ليس تنمية أطراف المرء وعقله استعداداً لأي طارىء، بل جعلها متناغماً تناغماً كاملاً في سمفونية الاستجابة المتبادلة بين الحياة والعالم، لتجد توازن انسجامها الذي هو الحكمة. في مثل هذا المكان يمكن أن يكون أول درس هام يتلقاه الأطفال عن الارتجال، والفرض المستمر للمبتذل يكون قد أبعد من ذلك المكان من أجل إتاحة فرص دائمة لاكتشاف امكانية المرء عبر مفاجآت الانجاز. يجب أن أبسط الأمر، هذا يعني درساً لا في الحياة البسيطة بل في الحياة المبدعة. لأن الحياة يمكن أن تتعقد، ومع ذلك، اذا كان في مركزها شخصية حية، فإنها ستظل تملك وحدة الابداع، وستحمل وزنها الخاص برشاقة كاملة، ولن تكون مجرد إضافة الى عدد الحقائق المتكدسة.

أتمنى أن أقول إننا حققنا هذا الحلم تحقيقاً كاملاً في مدرستي. فقد استطعنا فقط أن نقوم بالمقدمات الأولى نحوها، ومنحنا الأطفال فرصة أن يجدوا حريتهم في الطبيعة بقدرتهم على محبتها. لأن الحب هو الحرية، يهبنا امتلاء الوجود الذي يجنبنا أن ندفع من أرواحنا ثمن أغراض شديدة الرخص. الحب يضيء العالم بمعناه ويجعل الحياة تحس أن عندها في كل مكان الكفاية التي هي حقاً عيدها. أعرف

أنـاسـاً يبشـرون بمـذهب الحياة البسيطة ومزايا الفقر. أنا أرفض أن أتخيل أية قيمة خاصـة للفقـر حين يكون مجرد مذهب. حين يكون للعقل الحساسية التي تمكنه من الاستجابـة لنـداء الحقيقـة العميق ينجـو بشكـل طبيعي من غوايـة قيمـة الأشياء الـزائفـة. انهـا القسـاوة التي تسلبنـا قدرتنـا على الاستمتـاع وتحكم علينـا بمهانة الافتخـار بالاثـاث والعبء الغبي للأشيـاء الغـالية. لكن أن نضع قساوة التقشف مقابل قساوة الترف فهذا مجرد محاربة شرٍّ بشرٍّ آخر، ودعوة لشيطان الصحراء الذي لا يرحم ليحل محل شيطان الغابة الأحمق.

حاولت جهدي أن أنمي في أطفال مدرستي عذوبة مشاعرهم تجاه الطبيعة، وحسـاسيـة الـروح في علاقاتهم بمحيطهم الانساني، بعون الأدب، والاحتفالات المبهجـة، وأيضـاً بالتعليم الـديني الـذي يأمـرنا أن نبلغ الحضور الأقرب للعالم عبر الـروح، لنحصـل عليـه بما لا يمكن أن يقـاس ـ مثل الحصول على آلة موسيقية، ليس في امتـلاكهـا، بل بتـوليـد الموسيقى منها. لقد حضرت لأطفالي دخولاً حقيقياً للعـالم كدخـول الـوطن. وكان لديهم في جملة الموضوعات التي يتعلمونها موسيقاهم ورسومهم: كانت لهم عروضهم المسرحية، وفعالياتهم المعبرة عن الحياة.

لكن ذلـك لم يكن كافيـاً، كما سبق أن ألمحت، وانتظـرت من العـاملين والوسائل أن يتمكنوا من توليد قوة عمل فعالة في مدرستنا، واستخدام فرح لطاقاتنا الخلاقة والبناءة التي تعين على بناء الشخصية وبحركتهم المستمرة أن يزيلوا بصورة طبيعية ما تراكم من أوساخ وتآكل وموت. وبكلمات أخرى شعرت دائماً بالحاجة الى العبقـريـة الغـربية لتضيف الى مثلي التر بوي الأعلى قوة الواقعية التي تعرف كيف تمهد السبيل الى غاية محددة ذات نفع عملي.

كانت العـوائق أمـامي متعددة، تقاليد المجتمع الذي يطلق على نفسه اسم مثقف، وتـوقعـات الآبـاء، وتأهيـل المعلمـين أنفسهم، ومطالب الجامعة الرسمية وأنظمتها، كل ذلك كان يقف في وجه الفكرة التي رعيتها بشكل طاغ. وبالاضافة الى ذلـك، فإن اعتـماداتنـا التي لم تفلح في جذب مواطنيَّ للإسهـام كانت لا تكـاد تكفي لدعم مؤسسة يجب أن يكون أعداد أطفالها قليلاً بالضرورة.

لحسن الحـظ، مد لنـا يد العـون صديق انكليـزي لعب دوراً قيادياً في انشاء وقيـادة عمـل المنظمـة الريفية وكان على علاقة مع مجلة فيزفا ـ بهاراتي. كان يؤمن مثـلي بتر بيـة تقيم وزنـاً للكمال العضوي للفردية الانسانية التي تحتاج للحفاظ على

صحتهـا الى تنشيـط عام لكـل قدراتهـا، جسميـاً وعقليـاً. ومن أجل أن تكون لنا الحـريـة في تنفيـذ هذه الفكرة بدأنا عملنا مع بعض الأولاد الذين كانوا إما أيتاماً أو أن آباءهم كانوا أفقر من أن يتمكنوا من ارسالهم الى أية مدرسة مهما كانت.

اكتشفنـا بوقت مبكـر أن العقـول المنشغلة بفـاعليـة في دائرة عمل بناء تنمي بسـرعـة طاقـاتها التي تبحث عن منافذ لها في متابعة المعرفة، حتى عند القيام بعمل إضـافي لتحقيق نتيجـة آليـة مثـل تجويـد الكتـابـة. نشطت عقول هؤلاء الأطفال وتنبهت الى كل الأحـداث العـابـرة، ذلك أن حقيقة بسيطة جداً جعلتهم يدركون مزايـا تعلم الانكليـزيـة التي لم تكن ضمن منهاجهم. جاءتهم هذه الفكرة في أحد الأيـام حين كانـوا يودعـون رسـائلهم حيث رأوا مسؤول البريد يكتب بالانكليزية العنـاوين التي كانت مكتـوبـة بالبنغـاليـة. فوراً ذهبـوا الى استـاذهم يطالبون بأن يتعلمـوا الانكليـزيـة في ساعـة اضـافيـة، والأعجب من ذلـك أن هؤلاء الأولاد الشجعان لمّا يندموا على تسرعهم في هذا الاختيار لدروسهم. أفلا أذكر حتى هذا اليوم أية أفكار اجرامية عنيفة راودت عقلي الطفل حين ظهر مدرس اللغة الانكليزية عند منعطف الزقاق المؤدي الى دارنا؟

لم يكن للعطلة معنى عند هؤلاء الأولاد. فدراستهم، رغم مشقتها، لم تكن واجباً، لمخالطة روح العطلة لها والتي أخذت شكل فعاليات في المطبخ وفي حديقة الخضـار، وفي صنعهم النسيـج، وفي قيامهم ببعض الاصلاحات الصغيرة. ذلك أن عمـل الصف لم يفصـل ولم يُجعـل في منأى عن العطلة لأنـه صار جزءاً من تيـار حياتهم اليومية، الذي يجري بنفسه بصورة تلقائية.

كان معظم من جاءنـا من الأولاد يعـانـون من ضعف في الجسـد وضعف في الفكـر. خلفت فيهم المـلاريـا والأمراض الاستوائية الأخرى آثاراً مدمرة، جعلتهم خلال أجيال من التوارث أشبه بحقل سحقته حرب وحشية وأصبحت تربته عقيمة جاؤوا حاملين معهم تخلفاً عقلياً غير مقبول، نتيجة فقر الدم ونظام تجويع الجسد. كان الـبراهمي لا مبـاليـاً. وغير البراهمي مثيراً للشفقة بانكفائه وإذلاله نفسه. لقد أنفـوا من العمـل لصالح الخير العام، حتى لا يستفيد أحد غيرهم منه أقل فائدة. وحـزنـوا لأنـه طلب منهم أن يقـومـوا لمصلحتهم بأعـمال يجب أن يقـوم بها، حسب اعتقـادهم، عتـال عادي أو طبـاخ مأجـور. لم يكـونـوا يخجلون من عيشهم على الاحسان بل يخجلون من مساعدتهم أنفسهم. لعلهم فكروا أنه ليس عدلاً أن ننال

الثناء ويدفعوا جزءاً من الثمن.

كان يظن أن هذه الـوضـاعـة، والغيرة الانانية، وذلك الخمول في المعنويات البـادي في انعـدام الفـائـدة منهم، أمـور وراثية لديهم. لكن كل هذا تغير في وقت قصـير، وراحت تتبدى فيهم روح التضحية والرفاقية والرغبة الخالصة في مساعدة الآخـرين تلك الصفـات التي نادرا ما نراهـا عند أطفال اخرين. لقد أخذت الحياة النشطـة الصحيـة تبر ز الخـير فيهم بسـرعـة مثيرة للدهشة. وزالت أكوام القذارة والفسـاد. وضـع العمـل اليـومي أمامهم مشاكل معنوية يشكل صعوبات محسوسة تطـالبهم بإيجـاد حلول لها. وأراهم منطق الـوقـائـع حقيقـة المبـادىء الاخلاقية في الحيـاة، وأصبحـوا الآن يستغـربـون أحيـاناً حين لا يفهم الأولاد الآخرون ذلك. تراهم في أقصى حدود المتعـة في الطبـخ والحيـاكة، والبستنة، وفي تحسين محيطهم، وتقـديم خدمـات الى الأولاد الآخـرين، أغلبهـا سراً حتى لا يشعروا بالحرج. في مطاعم المؤسسات العادية يتطلع الرواد الى أكثر مما قدم لهم، لكن هؤلاء الأولاد يبسّطون احتياجاتهم. ويفهمون صابرين حتمية النقصان. انهم يعدون ليدركوا أن المسؤولية مسؤوليتهم وأن أي ترف يصبح عبئاً عليهم ما دام الضغط الأكبر لا يقع على اكتاف الآخرين. ولذلك بدلاً من التذمر من النواقص صار عليهم أن يفكروا ليتـدبـروا أمـورهم. ومن أجـل تحسين طعامهم عليهم أن يولوا خضارهم المزروعة اهتماماً أكبر. معهم أدواتهم وذكاؤهم الفطري لاشباع حاجاتهم الصغيرة. وعلى الـرغم من أن جهـودهم لا بد أن تقـدم نتـائـج فجّـة فمع ذلك كانت لها قيمة بزت أسعار السوق.

كان بودّي، من أجـل أن أزين هذا الـوصف بلمسة من الفـوضى، كأن أتحـدث عن الاخفـاقـات التي اعـترت خطتنـا، عن بعض العناصر المفاجئة وسوء الحـظ المعكـر لصفـو عملنـا. لكن وبـاسم الحقيقة علي أن أعترف أن شيئاً من هذا القبيـل لمّا يحدث، ربـما كان طقسنـا الاستـوائي مسؤولاً عن ذاك الهدوء الخامل في جونـا حيث الـزائـد من الطـاقة قليل لدى أولادنا، الذين غالباً ما يحبون أن يفسدوا الأشيـاء التي يُجهـد في الاشـارة اليهـا على أنهـا تستحق الحماية كالطاووس الجميل الذي يعرضه القرويون الهنود لعشاق الرياضة الغربيين. وربما لم يفت الوقت على أن نأمـل بأن هذه التجـربـة لن تصبـح مدجّنـة ونسخـة عن جنـة نموذجية للأولاد الطبيعيين. أنا على يقين من أنه في القريب العاجل ستطل برأسها علينا مشاكل لا

تحصى لتتحدى نظرياتنا وتجرب إيماننا بتناقضات فظة.

في هذه الأثناء، بعد أن تحقق لنا أن تلك الممارسة اليومية لتلاؤم العقل والبدن مع ضرورات الحياة، قد جعلت هؤلاء الأولاد نشطين عقلياً، استجمعنا أخيراً شجاعتنا لتمديد هذا النظام الى المرحلة الابتدائية لمدرستنا التي هي بعيدة جداً عن جبهة الجامعة العسكرية. إن أطفال هذه المرحلة برعاية معلم مثالي يدرك أن التعليم هو تعلم، أنجزوا بناء أول كوخ لهم والذي يعتدون به بشكل مضحك. أستطيع أن أرى من سلوكهم أنهم بدأوا يفكرون أن التربية جزء دائم من مغامرة الحياة، وأنها ليست كمستشفى مزعج لتخليصهم من مرض جهلهم الوراثي، بل هي مهنة الصحة والتعبير الطبيعي عن حيوية عقولهم: هكذا كان لي الحظ في تأمل أول طلقات الحياة تطل برأسها خارجة من زاوية متواضعة من زوايا مؤسستنا. وأفكر أن أسمح لهذا المتسلق أن ينمو حراً ودون أن يقيد باسم، ينمو إلي أن يغطي كلية السارية الميتة التي لا تحمل زهرة طبيعية أو ثمرة بل يلوح فقط بعلم النجاح في الامتحان.

قبل أن أتوقف علي أن أقول بعض الكلمات عن عنصر فعال من عناصر جهدي التربوي: «إن للأطفال عقلهم الباطن الفعّال، مثلهم مثل الشجرة القادرة على تأمين غذائها من المحيط. والجو بالنسبة للأطفال أهم بكثير من المناهج والقواعد، وأدوات البناء، وتعليم الصف، والكتب المدرسية. إن الأرض في جُلّها ماء ويابسة. لكن إذا سمح لي باستخدام لغة المجاز فهي تجد الهام الحرية ومنشط حياتها في جوها. انها وكما كانت من قبل، وعاء التربية المستمرة، تخرج من أعماقها الإجابات في اللون والعطر، والموسيقى والحركة، وتجليها المتواصل، والعجائب متوالية من المفاجآت. الانسان في مجتمعه محاط بالثقافة التي تعنى به. ولهذه الثقافة تأثيرها على عقله ليظل محافظاً على حساسيته لتراثه العرقي، ولتيار التأثيرات النابع من التقاليد، وتجعل عليه سهلاً، لا شعورياً، كشرب حكمة العصور المكثفة. لكننا في منظماتنا التربوية نعمل مثل كدح آلي مجهدة؛ وليس كحراث التربة الذي عمله تعاون تام مع الطبيعة، وتعاطف سلبي العلاقة مع الجو.

علي أية حال، حاولت أن أخلق جواً في مؤسستي مولياً له المكان الأول في برنامجنا التعليمي، لأنه لابد من الجو لتطوير حساسية الروح ومنح العقل حرية التعاطف الحقة. اللامبالاة والجهل من أسوأ أشكال عبودية الانسان انهما السور غير

المرئي للسجن المحيط بنا حين نقع في قبضتيهما. وفي مؤسساتنا التربوية يجب أن تغذى قدراتنا على المحاكمة من أجل أن تُتاح لعقلنا الحرية في عالم الحقيقة، ولتخيلنا العالم النابع من الفن ولتعاطفنا مع عالم العلاقات الانسانية. وهذه الأخيرة أكثر أهمية من تعلم جغرافية البلدان الأخرى.

عقول أطفال اليوم قد جعلت بتصميم عاجزة عن فهم الشعوب الأخرى ذوي اللغات والعادات المختلفة. وهذا يسبب لنا، حين تتطلب أرواحنا النامية الفهم، أن نتتبع بعضنا في الظلمة، ولنؤذي بعضنا في الجهل، ونعاني من أسوأ أشكال العمى في هذا العصر.

لقد أسهمت البعثات التبشيرية المسيحية نفسها في تعهد تَبَلُّد المشاعر والاحتقار تجاه العروق والحضارات الغريبة. باسم الأخوة والكبرياء الطائفي الأعمى خلقت سوء التفاهم. وهذا ما تفعله بشكل دائم في كتب النصوص وتسمم عقول الناشئة الغضة. لقد حاولت أن أخلص أطفالنا من مثل هذا التشويه للحب الانساني الطبيعي بعوْن أصدقاء من الغرب، والذين قدموا لنا، بفهمهم المتعاطف، أكبر خدمة.

# سوامي فيفيكانادا.

**سوامي فيفيكانادا.**

## الدين الشامل

من أعماق الماضي يأتينا صوت القرون ؛ صوت حكماء الهملايا ومعتزلي الغابة ؛ الصوت الذي جاء إلى الشعوب السامية ، الصوت الذي نطق بلسان بوذا والعمالقة الروحيين الآخرين . ذاك الصوت مثل الجداول الصغيرة الهابطة من الجبال ، تختفي تارة وتظهر تارة بفيض أشد الى أن تتوحد أخيراً في سيل جبار هادر. والرسالات النازلة إلينا من الأنبياء والصالحين والصالحات من كل المذاهب والأمم تؤلف ما بين قواها وتتحدث الينا بصوت الماضي الصداح وأول رسالة تحملها الينا هي : «السلام عليكم وعلى كل الأديان» ليست رسالة نزاع ، بل رسالة دين واحد موحد .

في بداية هذا القرن عمت الخشية بأن الدين أمام نهايته . تحت ضربات مطرقة البحث العلمي الثقيلة الطاحنة تناثرت الخرافات القديمة كشظايا الخزف . وصار الذين لم يكن الدين يعني لديهم سوى حزمة من التعاليم والطقوس الخالية من المعنى ، في حيرة لا يدرون ما يقولون أو يفعلون . بدا لفترة من الزمن أن مدّ المادية الجارف سيكنس كل ما أمامه . وظن كثيرون أن الحالة ميئوس منها وأن قضية الدين خاسرة إلى الأبد .

لكن المد تحول والنجاة اقتربت - ماذا؟ دراسة الأديان المقارنة . في دراسة الأديان المختلفة نجد أنها في جوهرها دين واحد .

برهان دين ما يعتمد على برهان بقية الأديان ، فمثلاً ، إن كان لدي ست أصابع ، ولا أحد لديه مثل ذلك ، فلَكَ أن تقول : هذا غير طبيعي ، والتعليل نفسه

يمكن أن يطبق على دعوى أن ديناً واحداً هو الصحيح والآخر زائف. دين واحد فقط، مثله مثل مجموعة الأصابع الست الوحيدة في العالم أمر غير طبيعي. ومن هنا نرى اذا كان دين ما صحيحاً فلابد أن تكون الأديان الأخرى صحيحة. هناك اختلافات في الفرعيات أما الأساسيات فهي كلها واحدة. إن كانت أصابعي الخمس حقيقية، فهي برهان على حقيقة أصابعك الخمس أيضاً.

أجد في دراسة الأديان المختلفة في العالم أن فيها ثلاثة مستويات مختلفة من الأفكار المتعلقة بالروح والله. أول شيء أن كل الأديان تقر أنه خارج حدود الجسد الفاني هناك جزء ما أو شيء ما لا يتغير تغير الجسد، جزء لا يمكن أن يتغير، أبدي، لا يموت أبداً. ونحن ـ الجزء الأساسي منا ـ ليس لنا بداية ولن يكون لنا من نهاية. وفوقنا جميعاً، فوق هذه الطبيعة الأبدية هناك وجود أخر سرمدي هو الله. يتحدث الناس عن بداية العالم، بداية الانسان. كلمة «بداية» تعني ببساطة بداية الدائرة. وكل ما له بداية له نهاية، وحينما تذكر بداية الخليقة تعني بداية الدائرة. سينتهي جسدك الى الموت أما روحك فلن تلقاه أبداً.

في موازاة هذه الفكرة عن الروح نجد جملة من الأفكار حول الكمال. إن الروح في ذاتها كاملة. العهد الجديد يقر بكمال الانسان في البداية. وقد لوث الانسان نفسه بأفعاله. ولكن عليه أن يستعيد طبيعته الأولى طبيعته النقية، يتحدث البعض عن هذه الأشياء في القصص، والحكايا الخرافية والرموز. ولكن حين نبدأ بتحليل ما قيل نجد أنها تعلم أن روح الانسان في أصل طبيعتها كاملة، وأن على الانسان أن يستعيد نقاوته الأصيلة. كيف؟ بمعرفة الله.

نجد أن كل الأديان تقول بخلود الروح، وتقول أيضاً بأن بريقها قد خفت، ولكن يجب أن تستعاد نقاوتها الأولى بمعرفة الله. ما هي فكرة الله في هذه الأديان المختلفة؟ كانت الفكرة الأولية عن الله غامضة. كان لمعظم الأمم القديمة آلهة مختلفة ـ الشمس، الأرض، النار، الماء. ومن ثم نجد إلهاً واحداً على رأسها. لكن الفكرة تختلف تبعاً لاختلاف القبائل. وكل منها تؤكد أن إلهها الأعظم وتحاول اثبات ذلك بالقتال. ومن قاتل أفضل برهن على أن إلهه الأعظم. وهذه القبائل كانت همجية بشكل أو بآخر. لكن بالتدريج أخذت أفكار أفضل وأفضل تحل محل الأفكار القديمة. وكل هذه الأفكار القديمة رحلت الى المستودعات أو هي في سبيلها الى الرحيل. كل هذه الأديان كانت تطوراً طبيعياً عبر القرون، لم يهبط أي

منها من السموات. ولابد أن كلا منها قد بني قطعة قطعة.

ثم جاءت الأفكار الوحدانية؛ الايمان بإله واحد عالم قدير، الإله الواحد للكون. هذا الإله الواحد فوق كل شيء، ويعيش في السموات. واسبغت عليه مفاهيم مبتدعيه، له جانب أيمن وجانب أيسر، وطير في يده، وهكذا. لكننا نجد شيئاً واحداً هو أن آلهة القبائل قد اختفت إلى الأبد وحل محلها إله الكون الواحد ـ إله الآلهة. الذي يسع كل شيء. لايدانيه شيء أويقترب منه أحد. وقد جاء في العهد الجديد: «أبانا الذي في السموات» ـ الله في السموات منفصلاً عن البشر. نحن نعيش على الأرض وهو يعيش في السماء.

من ثم نقرأ أنه حالٌ في الطبيعة؛ فليس هو فقط في السماء بل على الأرض أيضاً، وهو الله فينا.

في الفلسفة الهندوسية نجد حالة مماثلة لدنو الله منا. ولكننا لا نقف عند ذاك الحد. هناك مرحلة اللاثنائية التي يدرك فيها الانسان أن الله الذي يعبد ليس فقط الأب في السماء والأرض بل «أنا وأبي واحد» يدرك في روحه أنه الله ذاته إلا أنه تعبير أدنى عنه، كل ما هو حقيقي فيّ هو الله وكل ما هو حقيقي فيه هو أنا. وبذلك ينبني جسر على البرزخ الفاصل بين الله والانسان. وبذلك نجد كيف أنه بمعرفة الله نجد مملكة السماء فينا.

في المرحلة الأولى أو الثانية يعرف الانسان أنه روح شخص صغيرة ـ جون، جيمس، أو توم ـ ويقول: «سأبقى جون، جيمس أو توم الى الأبد ولن أصير شيئاً آخر». كما يمكن أن يقول المجرم «سأبقى مجرماً الى الأبد» ولكن مع مرور الزمن يتلاشى توم ويعود الى آدم النقي الأصيل.

المراحل المختلفة للنمو ضرورية ولاشك لبلوغ النقاء والكمال. ولقد تأسست الانظمة المختلفة للدين على الأفكار نفسها. يقول المسيح: إن فيك مملكة السماء. ويقول ثانية: «أبانا الذي في السموات» كيف نوفق ما بين القولين؟ نفعل ذلك على الوجه الآتي. لقد كان يخاطب العامة الجهلاء حين نطق بالقول الثاني. والعامة الذين لم يكونوا على دراية بالدين ـ لابد أن يخاطبهم بلغتهم. العامة يُريدون أفكاراً محسوسة، شيئاً تمسك به الحواس، والانسان يمكن أن يكون أعظم فيلسوف في العالم لكنه يظل طفلاً في الدين، وحين يبلغ الانسان حالة روحية رفيعة يستطيع أن يفهم أن مملكة السماء فيه.

وهكـذا نرى أن التنـاقضـات الظـاهرية والأمور المحيرة في كل دين إنما تَسِمُ مراحـل النمـو المختلفـة. وعلى ذلـك ليس لنـا الحق في لوم أحد على دينه. هناك مراحـل للنمـو تكـون فيهـا الأشكـال والرموز ضرورية. انها اللغة التي تقدر الروح على فهمها في تلك المرحلة.

الفكرة الأخرى التي أريد عرضها عليكم هي أن الدين لا يتألف من تعاليم أو مسلمات مفـروضـة. إنـه ليس ما تقـرأ ولا ما تؤمن به من مسلمات، بل هو أن تدرك: «طـوبى لأنقيـاء الـروح لأنهم سيرون الله» أجل، في هذه الحياة. وهذا هو الخـلاص. هناك من يقول إنه يمكن الحصول على ذلك بتمتمة الكلمات. لكن ما من معلم عظيم قال إن الأشكـال الخـارجيـة ضروريـة للخـلاص. إن قوة نوال الخـلاص هي في نفـوسنـا. نحن نعيش ونتحـرك في الله. للتعاليم والمذاهب دورها الـذي تلعبـه ولكنهـا للأطفال، فهي تبقى بقاء موقتاً. الكتب لا تصنع أدياناً أبداً، لكن الأديـان تصنـع كتبـاً. علينـا ألا ننسى ذلك. ، غاية كل الأديان ادراك الله في الروح. هذا هو الدين الواحد الشامل.

إذا كان هناك حقيقة شاملة واحدة في كل الأديان، فإني أراها هنا، في ادراك الله. قد تختلف المثـل والأسـاليب لكن هنـاك نقطة مركزية. قد يكون للدائرة ألف نصف قطر إلا أنها جميعاً تلتقي في نقطة المركز. وهذا هو ادراك الله: شيء ما خلف عالم الحـواس؛ العـالم الأزلي للأكـل والشـرب والهدر، هذا العالم ذو الظلال الزائفة عالم الأنانية.

إنه هناك وراء الكتب وراء التعاليم وراء أباطيل هذا العالم وهو ادراك الله في نفسك. قد يؤمن الانسان بكل الكنائس في العالم، قد يحمل في رأسه كل الكتب المقدسة. يمكن أن يعمد نفسه في كل أنهار الأرض، لكن إن لم يكن لديه رؤية الله فإني أضعه في مصافّ الملحدين.

وقـد يكـون انسان لم يدخل كنيسة أو مسجداً أبداً ولم يمارس أي طقس، لكن إن كان يشعـر بالله في ذاتـه ولـذا سما عن متـاع الغـرور في الأرض فإن هذا الانسان صالح، قديس، سمِّه ماشئت.

حالمـا يقف الانسـان ليقـول: «إنـه على حق وإن كنيستـه على حق وكـل الآخرين على باطل يكون هو نفسه على باطل. إنه لا يعرف أن برهانه على دينه يعتمد على برهان الأديان كلها.

ومـا دامت غير ذات نظـر ضيق ، فإني أرى كل الطـوائف والتعـاليم هي لي وكلها عظيمة . انها جميعاً تساعد الانسان باتجاه الدين الحقيقي الواحد . وسأضيف إنـه من الخـير أن تولـد في كنيسة ولكن السوء في أن تموت فيها . جميل أن تولد طفلاً لكن ليس جميلاً أن تظل طفلاً ، الكنائس ، الطقوس ، والرموز مفيدة للأطفال لكن حين يكـبر الطفـل فعليـه أن يلفـظ الكنيسـة أو نفسه . لا يجوز أن نبقى أطفالاً الى الأبد . إن ذلك كمن يحاول أن يلائم معطفاً واحداً مع كل القياسات والحجوم . أنا لا أعارض وجود المذاهب والطوائف على الأرض ، ما أعترض عليه هو محاولة قسر دين واحـد على كل حالـة . رغم أن جميـع الأديـان متماثلة بالأسس ، لكن يجب أن يكـون لها تنـوعـات الشكل الذي ظهر في ظروف غير متشابهة بين الأمم المختلفة . يجب أن يكـون لكـل منـا دينـه الفـردي . وليس فرديـاً إلى أبعـد ما تذهب إليـه الطقـوس . سأروي لكم قصـة : كانت لبـوة تبحث عن فريسـة فعثرت على قطيع خراف ، ومـا إن وثبت على أحـدهـا حتى ولـدت شبـلاً وماتت على الفور . عاش الشبل مع القطيع فأكل العشب وثغا مثل خروف . لم يكن يعرف أنه أسد . وفي أحد الأيـام مر بالقطيـع أسـد وتعجب أن يرى فيـه أسـداً ضخـماً يأكـل العشب ويثغـو كالخروف . فر القطيع عند رؤيته ومعه الأسد الخروف .

غير أن الأسد انتظر فرصته ووجد في أحد الأيام الأسد الخروف نائماً . أيقظه وقال : «أنت أسد» فأجابه الآخر : «لا» وأخذ يثغو كخروف ، فأخذه الأسد الغريب الى بحيرة وطلب منه أن ينظر في الماء الى صورته ويرى إن كان لا يشبهه هو . نظر وأقر بأنه كذلك . عندئذ أخذ الأسد الغريب يزأر وسأله أن يفعل مثله ، جرب الأسد الخروف صوته وإذا به يزأر بحدة كالآخر ولم يعد خروفاً أبداً .

أصدقائي ، أود أن أقول لكم : إنكم أشداء كالأسود .

إن كانت الغرفة مظلمة فهل تأخذون بالضرب على صدوركم وتصرخون : إنـه الظـلام ، الظـلام ، الظلام؟ لا . الوسيلة الوحيدة للحصول على النور هي في اشعـال عود ثقـاب وعند ذلك تذهب الظلمة والوسيلة الوحيدة لادراك النور فوقكم هي في اشعـال العـود الـروحي داخلكم وعنـدئـذ فإن ظلمـة الخطيئـة والفسـاد ستتلاشى ، فكروا في ذاتكم العليا لا في ذاتكم الدنيا .

* * *

هنـاك أوقـات في العصور السالفة كان فيه الأنبياء كثراً في كل مجتمع . ولا بد أن يأتي الزمن الذي نرى فيه الأنبياء يمشون في كل شارع في أي مدينة . وسنعي أن سر الـدين هو القـدرة لا على التفكـير والقول بهذه الأفكار فحسب بل أن ندركها، أن ندرك الأكثر جدة والأعلى منها أكثر من أي وقت مضى ، أن نكتشفها وأن نضعها بين يدي المجتمـع ؛ ويجب أن تكـون دراسـة الـدين هي ميدان التدريب. للأنبياء يظـل الـدين مهـزأة الى أن يصبـح الانسـان نبياً . يجب أن نرى الدين ، نشعر به ، ندركه بوضوح أشد ألف مرة مما نرى الجدار.

غير أن هناك مبدأً واحداً تنبني عليه كل الصور التي يظهر عليها الدين والتي سبق أن توضحت لنـا . لابـد لأي علم أن ينتهي حين يكتمـل ، لأننـا لا نستطيـع التقـدم أبعـد من ذلـك وحـين يتحقق الوصول الى وحدة كاملة لعلم ما فلن يكون لدى هذا العلم من شيء يقـولـه . خذوا أي علم ـ الكيميـاء على سبيـل المثـال . لنفترض أننا عثرنا على عنصر نستطيع به أن نصنع العناصر الأخرى كافة . عندئذ تبلغ الكيمياء حد الكمال كعلم . ولا يتبقى لنا إلا اكتشاف مركبات عديدة كل يوم من تلك المادة ، وتطبيقات استخدام هذه المركبات في كل أغراض الحياة . الأمر في الـدين كذلـك . لقد اكتشفت مبادىء الدين العظمى وأمداؤ ه ونظمه منذ أجيال ، وحين يعثر البشر على الكلمات الأخيرة كما أطلق عليها في الفيدا «أنا هو» ـ حقيقة أن هنـاك الـواحـد الـذي فيـه يجد كل هذا العـالم من المادة والعقل وحدته ، والذي يدعونه الله أو براهما أو يهوه أو أي اسم آخر . ونحن لا نستطيع الذهاب الى أبعد من ذلك . لقد سبق أن بسط لنا المبدأ العظيم . وعملنا يكمن في ملئه واظهاره وتطبيقه على كل منحى من حياتنا . يجب أن نسعى الآن كيما يصبح كل فرد نبياً .

تأهيـل الأنبيـاء هذا هو أعظم عمـل ينتظـر منا ، وكل أنظمة الدين العظيمة تعمـل بوعي أو بلا وعي على بلوغ هذا الهـدف الواحد العظيم . مع هذا الفارق ، أن كثيراً من الأديان تقول إن تلمس الروحانية المباشر لن يكون في هذه الحياة ، وأن على المـرء أن يمـوت وسيأتي وقت بعـد موتـه وفي عالم آخـر يدرك فيه أموراً عليه أن يؤمن بها الآن . وحينـما يسأل فيـدانتـا كل أولئك الذين يؤكدون على ذلك : «إذن كيف تعرفون أن الروحانية موجودة؟» فعليهم أن يجيبوا أنه لابد أن يكون هناك دوماً أناس محددون قد حصلوا ، حتى في هذه الحياة ، على لمحات لأشياء مجهولة أو غير قابلة للعلم .

حتى هذا يخلق صعوبة، إذا كان هؤلاء أناساً مختارين لديهم ببساطة هذه القوة صدفة، فليس لنا الحق بالايمان بهم. فالايمان بأي شيء كائن بالصدفة: خطيئة ولابد، لأننا غير قادرين على معرفته. ما نعني بالمعرفة؟ دمار الخصوصية. لنفترض أن ولداً يخرج الى الشارع أو الى حديقة حيوان فيرى حيواناً معيناً. إنه لا يعرف ما هو. ثم يرحل الى بلد فيه المئات من أمثال ذلك الحيوان ويشعر بالرضا؛ فهو يعرف ماهية الفصيلة. معرفتنا هي معرفتنا لمبدأ. وعدمها في الأخذ بالخاص دون الرجوع الى المبدأ، حين نجد حالة أو بضع حالات مفصولة عن المبدأ ودون أي اشارة إليه نكون في الظلمة ولا نكون عارفين. الآن اذا كان هؤلاء الأنبياء كما يقولون أشخاصاً مصطفين وكانوا وحدهم أصحاب الحق في امساك لمحات مما في الغيب ولا أحد غيرهم له هذا الحق فعلينا ألاّ نؤمن بهؤلاء الأنبياء لأنهم حالات خاصة دون أي دعم من المبدأ. يمكن أن نؤمن بهم فقط حين نصبح أنفسنا أنبياء.

لابد للدين أن يدرَك الآن. ولكي تصبحوا مؤمنين يعني أنكم ستبدؤون بدون أي دين، بتمهيد طريقكم وادراك الأشياء، رؤية الأشياء لأجلكم. وحين تفعلون ذلك عندئذ وعندئذ فقط يكون لديكم دين. وقبل ذلك لستم أفضل من الملحد أو أسوأ، لأن الملحد مخلص؛ إنه يقف قائلاً: «أنا لا أعرف عن هذه الأشياء». في حين أن أولئك الآخرين الذين لا يعرفون يواجهون العالم قائلين: «نحن قوم متمسكون بالدين» ودينهم لا يعرفه أحد، لقد بلعوا قصص الجدات، وطلب منهم الكهنة أن يؤمنوا بهذه الأشياء.

ادراك الدين هو الدرب الوحيد. وعلى كل واحد منا أن يكتشفه بنفسه. إذن ما نفع هذه الكتب، كتب العالم المقدسة؟ إن لها نفعاً عظيماً. إنها مثل الخريطة لبلد. لقد رأيت خرائط كثيرة لانكلترة في حياتي قبل أن أذهب إليها. وكانت عوناً كبيراً لي لتكوين تصور ما عن انكلترة. ومع ذلك حين وصلت الى هذا البلد، أي فارق ما بين الخرائط وبين البلد نفسه! كذلك هو الفارق بين الادراك وبين الكتاب المقدس.

هذا هو المبدأ الأول، الادراك هو الدين ومن يدرك فهو انسان متدين ستجدون كثيرين من الأشخاص في هذا العالم يقولون: «اردت أن أصير متديناً أردت أن أدرك هذه الأشياء ولكني لم أستطع وهكذا فأنا لا أومن بشيء» حتى بين المثقفين ستجد هؤلاء. عدد كبير من الناس سيقولون لك: «حاولت أن أكون

متديناً طيلة حياتي، لكن لم يكن فيه شيء».

لنفترض انساناً ما كيميائياً، عالماً كبيراً. نقول له: «لا أومن بشيء في الكيمياء، لأني حاولت طيلة حياتي أن أصير كيميائياً ولم أنجح».

سيسأل: «متى حاولت؟».

حين ذهبت الى فراشي أخذت أردد: «أيتها الكيمياء تعالي إلي» ولم تأت أبداً. سيسخر منك الكيميائي ويقول: «لم لمْ تذهب الى مختبر وتأخذ الاحماض والقلويات وتحرق يديك بين حين وآخر؟».

هل تتحملون العناء نفسه مع الدين؟ لكل علم أسلوبه في التعلم ويجب أن يؤخذ الدين بالطريقة ذاتها.

* * *

لا بحث أعز على قلب الانسان من ذلك الذي يجلب الينا من الله النور. ولا دراسة استهلكت من طاقة الانسان، سواء في الماضي أو الحاضر، أكثر من دراسة الروح، والله، ومصير الانسان. هكذا كان الأمر عبر العصور في كل البلاد. أراد الانسان أن يرى الغيب، وأراد أن يكبر بنفسه؛ وكل ما ندعوه تقدماً، أو تطوراً، إنما يقاس بهذا البحث ـ البحث عن المصير الانساني، والبحث عن الله.

وكما أن نضالاتنا الاجتماعية، في الأمم المختلفة، متمثلة بمنظمات اجتماعية مختلفة، فإن نضال الانسان الروحي متمثل بالأديان المختلفة؛ وكما أن المنظمات الاجتماعية في عراك مستمر، فإن المنظمات الروحية كانت في حرب فيما بينها. يدعي الناس المنتمون الى منظمة اجتماعية معينة أن حق الحياة وقف عليهم، ويريدون ما وسعهم الأمر أن يمارسوا ذلك الحق على حساب الضعيف. وعلى هذا الشكل أدعت كل طائفة دينية حق الحياة لوحدها وهكذا نجد أنه لا شيء قدم للانسان البركة أكثر من الدين، ومع ذلك في الوقت نفسه لا شيء جلب إليه الرعب أكثر من الدين.

نحن نعلم أن هناك دائماً تيارات معارضة تحت السطح؛ هناك دائماً أحزاب وفلاسفة. وطلاب دراسة الدين المقارن، ممن حاولوا ولا يزالون يحاولون إيجاد روح الانسجام في وسط كل هذه الطوائف المتنازعة. وقد أثمرت هذه المحاولات في

بعض البلدان ولكنها أخفقت على مستوى العالم أجمع .

الآن ، إذا ألقينـا نظـرة منطقيـة على الأمـر ، نجد في البداية أن في كل أديان العالم العظيمة قوة روحية هائلة . قد يقول البعض أنهم يجهلون ذلك ؛ لكن الجهل ليس بعـذر. إن قال أحـد : «لا أعـرف ما يجري في العـالم الخـارجي ، ولـذلك فإن الأمور التي يقال إنها تجري في العالم الخارجي غير موجودة» فإن هذا الشخص غير معـذور. أولئـك الـذين يرقبون منكم حركة الفكر الديني في جميع أنحاء العالم لعلى علم أكيد أنه ما من دين من الأديان العظيمة قد مات ؛ لا كذلك فقط ، بل إن كلاً منهـا يتقـدم . المسيحيـون يتكـاثـرون ، والمسلمـون يتكاثرون ، والهندوس يحققون نجـاحـات واليهـود أيضـاً يزيـدون وبـانتشـارهم في انحاء العالم وتزايدهم السريع انتشرت اليهودية وتوسعت باستمرار. والبوذيون ينتشرون في أواسط آسيا باستمرار.

هذه ، إذن ، حقيقة في تاريخ البشرية الحاضر ، أن جميع هذه الأديان العظيمة موجـودة ومنتشـرة ومتكـاثـرة . إن لهذا معنـى بالتأكيـد ؛ ولـو شاءت إرادة الخـالق الحكيم الـرحيم أن يبقى دين واحـد منهـا وتموت الأديان الأخرى لكان ذلك حقيقة منـذ أمـد طويل . لو أنها حقيقة أن واحداً فقط من هذه الأديان هو الصحيح والبقية زائفـة لكـان للدين الصحيـح في هذا الـوقت أن يعم العـالم أجمع . لكن الأمر ليس كذلك . لم يربح واحد منها كل الأرض ، كل الأديان تتقدم حيناً وتتراجع حيناً .

الطوائف تتكاثر في كل الأزمان ، فإذا كان ادعاء دين ما أنه مالك الحقيقة وأن الله قد منحه كل هذه الحقيقة في كتاب محدد ، صحيحاً ، فلماذا كل هذا العدد من الطـوائف؟ لا تمر خمسـون سنـة إلا ويتأسس عشـرون طائفة بالاعتماد على الكتاب نفسه ، خذ التوراة مثلاً ، وكل الطوائف المسيحية ؛ كل طائفة لها تأويلها الخاص بها للنص نفسـه وكـل منهـا تقول أنها وحدها التي تفهم النص وكل الآخرين مخطئون . وهكذا في كل دين . هناك طوائف كثيرة بين المسلمين وبين البوذيين ومئات منها بين الهندوس .

الآن . أضـع هذه الحقـائق بين أيـديكم من أجـل أن أريكم أن أيـة محاولـة لاخضـاع البشـرية كلها الى أسلوب واحد في التفكير في الأمور الروحية لهي محاولة مخفقة وستظل دائماً مخفقة . كل من يضع نظريّة ، وحتى في وقتنا الحاضر ، سيجد أنه ما إن يبتعد عشرين ميلاً عن أتباعه حتى يصبحوا عشرين طائفة . إنكم ترون ذلك يحدث دائماً ، لا يمكنكم جعل الجميع يجمعون على الفكرة نفسها ، هذه حقيقة ،

وأحمد الله أنها كذلك. لست ضد أية طائفة بل سعيد بوجود الطوائف؟ وأتمنى لها أن تستمر بالمزيد من التكاثر. لماذا؟ ببساطة من أجل هذا، إذا كان عليّ وعليكم أن نفكر تماماً بالأفكار نفسها، فلن تكون ثمة أفكار تشغل ذهننا. نعرف أن على قوتين أو أكثر أن تصطدم من أجل أن تولد الحركة، إنه في صراع الفكر، اختلاف الفكر ما يوقظ الفكر، والآن إن فكرنا جميعاً مثل بعضنا سنكون مثل مومياءات مصريه في متحف، ننظر في وجوه بعضنا بخواء ـ لا أكثر من ذلك! تظهر الدوامات فقط في النهر المندفع الحي. ولا دوامات في مياه المستنقع الراكدة. حين تموت الأديان لن تكون هناك طوائف؛ وسيحل انسجام القبر وسكونه. ولكن طالما أن الانسان يفكر فستبقى الطوائف. والاختلاف علامة الحياة.

عندئذ يبرز السؤال: كيف تكون هذه التشكيلة كلها على حق؟ إن كان أمر حقاً فنقيضه باطل؟ كيف يتيسر لآراء متناقضة أن تكون على حق في الآن ذاته؟ هذا هو السؤال الذي عزمت على الاجابة عنه، لكني سأسألكم أولاً: هل كل أديان العالم متناقضة حقاً؟ لا أعني بذلك الأشكال الخارجية التي تظهر بها الأفكار العظيمة. لا أعني الأبنية المختلفة، اللغات، الطقوس، والكتب وغير ذلك مما نراه في كل دين؛ بل أعنى الروح الداخلية لكل دين. لكل دين روح وراءه وهذه الروح قد تختلف في كل دين ولكن هل هي متناقضة؟ أهي تناقض أم تساعد بعضها؟ ـ هذا هو السؤال.

أنا أومن أنها غير متناقضة بل متعاونة. كل دين يأخذ جزءاً من الحقيقة الشاملة العظيمة ويصرف كل قوته على تجسيد ذاك الجزء من الحقيقة العظيمة وترميزه. وفي ذلك إضافة لاتنحية، هذه هي الفكرة. تنهض الأنظمة الواحد تلو الآخر وكل منها يجسد فكرة عظيمة والمثل العليا يجب أن تضاف الى مثل عليا. وهذه هي مسيرة الانسانية. لا يتقدم الانسان من الخطأ الى الصواب بل من الصواب الى الصواب من الحقيقة الدنيا الى الحقيقة العليا ـ وليس أبداً عن طريق الخطأ يصل الى الحقيقة.

إذن، مرة ثانية، نعلم أنه ربما لابد من وجود وجهات نظر متناقضة، غير أنها جميعها تصل الى النتيجة نفسها. لنفترض أن امرءاً يرتحل باتجاه الشمس وأثناء تقدمه يلتقط صوراً فوتوغرافية للشمس عند كل مرحلة. حين يعود يكون في حوزته عدد من الصور للشمس ويبسطها أمامنا. نرى أن ليس فيها واحدة تماثل الأخرى،

ومــع ذلــك من سينكــر أن كل هذه صور للشمس نفسهــا ، من مواقـع مختلفـة! وبـالطـريقـة ذاتهـا جميعنـا ينظر الى الحقيقة من مواقع مختلفة ، وهي تختلف حسب مولـدنـا ، ثقـافتنـا ، والمحيـط المؤثـر بنـا وهكذا. نبصر الحقيقة ونحصل منها على ما تسمـح به هذه الظـروف فقـط ؛ نلون الحقيقة بمشاعرنا الخاصة ونفهمها بذكائنا الخـاص ونستحـوذ عليهـا بعقلنا الخاص. نستطيع أن نرى من الحقيقة مايتصل بنا فقـط ونتلقى منهـا قدر مانستطيـع أن نتلقى . هذا مايـولـد الاختلاف مابين انسان وانسـان ، وأحيـانـاً يولـد أفكـاراً متنـاقضة ؛ ومع ذلك فجميعنا ينتمي إلى الحقيقة الشاملة نفسها .

لهذا فإن فكرتي هي أن كل هذه الأديان هي قوى مختلفة في عالم اقتصاد الله تعمـل لخير البشـريـة . لايمكن لأحـدها أن يموت ولايمكن أن يقتل . وأن الدين الشامل الذي حلم به الفلاسفة وغيرهم في كل البلاد موجود سلفاً . إنه هنا . وإذا ماتـوقف الكهنـة ، والنـاس الآخـرون الـذين أخـذوا على عاتقهم مهمـة الـوعـظ بمختلف الأديـان ، عن الـوعـظ عدة دقائق فسنرى أنه موجود . انهم يقلقون راحة الدين دائماً لأن في ذلك مصلحتهم .

ترون أن الكهنــة في كل البـلاد شديـدو المحـافظـة . لم هذا؟ هنـاك قلة من الكهنـة الـذين يقودون الناس ؛ أما أكثرهم فمنقاد بالناس وهم خدمهم وعبيدهم . إن قلت عن شيء إنـه جاف ، قالـوا هو كذلـك . وإن قلت أسـود قالـوا أسود . إذا ماتقدم الناس تقدم الكهنة . لايمكنهم أن يتخلفوا عن الركب . لذا قبل أن نصب اللوم على الكهنة ـ وهي عادةٌ أن نلوم الكاهن ـ عليكم أن تلوموا أنفسكم . انكم تحصلون على ماتستحقونه .

هناك مستويات مختلفة وأنماط مختلفة من العقول الانسانية ، وأي حمل حملتهم إيـاه الأديـان! يأتي رجـل بفكـرة أو فكـرتين أو ثلاث ويزعم أن دينه يجب أن يلائم البشـريـة كلهـا . يخرج الى العالم ، حديقة مخلوقات الله ، حاملاً بيده قفصاً صغيراً ويقول : يجب أن يدخل في القفص الله والفيل وكل الناس . يجب أن يدخل الفيل القفص حتى لو اضطررنا الى تقطيعه .

فكـروا في هذه المـذاهب الصغـيرة المتـولدة في عقول انسانية معرضة للخطأ تطـرح هذا الـزعم المتغطـرس بأنهـا تعـرف حقيقـة الله المطلقـة! فكـروا في هذه

الغطرسة! إن كانت تدل عل شيء فانها تدل على مدى غرور الانسان. ولا عجب أن مزاعم كهذه سقطت دائماً، وبمشيئة الله فإن مصيرها دائماً الى الاخفاق.

نحن كالأطفال! نغفل دائماً عن الطبيعة الشرية. حين نبدأ الحياة نظن أن قدرنا سيكون أمراً جللاً، ولاأحد يمكن أن يثنينا عن هذا الظن. لكن حين نكبر نفكر بشكل مغاير. كذلك الأمر مع الأديان. في مراحلها الأولى حين تبدأ بالانتشار تولد لديها فكرة أنها قادرة على تغيير عقول البشر جميعاً في سنوات، فتأخذ بالقتل والذبح لتدخل الناس فيها بالقوة. ومن ثم تعجز عن تحقيق ذلك وتبدأ بالتفكير بشكل أفضل. نرى أن هذه الطوائف لم تفلح فيما شرعت فيه وإنها لنعمة كبيرة. فكروا فقط لو أن واحدة من هذه الطوائف المتعصبة نجحت وسادت العالم فأين يمكن أن يكون الانسان اليوم؟ فلنشكر الله على أنها لم تنجح! ومع ذلك فان كلاً منها يمثل حقيقة عظيمة: كل دين يمثل قيمة خاصة ـ شيئاً ما هو روح ذاك الدين.

هناك قصة قديمة تخطر على البال. كان هناك بعض الغولات اللواتي تعودن قتل الناس والقيام بشتى أنواع الأذى: ولكنها كانت عصية على القتل الى أن اكتشف أحدهم أن أرواحها تقطن في نوع من الطيور وهكذا مادامت الطيور في منجى فلن يقضي أي شيء على الغولات. وكذلك لكل واحد منا مثل ذاك الطير الطير الذي تسكن فيه روحه ـ له مثل أعلى ورسالة يعرضها في الحياة. وكل انسان تجسيد لهذا المثل الأعلى وتلك الرسالة.

ومادام المثل الأعلى باقياً والرسالة لم يمسسها أذى فلن يستطيع أحد قتلك مهما فقدت من الأمور الأخرى. الثروة تأتي والمصائب قد تتكدس لتصبح علو الجبال لكن إن حافظت على المثل الأعلى حفاظاً كاملاً فلا شيء قادر على قتلك. يمكن أن تكبر. وتبلغ مئة من السنين. لكن إن كانت تلك الرسالة نضرة وشابة في قلبك فمن ذا يقدر على قتلك؟ لكن حين يضيع المثل الأعلى وتتأذى الرسالة فلا شيء يمكن أن ينجيك.. ولن تنجيك كل ثروة العالم وكل قوته!.

وما الأمم سوى مجموعة أفراد؟ وهكذا لكل أمة رسالة خاصة بها تحملها في حضن ذلك الانسجام بين العروق البشرية. ومادامت الأمة محافظة على مثلها الأعلى فلن تقتل، أما اذا تخلت الأمة عن رسالتها ولحقت بشأن آخر عندئذ تصبح حياتها قصيرة ومصيرها الفناء.

كذلـك الأمـر مع الـدين. وحقيقـة أن كل الأديان القديمة لاتزال على قيد الحيـاة تبرهن على أنهـا لاتزال محافظة على تلك الرسالة خير حفاظ. وعلى الرغم من كل أخطـائهـا وعلى الـرغم من كل الصعوبات، على الرغم من كل المنازعات وعلى الرغم من اختلاف قوالبها. فإن قلب كل واحد منها صوت ـ نبض وخفقات قلب محب. ورائع أن تدرس تلك الرسالة.

تجد لدى الهندوس فكرة قومية واحدة ـ الروحانية. لن تجد في أي دين آخر أو في الكتب المقـدسـة الأخـرى في العالم، مثل هذا الجهد الذي بذل في تعريف فكرة الله. لقد حاولوا أن يعرفوا فكرة الروح بحيث لاتفسدها أية لمسة أرضية. يجب أن تكـون الـروح إلهيـة ولايجوز أن تعرّف بالانسان الجسد: هذه الفكرة نفسها، فكرة إدراك الله، المطلق الحضور، تُعلم من خلالها. يرون أنه من السخف القول إن الله يعيش في السـماء ومـاشـاكـل ذلـك. إنهـا مجرد فكرة تجسيمية انسانية. فالسماء منذ وجدت تعني الآن وهنا. إن كل لحظة من الزمن الأزلي مثلها مثل غيرها. إن كنت تؤمن بالله فبمقـدورك أن تراه الآن. نحن نظن أن الـدين يبـدأ حين نأخـذ بإدراك شيء ما. إنه ليس ايماناً بالتعاليم ولامصادقة عقلية وليس اصدار بيانات. إن كان هنـاك إلـه، فهـل رأيتـه؟ إن قلت لا فعندئذ أي حق لك بالايمان به؟ وإن كنت في شك في وجود الله، لم لاتكافح كي تراه؟ لم لاتعتزل العالم وتصرف حياتك كلها على هذا المـوضـوع وحـده؟ الروحانية وانكار الذات هما الفكرتان العظيمتان للهند لأن الهند تتمسك بهاتين الفكرتين نجد أن أخطاءها غير ذات بال.

أما المسيحيون فالفكرة المركزية التي بشروا بها هي: راقب وصلّ، لأن مملكة السـماء في المتنـاول ـ وهـذا يعني: طهـروا عقـولكم واستعدوا. وأن الروح لا تموت أبداً. أنتم لا تزالون تذكرون أن المسيحيين، حتى في أحلك الأيام، حتى في أكثر البلدان المسيحيـة إيـمانـاً بالخـرافـات، حاولـوا دائـماً أن يهيئـوا أنفسهم لعـودة الله بمحاولة مساعدة الآخرين، وبناء المشافي وهكذا، وما دام المسيحيون محافظين على هذا المثل الأعلى فسيظل دينهم حياً.

الآن يقدم مثل أعلى نفسه الى عقلي، قد لايكون سوى حلم. لاأدري إن كان يمكن أن يتحقق في هذا العـالم يومـاً ما: لكن في بعض الأحيـان خير لك أن تحلم حلماً من أن تموت على الحقائق الصلبة، الحقائق العظمى، حتى في الحلم، هي خير وأفضل من الحقائق الواقعة الرديئة، إذن فلنحلم حلماً.

تعـرفـون أن للعقـل مستـويـات مختلفـة، قد تكـون عقـلانيـاً ممن يقبلون بالحقـائق الثـابتة والمنطق. لا تهتم بالأشكال أو الطقوس؛ وتريد حقائق صلبة ذات وقـع، ولا يرضيـك غيرها. وهناك أيضاً الطهرانيون والمسلمون الذين لا يسمحون أبـداً بوجـود صورة أو تمثـال في أمـاكن عبادتهم. حسناً. لكن هناك انسان يروق له الفن. ويحتـاج الى الكثـير منـه ـ جمال الألـوان والانحنـاءات، الألوان، الأزهار، الأشكـال؛ يحتاج الى شموع، وأضواء، والى كل شارات ومستلزمات الطقوس، حتى برى الله. عقله لا يستـوعب الله إلا بهذه الأشكـال كعقلك الذي لا يستوعبه الا بمنطقه. وهناك أيضاً الانسان المترهب. تدعو روحه الله: لا يشغله شاغل عن عبـادة الله وتمجيـده وهنـاك أيضـاً الفيلسوف يقف خارج دائرة هؤلاء جميعاً ساخراً منهم ويفكر: «ما أسخفهم. ما هذه الأفكار عن الله؟».

قد يسخر أحدهم من الآخر، غير أن لكل واحد منهم مكانه في هذا العالم. كل هذه العقـول المختلفـة، كل هذه الأنـماط المختلفة ضرورية، إن كان من سبيل إلى دين مثـالي فيجب أن يكـون متسعـاً وكبـيراً بما فيـه الكفـايـة ليغـذي كل هذه العقول. عليه أن يزود الفيلسوف بالفلسفة ويزود العابد بالقلب المترهب؛ ولمحب الطقـوس عليـه أن يزوده بأروع ماتستطيـع الطقوس نقله. وللشاعر عليه أن يهبه قلبه أكـبر من قلبـه وأشيـاء أخـرى. ولـوضع مثل هذا الدين الواسع علينا أن نعود الى بدايات الأديان ونضعها فيه.

إذن سيكـون شعـارنـا القبـول لا التنحيـة، لا التسامح فقط، لأن ما يدعى تسـامحـاً ليس إلا تجديفـاً وأنا لاأومن به. أنا أومن بالقبول. ولماذا أتسامح؟ التسامح يعني أنني أراك على خطأ وأسمـح لك بالعيش. أليس تجديفـاً أن تفكـر أنـك وأنـا نسمـح للآخـرين بالعيش. إني أقبـل بكل الأديان التي نشأت في الماضي وأشاركها جميعاً العبادة. أعبد الله مع كل منهم. أياً كان الأسلوب الذي فيه يعبد، سأذهب إلى مسجـد المسلمـين. سأدخـل كنيسـة المسيحيـين وأركـع أمام صليب المسيح. سأدخـل المعبـد البـوذي، حيث أجد ملجأ عند بوذا وتعاليمه. سأذهب إلى الغابة وأجلس متأملاً مع الهندوس الذين يحاولون أن يروا النور الذي يضيء قلب الجميع.

لن أفعل ذلك فحسب بل سأبقي قلبي مفتوحاً لكل ما قد يأتي في المستقبل. هل انتهت كتب الله؟ أم أنهـا لا تزال تجليـات دائمـة الظهـور. إنها لكتاب عظيم ـ

تلك التجليات الروحية للعالم. التوراة، الفيدا، القرآن وكل الكتب المقدسة الأخرى ما هي الا صفحات كثيرة وعدد لا نهائي من الصفحات ينتظر أن ينشر. وسأتركها مفتوحة للجميع، نحن نقف في الحاضر غير أننا نفتح نفوسنا للمستقبل الأزلي. نأخذ بكل ما جاء به الماضي، ونفرح بنور الحاضر، ونفتح كل نوافذ القلب لكل ما سيأتي به المستقبل.



لكل دين ثلاثة أجزاء، الأول هو الفلسفة، التي تقدم العرض الشامل لذلك الدين باسطة فيه مبادئه الأساسية، وهدفه، وسائط بلوغه. والثاني هو القصص الديني الذي هو الفلسفة ملموسة. ويضم الأساطير المتعلقة بحيوات ذوي الطبائع الرفيعة. وهكذا، إنه تجريدات الفلسفة التي أصبحت ملموسة في قصص حيوات ذوي الطبائع الرفيعة. والجزء الثالث هو الطقوس. وهو أمر ملموس أكثر ويتكون من أشكال واحتفالات، حركات جسدية، مختلفة زهور وبخور وأشياء أخرى تجتذب الحواس. ستجدون أن كل الأديان المعترف بها لها هذه العناصر الثلاثة. بعضها يؤكد على جانب وآخر يؤكد على جانب آخر. ولنضع على بساط البحث الآن الجزء الأول، الفلسفة. هل هناك فلسفة شاملة واحدة؟ ليس بعد، فكل دين يقدم تعاليمه مؤكداً على أنها التعاليم الوحيدة الصحيحة. ولا يكتفي بذلك بل يرى أن من لا يؤمن بها لابد أن يذهب الى مكان مرعب. بعض الناس يشهرون السيف لاجبار الآخرين على الايمان بما يؤمنون به. ليس هذا نتيجة رغبة شريرة بل نتيجة مرض معين يصيب الدماغ البشري يدعى التعصب. وهؤلاء المتعصبون مخلصون بل أشد الناس اخلاصاً؛ إلا أنهم غير مسؤولين عن أفعالهم مثلهم مثل المجانين الآخرين في العالم. مرض التعصب هذا هو أخطر أنواع الأمراض. وهو الذي يوقظ نوازع الشر في الطبيعة الانسانية. فالغضب يستثار والأعصاب تتوفز ويصبح البشر مثل النمور.

أهناك تشابه في القصص الديني؟ أهناك انسجام في هذا؟ أهناك قصص ديني شامل مقبول من كل الأديان؟ طبعاً لا. لكل دين قصصه، إلا أن كل دين يقول، «قصصي ليست مجرد أساطير». فلنحاول أن نفهم هذه المسألة بمثال (أنا

ببساطة أضرب مثلاً ولا أقصد أن أتوجه لأي دين بالنقد). يعتقد المسيحي أن الله اتخذ شكل حمامة ونزل الى الارض؛ وهذا بالنسبة له تاريخ وليس اسطورة. الهندوسي يعتقد بأن الله ظهر على شكل بقرة. المسيحيون يقولون: «الايمان بهذا ما هو إلا أسطورة، وليس تاريخاً، هذه خرافة، يرى اليهود أنه إن رسمت صورة على شكل علبة أو صندوق وعلى كل جانب منها ملاك وأنها جديرة أن تكون في قدس الأقداس، فهي مقدسة عند يهوده، لكن إن رسمت الصورة على شكل شاب جميل أو فتاة فإنهم يقولو: «هذا صنم كريه حطموه».

هذه هي وحدة القصص الديني! إن قام رجل وقال: «نبيي فعل كذا وكذا أمراً عظيماً» فسيقول الآخرون: «ما هذا إلا خرافة» وفي الوقت نفسه يقولون إن نبيّهم هم قام بأمور أعظم ويعدونها تاريخية. لأحد في هذا العالم على حد علمي، قادر على التمييز الدقيق بين التاريخ وبين القصص في أدمغة هؤلاء الأشخاص. فكل هذه الحكايات، بغض النظر عن الدين الذي تنتمي إليه، قصص ديني يمتزج بين حين وآخر بشيء من التاريخ.

ثم لنأت الى الطقوس. كل طائفة تمارس طقسها الخاص وترى أنه مقدس، في حين ترى أن طقس الطائفة الأخرى الخرافة في أجلى مظاهرها وإن عبدت طائفة نوعاً معيناً من الرموز، وقالت الأخرى: «آه كريه» فأين إذن الشمول؟ كيف يمكن عندئذ الوصول الى شكل شامل للدين؟ إن هذا متحقق سلفاً. ودعونا نر كيف هو؟

كلنا يسمع عن الأخوة الشاملة وكيف تقف المجتمعات مبشرة بها. أذكر قصة قديمة. يعد شرب الخمر في الهند أمراً قبيحاً. وكان هناك شقيقان راغبين في احدى الليالي في شربها سراً؛ وعمهما الذي كان شديد التقوى نائم في غرفة مجاورة لهما. وهكذا قبل بدئهما تناولها أوصيا بعضهما «علينا أن نكون هادئين وإلا استيقظ عمنا» وحين أخذا يشربان تابعا التوصية «سكوت، العم سيستيقظ» وأخذ يعلو صوت أحدهما على الآخر حتى إذا زاد الصياح استيقظ العم، ودخل الغرفة واكتشف كل شيء.

نحن الآن نصيح جميعاً كهذين السكرانين، «الأخوة الانسانية! نحن جميعاً متساوون ولذا فعلينا أن نشكل طائفة» إنك حين تنشيء طائفة فأنت فوراً تعارض المساواة وما من مساواة، يتحدث المسلمون عن الأخوة الشاملة، لكن ماذا يخرج

من هذا في الـواقـع؟ لماذا لا يقبل غير المسلم في هذه الأخوة. ويتحدث المسيحيون عن الأخوة الشاملة لكن كل من كان غير مسيحي عليه أن يذهب الى ذلك المكان الذي يشوى فيه الى الأبد.

وهكـذا نرى أنـه من الصعب الـوصـول الى أيـة ملامـح شاملة فيـما يتعلق بالـدين؛ ومـع ذلـك نعـرف أن هذه المـلامـح موجـودة. كلنـا بشـر لكن هل كلنـا متساوون؟ طبعاً لا. من يقول إننا متساوون؟ المجنون فقط، هذا أقوى من ذاك. وهذا أذكى من ذاك إن كنا متساوين فلماذا هذه اللامساواة؟ ومن صنعها؟نحن.لأن الـواحـد منـا أقـوى أو أضعف من الآخـر أذكى أو أغبى، ولابد أن يؤدي هذا الى اختلاف فيما بيننا.

ومـع ذلـك نعلم أن مبـدأ المسـاواة يجتـذب أفئدتنا. كلنا بشر؛ لكن بعضنا رجـال وبعضنـا نسـاء. هذا أسـود وهذا أبيض لكن كل أولئك بشر، كلهم ينتمون الى انسـانيـة واحـدة وجـوهنـا مختلفـة؛ لا أرى اثنين متماثلين ومع ذلك نحن جميعاً بشـر. أين هذه الانسـانيـة الـواحدة؟ أجد رجلاً أو امرأة سواء من الشقر أو السمر؛ وبـين هذه الـوجـوه جميعها، أعرف أن هناك انسانية مجردة عصية على التناول باليد واللمس ولا أقدر أن أحققها في الواقع ومع ذلك أعرف على وجه اليقين بأنها هناك. إن كنت على يقين من شيء فهو في هذه الانسانية المشاع بيننا. انني من خلال هذا الوجود العام أراكم رجالاً ونساء.

وهكذا فإنه، مع هذا الدين الشامل الذي يجري خلال كل الأديان المتنوعة في هذا العالم في هيئة الله؛ يجب أن يكون موجوداً بل هو موجود عبر الأزل «أنا الخيط الـذي يضم كل هذه اللآلىء» وكـل لؤلؤة دين وكـل طائفـة كذلك. كلها لآلىء مختلفة والله هو الخيط الذي يضمها جميعاً، إلا أن أكثرية البشر لا يعون.

الوحدة في التنوع تلك هي خطة الكون، أنت كانسان منفصل عن الحيوان لكن بالنسبة للاحياء الرجال، النساء، الحيوانات والنباتات فكلها واحد. وكوجود أنت واحـد ضمن الكـون كله، وهـذا الـوجـود الكـوني هو الله، الوحدة المطلقة في الكون. فيه نحن جميعًا واحد. وفي الوقت ذاته لابد أن تبقى تلك الاختلافات ظاهرة.

ماذا أعني إذن بمثـل أعلى لدين شامـل؟ لا أعني أيـة فلسفة شاملة محددة أو أي قصص ديني محدد أو طقـوسـاً شاملة يمارسهـا الجميـع مثل بعضهم، لأني أعلم أن

على هذا العالم أن يستمر في تسيير تلك الكتلة من الآلات المركبة الشديدة التعقيد والرائعة، عجلة ضمن عجلة. ما عسانا أن نفعل إذن؟ نستطيع أن نجعلها تسير بنعومة أكثر يمكن أن نقلل النزاعات يمكن أن نشحم العجلات، كما كانت، كيف؟ بالاعتراف بضرورة التنوع الطبيعية تماماً كما اعترفنا بوحدة طبيعتنا، لذا علينا أن نعترف أيضاً بالتنوع. علينا أن نتعلم أنه يمكن التعبير عن الحقيقة بمئة ألف طريقة وأن كل طريقة منها صحيحة الى أبعد ما تذهب إليه. علينا أن نتعلم أن الشيء يمكن أن يرى من مئة جهة ويبقى الشيء نفسه.

لنفترض أننا جميعاً ذهبنا نحمل بأيدينا أواني الى بحيرة لنملأها بالماء. واحد يحمل فنجاناً والآخر جرة والثالث دلواً وهكذا. وملأنا كلنا أوانينا، الماء في كل مرة بالطبع يأخذ شكل الآنية التي تحمل. من جاء بالفنجان فماؤه يأخذ شكل الفنجان ومن جاء بالجرة كان ماؤه على شكل الجرة. لكن في كل حالة الماء ولا شيء غير الماء في الآنية.

هكذا هي حالة الدين، عقولنا هي تلك الأواني وكل واحد منا يحاول بلوغ ادراك الله. والله مثل ذاك الماء مالئاً تلك الأواني المختلفة وفي كل آنية تأتي رؤيا الله على شكل الإناء. أخيراً هو واحد إنه الله في كل حالة.



لا بأس بذلك حتى الآن نظرياً، لكن أما من طريقة عملية لتحقيق انسجام الأديان هذا؟ نجد أن هذا الاعتراف بأن وجهات نظر الأديان المختلفة كلها صحيحة أمر قديم، قديم. جرت مئات من المحاولات، في الهند، في الاسكندرية، في أوروبا، في الصين، في اليابان في التيبت وأخيراً في امريكا، لوضع صيغة لنظام ديني منسجم، يجمع كل الأديان على الحب. أخفقت كل هذه المحاولات لأنها لم تتبن أية خطة عملية. وهذه الخطة العملية الوحيدة التي لا تحطم فردية أي انسان في الدين وفي الوقت ذاته تريه نقطة اتحاد مع الآخرين جميعاً. لكن حتى الآن فإن كل خطط الانسجام الديني التي جربت، كانت في حين أنها تقترح الأخذ بكل وجهات نظر الأديان. إنها في الواقع حاولت أن تحزم الأديان جميعاً في تعاليم قليلة وبذلك أنتجت طوائف جديدة تقتتل وتناضل وتتدافع ضد بعضها.

أنـا أيضـاً لدي خطتي الصغـيرة، لا أدري إن كانت ستنجح أم لا؛ وأود أن أبسطهـا أمـامكم للمنـاقشة، ما خطتي؟ أول كل شيء سأسأل البشرية أن تعترف بهذه القواعد:

«لا تخرب» فمحرمو الصور الاصلاحيون لم يقدموا للعالم أي نفع. لا تكسر، لا توقع أي شيء أرضاً، بل ابن. ساعد إن استطعت؛ إن لم تستطع فضم يديك وتنح وانظر كيف تسير الأمور. لا تؤذِ؛ إن لم تستطع رد المعونة بمثلها، لا تتفوه بأي كلمة سوء ضد أعراف أي انسان ما دام مخلصاً. ثانياً خذ الانسان من حيث يقف وساعده على الارتفاع، إذا كان حقاً أن الله هو مركز كل الأديان، وأن كلامنا يتجه إليـه مع واحـد من هذه المحـاور. فمن المؤكـد أننا جميعاً يجب أن نصل الى المركز. وعند المركز حيث تتلاقى كل المحاور ستتلاشى اختلافاتنا.

نرى في المجتمـع كثـيراً من الطبـائع المختلفة. هناك آلاف وآلاف من أنواع العقـول والميـول. ومستحيـل جمعهـا كلية. لكن من أجل أن نخدم غرضنا العملي فيكفي أن نصنعهـا في أربـع مجموعات. الأولى، هناك الانسان الحيوي، العامل. يرغب في العمـل ولـديـه طاقة هائلة في عضلاته وأعصابه. هدفه هو أن يعمل ـ أن يبني المستشفيـات. أن يقوم بفعل الخير. يشق الشوارع، يضع الخطط وينظم. ثم هناك الانسان العاطفي الذي يعشق النفيس والجميل لدرجة عالية. يحب أن يفكر بالجميل، وأن يستمتع بالجانب الجمالي للطبيعة. ويعبد الحب وإله الحب. يحب من كل قلبـه جميـع الأرواح العظيمة في كل الأزمنة، أنبياء الأديان. ثم هناك الصوفي، الذي يرغب عقله في أن يحلل نفسه، ليفهم طريقة عمل العقل البشري وما القوى التي تفعـل فعلهـا فيـه، كيف يعـرفهـا وكيف يديرها وكيف يحقق ضبطها. هذا هو العقـل الصـوفي. ثم هنـاك الفيلسـوف الذي يرغب في وزن كل الأشياء ويستخدم ذكاءه حتى ما وراء احتمالات الفلسفة الانسانية كلها.

الآن، من أجل أن يرضى أكبر نسبة من البشر، يجب أن يوفر الدين الغذاء لكـل هذه الأنـماط المختلقـة من العقول وحين تكون القدرة هي الرغبة، تصبح كل الطوائف في جانب واحد. لنفترض أنك ذهبت الى طائفة تبشر بالحب والعاطفة. تراهم يغنـون ويبكـون الحب ويبشرون به، لكن حالما تقول: «يا صديقي كل هذا حسن غير أني أرغب بشيء أقـوى من ذلـك؛ شيء من العقل والفلسفة؛ أريد أن أفهم الأمور خطوة خطوة وبعقلانية أكثر». تراهم يقولون: «اخرج» النتيجة هي أن

هذه الطائفة تستطيع مساعدة ذوي العقل العاطفي فقط. وهم لا يكتفون بعدم مساعدة الآخرين، بل يحاولون تدميرهم. وأسوأ مافي الأمر أنهم لا يؤمنون باخلاصهم.

هناك أيضاً الفلاسفة الذين يتحدثون عن الحكمة في الهند وفي الشرق ويستخدمون مصطلحات فلسفية كبيرة من خمسين مقطعاً، لكن إن جاءهم انسان عادي مثلي وقال: «هل تقولون لي شيئاً يجعلني روحياً؟» فإن أول ما سيفعلون هو أن يبتسموا ويقولوا: «أاه. عقلك أدنى منها بكثير. ما يمكنك فهمه عن الروحانية؟» هؤلاء فلاسفة رفيعون، ببساطة يدلونك على الباب.

ثم هناك طوائف الصوفية الذين يتحدثون عن مستويات الوجود المختلفة. وحالات العقل المختلفة وعما تستطيع فعله قوة العقل. ولكن ما إن تطل عليهم، وأنت إنسان عادي، ونقول: «دلوني على خير أستطيع فعله؛ ليس لدي إقبال على التخمينات، هل تستطيعون تقديم أي شيء يناسبني؟» سيبتسمون قائلين: «اسمعوا هذا الأحمق؛ هو لا يعرف شيئاً فوجوده بلا فائدة». وهكذا هي الحال في كل مكان في العالم.

ما أدعو إليه هو دين مقبول من كل العقول بالتساوي؛ يجب أن يكون فلسفياً وعاطفياً وصوفياً بدرجة واحدة. وستكون هذه المجموعة المثل الأعلى، وأقرب مدخل الى الدين الشامل. إرادة الله أن جميع البشر بطبعهم تجتمع في عقولهم كل هذه العناصر معاً. هذا هو المثل الأعلى، مثلي الأعلى للانسان الكامل. وكل من كان لديه واحد أو اثنان فقط من عناصر الشخصية هذه، أعده شخصاً ذا جانب واحد؛ والعالم ملآن بمثل هؤلاء وحيدي الجانب. لا يعرفون إلا الدرب الذي عليه يسيرون، وكل ما عداه خطر وكريه. إن مثلي الأعلى الديني هو أن يصبح منسجماً متوازناً في كل هذه الاتجاهات الأربعة.

يوصل الى هذا الدين بما نطلق عليه في الهند يوغا ـ اتحاد. إنه للعامل اتحاد بين الناس والانسانية جمعاء؛ وللصوفي اتحاد بين ذاته الدنيا وذاته العليا؛ وللعاشق اتحاد بينه وبين اله الحب؛ وللفيلسوف اتحاد جميع الوجود. هذا هو المقصود باليوغا. وهي كلمة سنسكريتية ولأقسام اليوغا الأربعة أسماء أربعة في السنسكريتية. فالرجل الذي يسعى وراء هذا النوع من الاتحاد يدعى يوغي. العامل يدعى كارما يوغي. ومن يسعى وراء الاتحاد عبر الحب يدعى باكتي يوغي. ومن يسعى الى

الاتحـاد عبر الصـوفيـة يدعى راجـا يوغي ومن يسعى اليه عبر الفلسفة يدعى جنانا يوغي. وهكذا توفق كلمة يوغي بينهم جميعاً.

نجـد لدى كل المخلوقـات ثلاثـة أنواع من وسائط المعرفة، الأول هو الغريزة التي تراهـا ناميـة جداً عنـد الحيـوان؛ وهي أدنى وسائط المعرفة. ما الواسطة الثانية للمعـرفـة؟ التفكـير. وتجـدها نامية جداً عند الانسان. الآن في المقام الأول ليست الغـريـزة بالـواسطـة الكافية. مجال الفعل عند الحيوان محدود ويتصرف ضمن تلك الغـريـزة المحـدودة. وحين تأتي للانسان تجده متطوراً جداً في العقل. ومجال الفعل هنـا يصبـح واسعـاً. ومـع ذلك حتى العقل يظل غير كاف. يمضي العقل مسافة قصيرة ومن ثم يقف، لا يمكنه المتابعة وإن حاولت دفعه فالنتيجة لن تكون سوى تشـوش عاجـز؛ والعقـل نفسـه يصبح غير منطقي. والمنطق يصبح مناقشة في دائرة مغلقـة. خذ مثـلاً أسس الادراك ـ المـادة والقـوة. ما المـادة؟ هي التي تتأثر بالقوة. والقـوة؟ هي التي تؤثـر بالمـادة. أتـرى الى هذا التعقيـد، الـذي يـدعـوه المناطقة النـوسـان، اعتماد الفكرة على الأخرى وهذه بدورها تعتمد على الأولى. تجد أمام العقل حاجزاً هائلاً، لا يستطيع التفكير تجاوزه. لكنه يظل لا يطيق صبراً للوصول الى منطقـة المطلق وراءه. ليس هذا العـالم، هذا الكـون، الذي تشوبه حواسنا أو تفكر فيه عقولنا سوى ذرة واحدة، من المطلق، إن صح التعبير، مسلطاً على ساحة الشعـور، وعقلنـا ينشط في داخل هذه الحدود الضيقة المعروفة بشبكة الشعور لا في خارجها. ولهذا لابد من وسيلة ما تحملنا الى ما وراء الحاجز، وهذه الوسيلة تدعى الوحي.

وهكـذا فالغـريـزة والعقـل والـوحي هي الوسائط الثلاث للمعرفة، الغريزة تنتمي للحيوان، العقل للانسان، والوحي لأهل الله، لكن لابد أن توجد لدى كل البشر بذور هذه الوسائط الثلاث للمعرفة في حالة من النمو كثر أو قل. وكيما تنشط تلك الوسائط العقلية لابد أن توجد البذور. ويجب ألا ننسى، أن الواسطة الواحدة تطـور الأخـرى، ولهـذا لا تنـاقضهـا، العقـل قد تطـور الى وحي، ولهـذا فالوحي لايناقض العقل بل يكمله. الوحي يسلط الضوء على مالا يدركه العقل ولا يناقض العقل. الرجل المسن لا يناقض الطفل بل يكمل الطفل.

لهذا يجب أن يبقى في الذهن أن الخطر الأكبر يكمن في ظن شكل أدنى من

وسائط المعرفة شكلاً أعلى. كثيراً ما تقدم الغريزة للناس على أنها وحي، ومن ثم تنسب كل الادعاءات الزائفة الى موهبة النبوءة. يظن الأبله أو الأشبه بالمجنون أن اضطرابه العقلي وحي ويطلب الى الناس إتباعه. أكثر السخافات المتناقضة غير المعقولة التي وجدت طريقها الى الناس، ما هي إلا اللغو الغريزي للعقول المضطربة محاولاً العبور الى لغة الوحي

الامتحان الأول للتعاليم الحقة هو في وجوب كونها غير مناقضة للعقل، ويمكن أن ترى أنّ هذه هي الأسس لأنواع اليوغا. نأخذ الراجايوغا، الطريقة النفسية الى الاتحاد. إنه موضوع واسع وبوسعي الآن أن أوجز لكم فقط الفكرة المركزية لهذه اليوغا. لدينا أسلوب واحد لبلوغ المعرفة، من أدنى انسان الى أعلى يوغي، عليهم كلهم أن يستخدموا الاسلوب نفسه، وهذا الاسلوب هو ما يدعى التركيز. الكيميائي الذي يعمل في مختبره يركز كل قواه العقلية ويجمعها في بؤرة واحدة ويلقى بها فوق العناصر فإذا بالعناصر تحلل. وهكذا تتحقق معرفته. والفلكي أيضاً يركز قواه العقلية ويجمعها في بؤرة واحدة، ثم يلقي بها على موجودات الكون عبر منظاره، فتدور النجوم والأنظمة كاشفة له أسرارها. هكذا الأمر في كل حالة ـ المعلم على كرسيه، الطالب فى كتابه، مع كل انسان يجهد ليعرف، أحط ماسح للأحذية، إذا مابذل مزيداً من التركيز فسيلمعها أفضل. الطباخ بالتركيز يطبخ أفضل الوجبات، في التجارة أو عبادة الله أو في فعل أي شيء، كلما ازدادت قوة التركيز كان العمل أفضل. هي ذي الصيحة الوحيدة القرعة الوحيدة، التي تفتح بوابات الطبيعة وتجعل النور يتدفق، قوة التركيز هذه هي المفتاح الوحيد لكنز المعرفة.

نظام الراجا يوغا يعتمد كل الاعتماد تقريباً على التركيز. نحن في الحالة الراهنة لجسدنا مشتتون. والعقل يضيع طاقاته على مئات الأشياء. وحالما أحاول أن أهدىء أفكاري وأركز عقلي على أي موضوع من موضوعات المعرفة فإن آلافاً من النبضات غير المرغوب فيها تندفع الى الدماغ. آلافاً من الأفكار تندفع الى العقل لتقلقه. كيف نتخلص منها ونعيد للعقل انضباطه هو مجمل موضوع دراسة اليوغا.

الآن فلنأخذ الكارمايوغا؟ الوصول الى الله من خلال العمل. من الواضح أن في المجتمع كثيراً من الأشخاص الذين يبدون وكأنهم ولدوا لنوع ما من

الفعالية. لا تستطيع عقولهم أن تركز على سطح الفكر فقط ويستطيعون أن ينتجوا أفضل من خلال العمل، المرئي والمحسوس. ولابد من وجود علم لهذا النوع من الحياة أيضاً. كل منا مشغول بعمل ما، لكن غالبيتنا تهدر النسبة الكبرى من طاقاتنا، لأننا لا نعرف سر العمل، كيف نوظف أحسن التوظيف أكبر قسط من طاقاتنا في العمل الذي أمامنا.

لكن علينا مع هذا السر، أن نأخذ بالاعتبار النفور الكبير من العمل - بشكل خاص ذاك الذي يسبب الألم. وكل البؤس والألم يأتي من الاهتمام بنتيجة العمل. أرغب في أن أعمل عملاً أود فعل الخير لانسان ما، وبنسبة تسعين إلى واحد سيثبت هذا الانسان الذي قدمت له المساعدة عدم الامتنان ويقف ضدي؛ وتكون نتيجة ذلك الألم. مثل هذه الأمور تردع البشر عن العمل وتفسد القسط الأكبر من عمل البشرية وطاقتها خوفاً وألماً وبؤساً. تعلمنا الكارمايوغا كيف نعمل من أجل العمل غير مبالين أو مهتمين، لمن قدمنا المساعدة ولماذا؟ أن الكارمايوغي يعمل لأن ذلك في طبعه لأنه يشعر أنه من الخير له أن يفعل ذلك، وليس له هدف وراء ذلك. موقعه في هذا العالم موقع الواهب، ولايهتم في تلقي أي شيء بالمقابل، ولذلك فهو يتجنب قبضة البؤس. فالألم هو نتيجة الاهتمام في أي وقت جاء.

ثم هناك الباكتي يوغا لذي الطبيعة العاطفية، العاشق. يرغب في أن يحب الله؛ يعتمد على كل أنواع الطقوس ويستخدمها، الزهور، البخور، الأبنية الجميلة الأشكال وكل ما إلى ذلك. لا تحقروا هذه الطقوس والحكايا. دعوا الناس يحصلوا عليها. دعوا كل راغب فيها ينالها. لا تشرعوا هذه الابتسامة الهازئة وتقولوا: «انهم حمقى فلتكن لهم». ليس الأمر كذلك. أعظم الناس الذين شاهدتهم في حياتي وأكثرهم تطوراً روحياً وأروعهم، جازوا جميعاً من خلال نظام هذه الطقوس. الباكتي يوغا تعلمهم كيف يحبون دونما دوافع خفية، يحبون الله ويحبون الخير لأنه خير أن تفعل ذلك لا من أجل الذهاب الى الجنة، أو لترزق الأولاد أو الثروة أو أي شيء آخر. انها تعلمهم أن الحب نفسه هو أعلى تعويض عن الحب - الله نفسه هو الحب. تعلمهم أن يؤدوا كل الواجبات لله، الأعظم، الكلي القدرة العليم بكل شيء. الحاكم القادر، الأب والأم.

أخيراً نأتي الى الجنانا يوغي، الفيلسوف، المفكر ذاك الذي يسعى الى الوصول الى ما وراء المرئي. إنه الانسان غير القانع بتوافه هذا العالم. فكرته أن

يذهب خلف النظام اليومي للطعام والشراب وغير ذلك. ولن يرضيه كل ما في آلاف الكتب من تعاليم. ولن ترضيه حتى العلوم جميعها؛ فهي في أفضل الأحوال تضع ذاك العالم الصغير أمامه. ما الذي يمنحه الرضا؟ أنظمة العوالم التي لا تحصى لن تكفيه فهي عنده ليست غير قطرة في بحر الوجود المحيط، تريد روحه أن تذهب خلف كل ذلك وتنفذ الى أعماق قلب الوجود برؤية الحقيقة كما هي - بإدراكها، بأن يكونها، بأن يصبح واحداً مع هذا الوجود الكوني. هذا هو الفيلسوف. وأن تقول إن الله هو الأب أو الأم، خالق هذا الكون، حاميه ودليله فذاك أمر يعده غير كاف للتعبير عنه. الله عنده حياةُ حياته، روحُ روحه، الله في ذاته هو. لا يتبقى شيء هو غير الله. كل أجزائه الفانية تصبح تحت وطأة ضربات الفلسفة الثقيلة ثم تزول. وما يتبقى أخيراً حقاً هو الله نفسه.

هناك طائران على شجرة واحدة. واحد على أعلى غصن فيها والآخر على أدنى غصن. طائر الغصن العالي هادىء صامت جليل تائه في مجده؛ أما طائر الغصن الواطيء فيأكل الفواكه الحلوة والمرة الحبة تلو الأخرى ويقفز من غصن الى آخر سعيداً تارة بائساً أخرى. بعد فترة يأكل الطائر الأدنى فاكهة شديدة المرارة ويشعر بالقرف. ينظر الى الأعلى ويرى الطائر الآخر ذلك الطائر العجيب ذا الريش الذهبي الذي لا يأكل الفاكهة لا حلوة ولا مرة، غير سعيد وغير بائس. لكنه هادىء يركز على نفسه ولا يرى شيئاً آخر غير النفس. يتوق الطائر الأدنى الى تلك الحالة، وسرعان ما ينساها ويأخذ بأكل الفاكهة وبعد فترة قصيرة يأكل مرة أخرى فاكهة شديدة المرار فتجعله شديد البؤس. ومرة ثانية يتطلع الى أعلى ويحاول الاقتراب من الطائر الأعلى. ومرة أخرى ينسى وبعد ذلك ينظر الى أعلى وهكذا يستمر الأمر معه مرة تلو المرة، حتى يصبح شديد القرب من الطائر الجميل ويرى انعكاس ضوء ينبعث من ريشه يتلألأ حول جسمه هو، ويشعر بتغير ويبدو وكأنه يذوب يظل يقترب أكثر ويذوب كل ما حوله، وعند ذلك يفهم تغيره العجيب. لم يكن الطائر الأدنى، حيث هو، سوى الظل المادي الظاهر، وانعكاس الأعلى؛ لقد كان هو نفسه في جوهره الطائر الأعلى دائماً.

ما لا بد منه أن هذه الأنواع المختلفة من اليوغا يجب أن تستوعب بالتدريب ولن تجدي النظريات حولها أي نفع. علينا أولاً أن نسمع عنها ثم علينا أن نفكر فيها. علينا أن نستخلص الأفكار ونراكمها في عقولنا ونتأمل الحياة كلها. لن يبقى

الـدين بعـد ذلـك حزمـة أفكار أونظريات أو قبول فكري ؛ بل سيدخل إلى أعماق نفـوسنـا ، يمكن لنـا بواسطـة القبول الفكري أن نتقبل حماقات كثيرة اليوم ونغير رأينا غداً كل التغيير . لكن الدين الحق لا يتغير أبداً . الدين هو الادراك ؛ لا الكلام ، لا التعاليم ، لا النظريات مهما كانت جميلة . إنه الوجود والمآل لا السماع ولا التسليم . إنه مآل الروح الكلي وقد تحولت الى ما تؤمن به . هذا هو الدين .

# مهاتما غاندي.

**مهاتما غاندي:**

## الهيمالايا

على الرغم من أن سيملا ودارجيلنغ في الهيمالايا فإني لم أجد في أي منهما ما يوحي بروعتهما. أقمت في هذين المكانين وقتاً قصيراً وبديا لي كالمستعمرات البريطانية. حدث في ألمورا أن كونت فكرة عن ماهية جبال الهيمالايا لكن في نظر هذه الجبال لا وجود لأنهار جانغا، جامونا، براهما بوترا أو الهندوس. لو لم تكن الهيمالايا موجودة لما هطلت الأمطار ولا تشكلت الأنهار. ولولا المطر لكانت الهند صحراء قاحلة. واسلافنا بعيدو النظر الذين عرفوا هذه الحقيقة والشاكرون دوماً لله على نعمه التي منحهم إياها، جعلوا من الهيمالايا مكاناً يحج إليه. آلاف من الهندوس ضحوا حياتهم في هذه الأنحاء في بحثهم عن الله. لم يكن هؤلاء الأشخاص مجانين. ونتيجة لتقواهم لا يزال الايمان الهندوسي والهند نفسها خالدين.

وأنا أنظر في كوساني الى صف قمم الهيمالايا المجللة بالثلج تلتمع تحت ضوء الشمس، تساءلت كيف تتصرف أنماط مختلفة من البشر حيال مشهد هذه القمم العالية البيضاء. فلأرح ذهني بمشاركتي القارىء الأفكار التي انهمرت علي المرة تلو المرة في ذلك الوقت.

لو أن أطفالاً رأوا المشهد لقالوا لأنفسهم: إنه جبل مصنوع من حلوى غزل البنات ولتمنوا أن يصعدوا إليها راكضين ويجلسوا فوقها يأكلون من تلك الحلوى. وأي مفتون بدولاب الغزل مثلي سيقول: «لابد أن أحداً قطف جوزات القطن، وفصل البذور عن القطن ثم ندف القطن وصنع منه جبلاً مثل مستودع هائل لا ينفذ من الحرير»، ويضيف: «ما أغبى سكان هذه البلاد. رغم هذه الثروة من القطن

تراهم يهيمـون أنصاف عراة وأنصاف جياع ، ولو صادف أحد التقاة البارسيين[1] هذا المشهـد لركـع للشمس الإلـه . وقال : «انظروا الى هذه الجبال الشبيهة برهبانِنا وقد ارتدوا الثياب البيضاء كالحليب . والتي أخرجت لتوها من الصناديق مغسولة ومكوية ماأجملهم في وقفتهم ساكنين بأذرعة مضمومة الى بعضها ساهمين في عين الشمس» ولربما قال هندوسي تقي وهو ينظر الى هذه القمم المؤتلفة والتي تخزن فوقها الماء من غيـوم نائيـة : «هـذا هو الإله شيفا نفسه . محيط الرحمة والذي بحبسه لمياه الجانغا في شعره الأبيض الجعد ، قد أنقذ الهند من الطوفان» .

كان شانكـاراشـاريا[2] يهيم في ألمورا . استطيع حتى اليوم سماع صوته يقول : «حقاً إنه لمشهد رائع . لكن كل ذلك وهم خلقة الله . الهيمالايا ليست موجودة حقاً ، أنـا غير موجـود وأنت غير موجـود ، براهمان[3] وحدها الحقيقة . هي وحدها الحقيقة بينما العالم وهم . ردّدْ ، لذلك ، حين تكون براهمان الحقيقة الوحيدة فالعالم غير حقيقي» .

أيهـا القـارىء : الهيـمالايـا الحقيقيـة توجد في قلوبنا . الحج الحقيقي أو جهد البشـر السـامي يكمن في اتخـاذ مأوى في ذاك الكهف والحصـول على مشهـد شيفا هناك .

---

(١) البارسيون ، الزرادشتيون : اسم يعرف به اتباع زاردشت في الهند . المترجم .

(٢) فيلسوف من القرن الثامن .

(٣) براهمان : الروح الكلية التي تسري في الكون . المترجم .

## كانيا كوماري

تمتد حدود الهند من كشمير الى كانياكوماري ومن كراتشي الى أسّام. هذه هي أركان الهند الأربعة. وقمة جبل الهندكوش تاجها، قوة أمنا الهند وجمالها. عند القاع تغسل مياه بحر العرب وخليج البنغال الصافية قدميها. كانياكوماري ليست إلا بارفاتي زوج اللاله شيفا التي عذبت نفسها من أجل أن تتحد بالزواج مع شيفا، الاله العلي المتجاوز كل العواطف الأرضية. نرى المحيط من ثلاث جهات من كانياكوماري كما هو على طرف الهند وحين يلتقي الماءان يُرى لونان هنا. ونحن نواجه الجنوب نستطيع أن نرى من البقعة نفسها الشمس تشرق من على يسارنا وتغرب من على يميننا.. لم يكن لدينا الوقت لنرقب ذاك المشهد وإلا لكان بإمكاننا أن نتخيل الشمس تنهض عند الفجر بعد اغتسال في خليج البنغال العظيم، وتسرق من النجوم ائتلافها وفي المساء تهبط من السماء الذهبية لتستريح في المحيط الغربي المليء بالدرر. لقد حاول المسؤول عند دار الدولة للضيافة هناك جاهداً أن يقنعنا بالبقاء كي نرى الغروب المهيب. لكن كيف لنا نحن الذين نمتطي صهوة حصان، أو بالأحرى سيارة، أن نقف ونتمتع بمثل تلك النعمة؟ على أن أقنع بأن تظهرت قدماي في أمواج المحيط المقدسة بغسلها قدمي أمنا الهند.

أي بناء رائع أعلوْا أولئك الـ«الريش»! وأي حس للجمال عند الـ«البوراني»! هنا على طرف الهند التي هي نهاية عالمنا أقام الريشيون معبد كانياكوماري وجمّله مؤلفو البوراني بالصور. لم يكن لدي رغبة بالاستمتاع بجمال الطبيعة رغم أنه يملأ المكان حتى يفيض. فأنا قد شربت هنا من شراب سر الدين المقدس. قال لي

أحـد أصحـابي ، وأنـا أغـط قدميّ في المحيط على المنصة الجميلة : «كان من عادة فيفكـانـادا أن يذهب ويتأمل على التلة هناك» أفعَل ذلك في الواقع أم لا ، ربما فعل ، فسباح ماهر يمكنه أن يسبح إلى تلك البقعة . لا يمكن أن يوجد هناك إلا السلام التام على رأس تلك الجزيرة . موسيقى أمواج المحيط ، الجميلة والرقيقة كأغاني فينـا[1] تدعـو المرء للتأمل . عند ذاك اشتد شوقي الديني . وأنا ألاحق الخطى على رصيف مرتفع يمكن أن يجلس عليه مئة شخص بارتياح شعرت وكأني جالس هناك ارتل الغيتا ، وأخيراً ، بشكل ما ، غالبت تلك الرغبة المقدسة وجلست صامتاً وقلبي ممتلىء بصورة معلم الغيتا .

بعد أن طهّرنا نفوسنا ذهبنا الى المعبد . وبما أنني مناضل من أجل وضع حد للمنبـوذيـة وأدعـو نفسي بانغي ، فقـد كان هنـاك بعض الشـك في أنني أستطيـع دخول المعبد . طلبت من المسؤول عن المعبد ألا يأخذني الى مكان يشعر أنه لا حق لي في دخـولـه . أنـا احـترم هذه المحظورات . قال إن رؤ ية الإلهة يمكن أن تتم بعد الخامسة والنصف ونحن وصلنا في الرابعة ، وعلى كل حال فسيرينا كل شيء آخر . كان محظـراً علينـا فقط الاقتراب من الهيكل الذي تجثم فيه الالهة . كان هذا ينطبق على كل من كان في الخـارج . أجبت بأني أطيـع ذلـك بسرور . وبعد تلك المحادثة قادني المسؤول الى الداخل وقمنا بجولة في ذلك المكان .

لم أشفق على جهـل ذاك المتعبـد الهنـدوسي ، بل على العكس ، أدركت حكمتـه . فهـو في اكتشـاف طريقـة عبـادة الصـور لم يكن ليجعل الاله الواحد آلهة متعددة بل أدرك الحقيقة وأظهرها للعالم وهي ان الانسان يمكن أن يعبد ـ وسيظل يعبـد ـ الله في أشكـالـه المختلفـة ، ومع أن المسلمين والمسيحيين لا يعدون أنفسهم عبـاد أصنـام فإن أولئـك الـذين يعبـدون مثلهم العليـا هم عبـدة صور ، والمسجد والكنيسـة يخالطهـما شكـل من عبادة الصورة . إن تخيل أن الانسان يمكن أن يزداد قدسيـة بارتيـاد هذين المكـانـين هو شكل من أشكال عبادة الأوثان ولا عيب في هذا الاعتقاد . حتى الايمان بأن الله يتجلى فقط في القرآن أو التوراة هو عبادة أوثان وهي عبـادة بريئـة ، يذهب الهنـدوس أبعـد من ذلـك ويقـولون إن على المرء أن يعبد في الشكـل الـذي يحب . حتى الـذي يصنع صنماً من الحجر أو الذهب أو الفضة فيعبد

---

(١) آلة وترية هندية .

إضـافـة القداسة إليه، وتطهير نفسه في التأمل فيه، سيكون مؤهلاً لبلوغ الموكشا، وأصبح كل شيء أكثر وضوحاً وأنا أجيل النظر في المعبد.

مهـما كان الأمـر فإن سعـادتي لم يشبها الأسى حتى هناك. لقد سمح لي بأن أقـوم بدورة كاملة، ولكني منعت من دخـول المعبـد الداخلي لأني كنت في انكلتره. الحظـر المفـروض على المنبـوذين كان في الـواقـع بسبب مولـدهم. كيف يتسـامـح بهذا؟ أيمكن لكـانيـاكـومـاري أن يلوث؟ هل اتبـع هذا الطقس من أزمان غابرة؟ صاح صوتي الداخلي هذا لا يمكن وفوق ذلك إن كان ذلك فلا بد أن يكون شراً. ذلك لأن ما هو شر لا يمكن أن يصبح خيراً من خلال القدم. لذلك ازددت قناعة أنه من واجب كل هندوسي أن يبذل جهداً عظيماً لإزالة هذا العار.

## مهاتما غاندي

### الحضارة الهندية

أعتقد أن الحضارة التي أنشأتها الهند لا يجوز أن تتوقف في العالم. فلا شيء يعادل البذور التي زرعها أسلافنا. روما زالت. واليونان كان لها المصير نفسه. جبروت الفراعنة تحطم؛ واليابان أصبحت غربية؛ ولا شيء يمكن أن يقال عن الصين لكن الهند تبقى بشكل أو بآخر راسخة الأسس. تأخذ شعوب أوروبا دروسها من كتابات رجالات اليونان أو روما اللتين لم يعد لهما مجدهما السابق. ويتخيل الأوروبيون في محاولتهم أخذ العلم عنهما أنهم سيجتنبون أخطاء اليونان وروما. هذه حالة يرثى لها. وفي وسط كل هذا تظل الهند ثابتة وهذه هي عظمتها. ومما يؤخذ على الهند أن شعبها غير متحضر، جاهل، وخامل، وأنه من المستحيل أن تحمله على تبني أي تغيير. إن ذلك اتهام حقاً لخصائصنا. إن ما اختبرناه ووجدناه صحيحاً على سندان التجربة، لا نستطيع أن نغيره. وكثيرون أقحموا نصائحهم على الهند وظلت ثابتة. هذا هو جمالها إنها الملاذ الأخير لأملنا.

الحضارة هي نوع السلوك الذي يدل الانسان على طريق الواجب. والقيام بالواجب والحفاظ على الاخلاق مصطلحان متحولان. وللحفاظ على الاخلاق يعني احكام السيطرة على العقل والعواطف. هكذا نفعل ونحن نعرف أنفسنا. والمعادل للحضارة في اللغة الغوجارانية يعني «السلوك الحسن».

إن صح هذا التعريف فالهند إذن، كما بين ذلك كثير من الكتاب، ليست بحاجة لتعلم شيء من أحد، وهذا ما يجب أن يكون. نلاحظ أن العقل طائر قلق. كلما ازداد أخذاً ازداد رغبة، ولا نكتفي فكلما أطلقنا لعواطفنا العنان ازداد

جموحهـا. لذلـك وضـع أسلافنا حداً لاطلاق العواطف. لقد رأوا أن السعادة هي حالـة عقليـة. لا يكـون الانسـان سعيـداً بالضـرورة لأنه ثري أو تعيساً لأنه فقير. فالأغنياء غالباً ما كانوا تعساء والفقراء سعداء. وسيظل الملايين فقراء. من ملاحظة كل ذلك نصحنا أسلافنا بالابتعاد عن الترف والملذات. لقد تدبرنا أمرنا بالمحراث نفسـه الـذي ورثنـاه منـذ آلاف السنـين. وسكنـا الأكـواخ نفسها التي كانت لنا في العصـور الخـاليـة، وظلت تربتنا الأصلية المحلية كما كانت عليه سابقاً، ليس لدينا نظـام التنـافس المفسـد للحيـاة. كل واحـد كان يقـوم بمهنته أو تجارته وحقق أجراً متعـارفـاً عليه. وليس الأمر أننا كنا عاجزين عن اختراع الآلة، لكن أجدادنا كانوا يعـرفـون أننـا إذا تعلقت قلوبنـا بهذه الأشيـاء فسنصبـح عبيـداً ونخسـر صلابتنـا الاخـلاقيـة. لذلـك قرروا، بعـد تأمـل، أن علينا أن نعمل فقط ما نستطيع عمله بأيـدينـا وبأرجلنـا. ورأوا أن سعـادتنا وصحتنا الحقيقيتين هما في استخدامنا الملائم لأيدينا وأرجلنا. ثم فكروا بأن المدن الكبيرة ما هي إلا أفخاخ وأعباء لا فائدة فيها. وأن النـاس لن يكـونـوا سعـداء بها لأنـه ستنشأ فيهـا عصـابـات اللصوص وقطاع الطرق، والبغاء وستنمو الشرور فيها وأن الفقراء سيسرقهم الأغنياء. ولذلك أكتفوا بالقـرى الصغـيرة. ورأوا أن الملوك وسيـوفهم أقـل شأناً من سيف النظم الاخلاقية ولذلك تمسكوا برأيهم بأن حكام الأرض أقل شأناً من الريش والفقراء. وإن أمة لها مثل هذا الدستور حري بها أن تعلم الآخرين لا أن تتعلم منهم. لهذه الأمة محاكم ومحـامـون وأطبـاء لكنهم جميعـاً كانـوا ضمن حدود. عرف كل واحـد أن هذه المهن ليست أسمى من غيرهـا وأكثـر من ذلـك إن هؤلاء الـ«الفـاكيلز» والـ«الفيـد» لم يكـونـوا يسـرقـون الشعب كانـوا يعتبرون خدماً للشعب لا سادته. كانت العدالة سائـدة. والقـاعـدة المألوفة هي تجنب المحاكم. لم يكن هناك سماسرة يغرون الناس بدخـولها. هذا الشر ظاهر بوضوح في داخل العواصم وحواليها. وعامة الناس عاشوا مستقلين وقاموا بمهنهم الزراعية. واستمتعوا بالحكم المحلي.

الحضـارة الهنـدية كما وصفتها، كانت قد وصفت بأقلامهم محبيها. ليس من مكـان في العـالم ولا في ظل أيـة حضـارة حقق كل الناس الكمال. والحضارة الهندية تميـل إلى السمـو بالخلق الانسـاني. بينـما الحضارة الغربية تعمل في الدعاية للفساد الخلقي، فالحضـارة الغـربيـة تخلو من الالـه في حين الحضارة الهندية مؤسسة على الاعتقـاد بالله، على فهم كبـير وإيـمان كبير، هي تحض كل محب للهند أن يتشبث

بالحضارة الهندية القديمة كما يتشبث الطفل بصدر أمه .

هذه الحضارة هي الفضلى بلا ريب، غير أنه يجب أن يُلاحظ أن كل الحضارات خاضعة للمحاكمة. ما عدا تلك الحضارة التي هي دائمة . لأن أبناء الهند عانوا من الفاقة، تعرضت حضارتها للخطر، لكن قوتها تكمن في قدرتها على النجاة من الصدمة . وفوق ذلك فمعظم الهند لم يمس . وأولئك الذين أصابتهم عدوى الحضارة الغربية وحدهم من تعرضوا للاستعباد. نحن نقيس العالم بمسطرتنا البائسة . حين نكون عبيداً نظن أن العالم كله مستعبد . لأننا في حالة بائسة نظن أن كل الهند في مثل تلك الحالة . ومن المسلم به أن الامر ليس كذلك ومع ذلك فإننا نتسبب بنقل عبوديتنا الى كامل الهند. لكن ان وضعنا في الذهن الحقيقة السابقة الذكر فسنرى أننا إذا أصبحنا أحراراً فالهند حرة وبهذه الفكرة تجد تعريف الحلم الذاتي . إنه السواراج حين نتعلم حكم أنفسنا . انها، لذلك، في راحات أكفنا . لا تنظروا الى هذه السواراج كأنها حلم . فلا معنى للجلوس ساكنين . السواراج التي أريد تصويرها هي التي اذا أدركناها فستظل إلى آخر أيامنا ندعو الآخرين ليحذوا حذونا لكن سواراج كهذه لابد أن يجربها كل شخص على نفسه . لأن الغريق لن ينقذ غيره . وإن كنا نحن عبيداً فتفكيرنا بتحرير الآخرين مجرد ادعاء . ترون الآن أنه ليس من الضروري أن يكون هدفنا طرد الانكليز. إذا تهنّد الانكليزي أمكننا التعايش معه . وإن كانوا يرغبون في البقاء في الهند هم وحضارتهم فليس لهم من مكان بيننا . وبيدنا أن نضع الأمور في نصابها .

## الـ سواراج[1] والاعتماد على الذات

استسمح القارىء في أن أضع أمامه التعريفات المختلفة للسواراج التي لا أفتأ أصوغها في ذهني.

(١) تعني السواراج التحكم بالنفس، ومن بلغ هذا وفّى الأمانة.

(٢) إذا فكرنا بالسواراج بمصطلحات الرمز والصورة فالسواراج تعني سيطرة الشعب الكاملة على صادرات البلاد ووارداتها. وعلى جيشها ومحاكمها. هذا هو معنى الميثاق الذي أعلن في كانون الأول. سواراج كهذه قد تسمح أولا تسمح بإقامة علاقات مع الانكليز. إن لم يوجد حل لمسألة البنجاب ومسألة الخلافة فلا محل لمثل هذه العلاقات.

(٣) فإذن من الممكن للنسّاك كأفراد أن يعيشوا السواراج حتى في الوقت الحاضر وأنه حتى لو كان لنا مجلس نواب خاص بنا، يمكن ألا يشعر الشعب بأنه حر. لذلك فالسواراج تعني توافر الغذاء والكساء السهل، بالقدر الذي لا يجوع فيه أحد أو يعرى بسبب نقصهما.

(٤) وحتى تحت هذه الظروف، فقد يحدث أن فريقاً في المجتمع أو طائفة تعمل على اضطهاد الآخرين. ولذلك فالسواراج تعني الشروط التي تستطيع فيها فتاة شابة، أن تسير وحدها بأمان في منتصف الليل.

(٥) هذه التعريفات الأربعة ستكون أساساً لتشمل كثيراً غيرها، وإلا إذا ما

---

١ ـ الحكم الذاتي.

استثارت السواراج ـ ويجب أن تستثير ـ روحاً جديدة في كل فرد من أفراد الطبقات التي تؤلف الأمة، فإنها ستعني زوالاً كلياً لمعاملة الـ«الأنتياجاس» كأفراد لا يمسون.

(٦) إنهاء للنزاعات البراهمية مع غير البراهميين.

(٧) زوال البغضاء الكلي من قلوب الهندوس والمسلمين. هذا يعني أن الهندوسي عليه أن يحترم مشاعر المسلم وأن عليه أن يضحي بحياته من أجله، وبالمقابل، يجب على المسلمين ألا يذبحوا الأبقار بغرض ايذاء الهندوس. وعلى العكس عليهم أن يمتنعوا ذاتياً عن ذبح الأبقار للمحافظة على مشاعر الهندوس. ومثل ذلك، ودون طلب شيء بالمقابل، على الهندوس أن يكفوا عن عزف الموسيقى أمام المساجد بغرض ايذاء المسلمين، وعليهم أن يفخروا بعدم العزف حين يمرون أمام مسجد.

(٨) السواراج تعني أن للهندوس والمسلمين والسيخ والبارسيين والمسيحيين واليهود أن يكونوا قادرين على اتباع دياناتهم وأن يحترموا ديانات الآخرين.

(٩) السواراج تعني أنه يجب أن تكون كل مدينة وقرية قوية بما يكفي لحماية نفسها من اللصوص وقطاع الطرق وأن تنتج ما تحتاج من الغذاء والكساء.

(١٠) السواراج تعني احتراماً متبادلاً ما بين الأمراء أو الـ«الزمندار» من جهة ورعاياهم من جهة أخرى فلا االأمراء يطغون على الرعية ولا الرعية تسبب المشاكل.

(١١) السواراج تعني احتراماً متبادلاً بين الأغنياء وبين الطبقة العاملة. تعني أن يعمل العمال بسرور للأغنياء مقابل أجور مناسبة.

(١٢) السواراج تعني النظر إلى أية امرأة على أنها أم أو أخت، واحترامها بالغ الاحترام. تعني إزاحة التمييز بين الأعلى والأدنى والتصرف تجاه الجميع بالاحترام ذاته الموجه للأخ أو الأخت.

ويستتبع هذه التعريفات أنه في السواراج (١) لن تتاجر الحكومة بالخمور والأفيون وأي شيء من هذا النوع. (٢) لا يسمح قطعاً بالمضاربات بالغذاء والقمح والقطن، (٣) لن يخرق أحد القانون، (٤) لا محل للتمادي، مما يعني أن الشخص لا يستطيع التصرف كقاضٍ حين يكون نفسه متهماً، بل يجب أن يتحقق من التهم في محكمة ملائمة تؤسس في البلاد.

**مهاتما غاندي**

## يجب أن يبدأ الاستقلال من القاعدة

يجب أن يعني استقلال الهند استقلال كامل الهند بما فيها ما يدعى هند الولايات والقوى الأخرى الأجنبية ـ الفرنسية والبرتغالية ـ الموجودة هناك، كما أظن، بموافقة بريطانية. يجب أن يعني الاستقلال جميع شعب الهند، لا الذين يحكمونه اليوم. يجب أن، يعتمد الحكام على ارادة الذين في طاعتهم. وهكذا يجب أن يكونوا خدام الشعب مستعدين لتنفيذ ارادته.

يجب أن يبدأ الاستقلال من القاعدة. وهكذا ستكون كل قرية جمهورية أو مقاطعة لها كامل السلطات، يستتبع ذلك أن كل قرية يجب أن يكون لها كفايتها الذاتية والقدرة على ادارة شؤونها، حتى الى درجة الدفاع عن نفسها ضد كل العالم. يجب أن تتلقى التدريب وتتهيأ للفناء في الدفاع عن نفسها ضد أي هجوم خارجي. وهكذا تكون بمثابة الفرد الذي هو الوحدة. وهذا لا يلغي الاعتماد على المساعدة الحرة من الجيران أومن العالم. فهي ستكون حرة أو متطوعة لاعبة دوراً بين القوى المتبادلة. مجتمع كهذا لابد أن يكون عالي التهذيب والثقافة حيث يكون كل فرد فيه رجلاً أو امرأة عارفاً لما يريد وأكثر من ذلك عارفاً أنه لا يجوز لأحد أن يطلب شيئاً لا يستطيع غيره الحصول عليه بجهد مساوٍ لجهده.

ومن الطبيعي أنه يجب أن يؤسس هذا المجتمع على الحقيقة واللاعنف اللذين، في رأيي، غير ممكنين بدون إيمان حي بالله الذي أعني به تلك القوة العارفة بكل شيء والموجودة بذاتها والفائقة القدرة على كل قوة معروفة في العالم ولاتعتمد على أي شيء غيرها والتي ستظل حية في حين قد تفنى القوى الأخرى أوتتوقف

عن الفعـل. وأنـا غير قادر على الاستفـادة من حيـاتي دون هذا الايمان بهذا النور الحي الغامر.

في هذا البنـاء المؤلف من القـرى التي لا تحصى ستتسـع الدوائر ولا تتصاعد لن تكـون الحيـاة هرمـاً تترأس فيه القمم القاعدة. بل سيكون دائرة محيطية مركزها الفـرد المستعد دائماً للفناء من أجل القرية، والقرية مستعدة لأن تفنى من أجل دائرة القـرى حتى يصبـح الجميـع أخـيراً حياة واحدة مؤلفة من أفراد، غير عدوانيين في غطرستهم بل متواضعون يتشاركون بجلال الدائرة المحيطية التي هم فيها وحدات متحدة.

لذلـك لن يكـون لمحيـط الـدائـرة البعيـدة عن المـركز قوة يسحق بها الدائرة الـداخليـة بل سيمنـح القوة لكل من في الداخل ويستمد قوته منها. قد أجابه بالرد بأن هذا كله طوباوي ولذا لا يستحق أدنى تفكير. لو أن لنظرية أقليدس، رغم أنها لا يمكن لها أن تكـون مرسـومـة بعمـل انسـاني، قيمـة لا تفنى، فإن الصورة التي أرسمهـا من أجـل البشـريـة يجب أن تعيش. دعـوا الهند تعيش من أجل هذه الصورة الحقة مع أنهـا غير مُدركَـة في حالتهـا الكاملة، يجب أن يكون لنا صورة مناسبة عما نريد، قبـل التـوجه إليه. إذا تحققت جمهورية لكل قرية في الهند فإني عندئذ يمكنني ادعاء الحقيقة لصورتي التي فيها يكون الأخير مساوياً للأول وبكلمات أخرى، لن يكون هناك من أول ولا من أخير.

في هذه الصـورة سيكـون لكـل دين مكـانته الكاملة والمتساوية. كلنا أوراق دوحـة واحـدة ذات جذع عصي على الانتـزاع من جذوره الممتـدة الى أعـماق الأرض. ولا تهزها أعتى الرياح.

لا محل فيها للآلات التي تحل محل العمل الانساني والتي تركز القوة في بضعة أيـد. للعمـل مكانته الفريدة في الأسرة الانسانية المتقدمة. ويسمح فقط للآلة التي تعين الفرد الواحد على الانتاج، لكن علي أن أعترف أنني لم أجلس أبداً لافكر ما هي تلك الآلة. فكرت بآلة سنجر للخياطة لكن حتى هذا لم يكن تفكيراً جاداً. لا أحتاج إليه لأكمل صورتي.

## مهاتما غاندي

### نحو الاعتماد على الذات

سأناضل من أجل دستور يحرر الهند من كل أشكال العبودية والوصاية وأعطيها، ان لزم الأمر، حق الوقوع في الخطيئة. سأعمل من أجل هند يشعر فيها أفقر الفقراء أنها بلده الذي يصنع وله فيه صوت مؤثر؛ هند تعيش فيها كل فئات المجتمع بانسجام كامل.

لا محل في هند كهذه للعنة اللامساسية أو لعنة الخمور والمخدرات ستتمتع النساء بحقوق الرجال نفسها. وطالما أننا سنكون في سلام مع بقية العالم، لا نَستغِل ولا نُستغَل، فسيكون عندنا أصغر جيش يمكن أن يُتخيل.

كل مصلحة لا تتعارض مع مصالح الملايين الصامتة محترمة كل الاحترام، سواء كانت مصلحة أجنبية أو محلية، وأنا شخصياً أكره التفريق بين المحلي والأجنبي.

هذه هي هند أحلامي التي من أجلها سأناضل على مؤتمر الطاولة المستديرة القادم، قد أخفق، ولكن إن كنت جديراً بثقة المؤتمر فلن أقبل بأقل من ذلك.

## مهاتما غاندي

# التعليم

ما معنى التعلم! إنه ببساطة معرفة الحروف، وما الحروف إلا أدوات والأداة إما أن يحسن استخدامها أويساء. الأداة التي يمكن أن تستخدم لشفاء مريض يمكن أن تستخدم للقضاء عليه وهكذا الأمر في معرفة الحروف. نلاحظ أن كثيرين من الناس يسيئون استخدامها وقلة منهم يحسنون. إن كان قولي صحيحاً، فقد برهنا على أنه تحقق بها أذى أكثر مما تحقق من خير.

المعنى المألوف للتعليم هو معرفة الحروف. وتعليم الأولاد القراءة والكتابة والحساب يطلق عليه اسم التعليم الابتدائي. الفلاح الذي يكسب رزقه بشرف لديه معرفة عادية بالعالم. يعرف تماماً كيف يعامل والديه وزوجه وأولاده وزملاءه الفلاحين. يفهم ويتبع القواعد الأخلاقية. لكنه لا يستطيع كتابة اسمه. ماذا تقترحون أن تفعلوا بتعليم الحروف؟ هل تضيفون بوصة الى سعادته؟ هل تريدون أن تجعلوه غير راض عن كوخه أو قدره؟ وحتى إن كنتم تريدون فعل ذلك فإنه لن يحتاج الى هذا النوع من التعليم. لقد وصلنا، متأثرين بطوفان الفكر الغربي دون وزن للحسابات والخسائر، الى نتيجة أنه علينا أن نقدم هذا النوع من التعليم الى الشعب.

الآن فلنأخذ التعليم العالي. أنا تعلمت الجغرافيا، والفلك، والجبر والهندسة.. الخ. بأية طريقة أفدت نفسي أومن حولي؟ لِمَ تعلمنا هذه الأشياء؟ عرف الأستاذ هكسلي التعليم بالتالي:

«الانسان الذي أظن أنه تلقى تعليماً حراً والذي تدرب في شبابه على أن

يكون جسده خادماً طائعاً لإرادته ويقوم بيسر وسعادة بكل الأعمال القادرة عليها قواه الجسدية، ومن كان عقلهُ آلة واضحة باردة منطقية بكل أجزائها ذات القوة المتساوية في نظـام عمـل دقيق. . . من امتلأ عقله بحقـائق الطبيعـة الأسـاسيـة. . . ومن تدربت عواطفـه على الانقيـاد لارادته القوية. . . الخادم لضمير حساس. . . من تعلم أن يكره كل الخسائس ويحترم الآخرين احترامه لنفسه. مثل هذا الانسان لا غير أعده قد تلقى تعليماً حراً لأنه على انسجام مع الطبيعة. وسيصنع منها الأفضل وهي ستصنع كذلك منه».

إذاً كان هذا التعليم الصحيح. فعلي أن أؤكد أن العلوم التي عددتها سابقاً لم أستطـع استخـدامهـا أبـداً في السيطـرة على حواسي. لذلـك سواء تلقيت تعليـماً ابتدائياً أو تعليماً عالياً فإنه غير مطلوب للشيء الرئيسي. إنه لا يصنع منا بشراً. ولا يمكننا من القيام بواجباتنا.

## مهاتما غاندي

### علينا أن نبني تراثنا

يجب أن لايفهم أنني أقلل من شأن الانكليزية أو آدابها الرفيعة. فأعمدة صحيفة هاريجان دليل كاف على حبي اللغة الانكليزية. لكن رفعة أدبها لن تقدم للأمة الهندية أكثر مما يقدم لها طقس انكلترا المعتدل أو مناظرها الطبيعية. على الهند أن تزدهر في طقسها الخاص وفي مناظرها وفي أدبها الخاص. حتى لو كانت هذه الثلاثة أقل مستوى من الطقس الانكليزي والمناظر الانكليزية والأدب الانكليزي. علينا وعلى أبنائنا أن نرفع بناء تراثنا الخاص. إن استعرنا تراث غيرنا فسنفقر تراثنا. لن نستطيع أن ننمو أبداً على المواد الاجنبية. أريد للأمة أن تأخذ الكنوز التي تحتويها تلك اللغة وكذلك كنوز لغات العالم الأخرى عبر لهجاتها الخاصة. لا أحتاج أن أتعلم البنغالية من أجل أن أتعرف على جماليات ابداعات رابندرانات التي لا تُجارى. أحقق ذلك من خلال ترجمة جيدة. أبناء وبنات الكوجارات لا يحتاجون لتعلم الروسية ليتذوقوا قصص تولستوي القصيرة. يتعلمونها من خلال ترجمات جيدة. من دواعي تفاخر الانكليز أن أفضل الانتاج الأدبي في العالم يكون بين أيدي الأمة في انكليزية بسيطة خلال اسبوع من نشره. لماذا احتاج الى الانكليزية؟ ألأطلع في أحسن الأحوال على ما فكر به شكسبير وميلتون وما كتباه؟

قد تكون عملية اقتصادية رابحة أن نخصص صفاً من الطلبة يكون عملهم تعلم أفضل ما يجب أن يتعلم من اللغات المختلفة في العالم ويقوموا بترجمتها الى اللهجات الهندية. لقد اختار أسيادنا لنا الطريق الخطأ. وجعلت العادة الخطأ يبدو

كأنه صواب .

أجد برهاناً يومياً على التمادي والاستمرار في الخطأ الذي ارتكب بحق الملايين بذلك التعليم غير الهندي المزيف، هؤلاء الخريجون الذين هم معاونيّ الأكفياء أنفسهم يتعثرون عندما يتوجب عليهم التعبير عن أفكارهم الكامنة . أنهم غرباء في بيوتهم . مفرداتهم بلغتهم الأمم محدودة جداً فلا يستطيعون دائماً أن يكملوا حديثهم دون اتكاء على الكلمات الانكليزية وحتى على الجمل . ولا وجود لهم بغير الكتب الانكليزية . وهم غالباً يكاتبون بعضهم بالانكليزية . أسوق حالة أصحابي مثلاً لأوضح لأي مدىً استفحل الشر . لأننا قمنا بجهد واع لنفكر بأنفسنا .

لقد قيل إن الهدر الظاهر في كلياتنا لا يستوجب قلقنا إذا استطاع واحد من الخريجين أن يكون مثل «جاكديش بوز» . كان علي أن أؤيد هذا الرأي لو أن الهدر غير ممكن تجنبه ، آمل أني عرضت أنه كان وحتى الآن ممكناً تجنبه . وفوق ذلك فإن ظهور «بوز» لا يدعم ذلك الرأي لأنه ليس من نتائج التعليم الحالي . لقد برز بالرغم من كل الظروف السيئة التي كان يعمل فيها . ومعرفته أصبحت تقريباً غير قابلة للانتشار بين الجماهير . نبدو وكأننا على وشك أن نظن بأن لا أحد قادر أن يكون مثل بوز مالم يعرف الانكليزية . لا أرى أكبر خرافة من هذه . ليس من ياباني يشعر بهذا العجز الذي نبدو فيه .

لا شيء غير دواء بطولي يمكن أن يتعامل مع هذا الشر المتأصل الذي حاولت وصفه . يستطيع مؤتمر الوزراء ، إذا أرادوا ، تخفيف أثره إن لم يستطيعوا استئصاله .

يجب أن تمول الجامعات نفسها . وتستطيع الدولة ببساطة تعليم من تحتاج الى خدماتهم يجب أن تشجع الجهد الخاص في كل الفروع الأخرى من التعليم . يجب أن تتغير واسطة التعليم حالاً ومهما بلغ الثمن ، ويجب أن تأخذ لغات المناطق مكانها الصحيح . إني لأفضل ارتباكاً موقتاً في التعليم العالي على الهدر الاجرامي المتعاظم في كل يوم .

ومن أجل تدعيم مكانة اللغات المحلية وقيمتها الاقتصادية أريد أن تكون لغة المحاكم القضائية لغة المقاطعة التي تقع فيها المحكمة . ويجب أن تتم الاجراءات القضائية بلغة المقاطعة أو لغاتها في حال وجود أكثر من لغة فيها . وأرى أنه باستطاعة القضائيين بتطبيقات كافية أن يفهموا لغات مقاطعاتهم خلال شهر .

ليس هنـاك ما يمنـع تاميـلي من أن يتعلم القـواعـد السهلة لبضع مئات من مفردات تيلوغو أو ملايالم أو كاناريس والقريبة جداً من التاميل. وفي الوسط يجب أن تسود الهندوستانية سيادة مطلقة.

في رأيي أن هذه ليست مسألـة يقـررهـا الأكاديميون. فهم لا يستطيعون أن يقـرروا أيـة لغـة يجب أن يتعلم بها الأولاد والبنات. فالقرار محسوم سلفاً في كل بلد حر. كما لا يستطيعون أن يقرروا الموضوعات التي يجب أن تعلم. فهذا يعتمد على حاجـات البلد الـذي ينتمـون إليـه. وهم يتمتعـون بميزة تقوية ارادة الأمة بأفضل السبل الممكنة. وحين يصبح هذا البلد حراً تماماً تحل مسألة الوسيط التعليمي حلاً واحداً. سيقوم الأكاديميون بوضع المناهج وتحضير الكتب المدرسية. وستلبي نتائج التعليم في الهند الحرة حاجات البلاد كما تلبي الآن حاجات الحكام الأجانب. وما دمنـا نحن الطبقـات المثقفـة نلعب بهذه المسألـة فإني لأخشى أننا لن نستطيـع انجـاب الهنـد الحـرة المعـافـاة التي بها نحلم. يجب أن تنمـو بالجهـد العـالي خارج عبـوديتنـا، سواء على المستوى التعليمي أو الاقتصادي أو السياسي. والجهد نفسه يمثل ثلاثة أرباع المعركة.

**مهاتما غاندي**

## العمل البنّاء

أكـدت لجنـة العمل على ضرورة أن يقوم أعضاء المجالس التشريعية وعمال آخرون بحمل البرنامج البنّاء لعام ١٩٢٠ إلى الثلاثين مليون قروي الذين نشأت بينهم وبـين ممثليهم صلات مبـاشـرة. وللممثلين أن يتنكـروا لهم إذا رغبـوا، أو أن يمنحـوهـم بعض الخـلاص المعنـوي أو حتى المـادي من أعبائهم المالية؛ ولكنهم لا يستطيعون منحهم الثقة بالنفس والكرامة والقدرة على استمرارية تحسين أوضاعهم مالم يثيروا اهتمامهم بالبرنامج البناء ذي الأجزاء الأربعة. ومثال على ذلك ألانتاج العام للـ«الخادي»» بواسطة المغزل اليدوي وتعميم استخدامه، والوحدة الهندوسية الاسـلاميـة أو الوحدة الاجتماعية، والمنع التام والشامل لتناول الخمور والدعوة الى ذلك في أوساط من استحكمت بهم هذه العادة. وإزالة ظاهرة المنبوذين جذراً وفرعاً.

لقد أعلن في عام ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ من على آلاف المنابر أن نجاح السواراج بأسلوب اللاعنف كان مستحيلاً بدون هذه الأمور الأربعة. واعتقد أن هذا القول ليس بأقل صحة اليوم.

إن تحسـين الـوضـع الاقتصـادي للجماهير عن طريق نظام الدولة الضريبي شيء، وأن تشعر الجماهير أنها حسنت أوضاعها بجهودها الفردية شيء آخر. والآن لايمكن أن يتحقق ذلك إلا من خلال الغزل اليدوي والصناعات الريفية الأخرى.

وشبيه بذلـك أن ينظم السلوك الاجتماعي عن طريق اتفـاقـات طوعيـة أو

مفـروضـة من الدولة شيء وشيء مختلف جداً عند الجماهير أن يحترم الواحد تقاليد الآخر الدينية والعامة. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا اذا قام رجال التشريع والعمال بالانتقال الى أهل القرى لتعليمهم التسامح المتبادل.

مرة أخـرى، أن تفـرض، المنـع بالقـانـون كما يجب، شيء والالتزام به عن طريق الارادة الطـوعيـة شيء آخـر. وانها عقلية انهزامية متخاذلة التي تقول بأنها لا تستطيـع أن تعمـل بدون نظـام تجسسي فعـال ومكلف. فمن المؤكد أنه إذا خرج العـمال الى الـريف وبينـوا مسـاوىء شرب الخمـر في كل مكان تشيع فيه، واذا قام البحـاثـة العلماء باكتشـاف أسبـاب ادمـان الكحـول ونقلت المعـرفـة المـلازمة الى الشعب، فإن المنع لن يثبت أنه غير مكلف فحسب بل أنه مفيد. وهذا عمل على المرأة بشكل رئيسي أن تنهض به.

أخـيراً يمكن أن نزيـل بالقـانـون، كما يجب علينـا، النتـائـج الآثمـة عن المنبـوذيـة. لكن لايمكن أن نحقق استقـلالا حقيقيـاً مالم يزل الشعب روح ولا تلمسني» من القلوب. والجـماهـير غير قادرة على الفعل كرجل واحد أوعقل واحد مالم تنتزع هذه الفكرة من قلوب أفرادها

هكـذا فإن هذه المسألـة والمسائل الثلاث الأخرى هي مادة الثقافة الشعبية. التي أصبحت ضروريـة بلا مالا يقبـل الشـك بعد أن صار لدى الثلاثين مليوناً من الـرجـال والنسـاء، خطأ أو صوابـاً، قوة وضعت بين أيديهم، مهما حُددت. لرجال المؤتمـر وآخـرين الـذين يريدون أصوات الناخبين بإمكانهم أن يقفوا الثلاثين مليوناً من البشـر على الطـريق الصحيح أو الخطأ. ومن الخطأ أن نهملهم جميعاً في مسائل ذات أهمية حيوية لهم.

# مهاتما غاندي

## سواديشي

لم يكن بدون كثير من عدم الثقة أنني أخذت على عاتقي أن أتحدث إليكم. ولقد ركبت مركباً صعباً في اختيار موضوعي. لقد اخترت موضوعاً حساساً وصعباً، إنـه حسـاس بسبب أن لي وجهـات نظـر خاصـة عن السواديشي وصعب لأنه ليس عنـدي الطـلاقة اللغوية الكافية للتعبير عن أفكاري. أعرف أنه يمكنني أن أعتمد على تسـاهلكم مع النـواقص الكثـيرة التي ستجـدونها بلا شك في خطابي، وأكثر حين أقول لكم ليس من شيء فيها يمكن أن أقول لا أمارسه أولا لا أتهيأ مسبقاً لممارسته إلى أبعد حدود قدرتي. يشجعني أنني لا حظت الشهر الماضي أنكم كرستم أسبوعاً من الصـلاة محلّ الخطـاب. لقـد صليت بحـرارة أن ما سأقوله يمكن أن يحمل ثماراً وأعرف أنكم ستباركون كلماتي بصلاة مشابهة.

بعـد كثـير من التفكـير وصلت الى تعريفـ للسواديشي الذي ربما يوضح ما أعني ايضاحاً جيداً. سواديشي هي تلك الروح فينا التي تقيد الاستفادة من خدمة من يحيـط بنـا مبـاشرة الى اهمال البعيد عنا وهكذا، كما في الدين، من أجل أن أفي متطلبـات التعـريفـ، علي أن أقيـد نفسي بدين أسـلافي. هذه هي فائـدة محيطي الـديني. إن وجـدتـه فاسـداً فعـلي أن أخدمه بتطهيره من عناصر الفساد. في حقل السياسة يجب أن أستفيد من الأهالي وأخدمهم بشفائهم من مساوئهم الثابتة، وفي الاقتصاد، يجب أن استخدم الأشياء التي هي انتاج جيراني الأقربين، وأخدم تلك الصناعات بأن أجعلها أفضل صنعاً واكتمالاً إن كانت في حاجة. يقال إن سواديشي كهـذه اذ اقتصـرت على الممارسة ستقود الى مجتمع عصر الرخاء والكفاية للجميع.

وطالما أننا لا نتخلى عن ملاحقتنا الازدهار والرخاء لأننا لا نتوقع أن نصل اليه تماماً في زماننا هذا، وهكذا يمكن ألا نتخلى عن السواديشي حتى لو لم يتم بلوغها كلية لأجيال قادمة.

دعونا نتفحص الفروع الثلاثة للسواديشي باختصار كما حددت قبل قليل. الهندوسية أصبحت ديانة محافظة ومن ثم قوة هائلة بسبب روح السواديشي التي تعتمد عليها. إنها الأكثر تسامحاً لأنها ليست ديانة تبشيرية، وهي قادرة على الانتشار اليوم كما كانت في الماضي. وقد نجحت لافي الدفع، كما يظن فيها، بل في تشرب البوذية. بمنطق روح السواديشي، الهندوسي يرفض أن يغير دينه لا بالضرورة لأنه يعده الأفضل، بل لأنه يعرف أنه يستطيع إكماله باحداث الاصلاحات، وما قلته عن الهندوسية، أفترض أنه يصح في الديانات العظيمة الأخرى في العالم. إلا أنه يعتقد أن ذلك خاص هكذا في حالة الهندوسية. لكن هنا تأتي النقطة التي أعمل للوصول إليها. إن كان في ما قلته من مادة. ألا تكون المؤسسات التبشيرية العظيمة في الهند التي تدين لها بالامتنان لما قدمته وما تقدمه، . ألا تكون تفعل أفضل وتخدم روح المسيحية أفضل من ترك هدف التبشير والاستمرار في العمل الخيري؟ آمل أنكم لن تعدوا هذا قلة احترام مني وفوق ذلك فإن لدي ما ألفت انتباهكم إليه. أنا اهتممت بدراسة التوراة والانجيل. أعدها واحداً من كتبي المقدسة. روح موعظة الجبل تتنافس تقريباً بنفس الحجم مع باغافادغيتا على السيطرة على قلبي. لا يتفوق عليّ مسيحي في قوة التقوى حين أغني «Lead kindly light» وترنيمات ملهمة أخرى من الطبيعة نفسها. لقد وقعت تحت تأثير بعثات تبشيرية معروفة تنتمي الى مختلف المذاهب. واتمتع حتى اليوم بميزة الصداقة مع بعضها. انكم لذلك سوف تسمحون أني قلت ما قلت لا كهندوسي منحاز بل كتلميذ دين متواضع نزيه لديه الكثير من المعروفة في المسيحية. ألا يمكن أن تكون رسالة «إذهب أنت الى كل العالم» قد أسيء فهمها بشكل ضيق وافتقدت روحها. لا سبيل الى انكار، وأنا اتكلم عن تجربة، أن كثيراً من التحولات الدينية هي تحولات مزعومة. في بعض الحالات فإن القابلية لم تذهب الى القلب بل الى المعدة. وفي كل حالة فإن التحول الديني يخلق مرارة وأغامر بالتفكير بأنه لا يمكن تجنبها. مقتبساً مرة أخرى من التجربة، ولادة

جديدة، تغير القلب، محتمل تماماً في كل من الأديان العظيمة. أعرف أنني أدوس على جليد رقيق، ولكنني لا أعتذر، من انهاء هذا الجزء من موضوعي بقولي بأن الغضب المريع الحاصل في اوروبا ربما يظهر بأن رسالة يسوع الناصري ابن السلام لم تُفهم جيداً في أوروبا ويجب أن يسلط عليها الضوء من الشرق.

لقد طلبت عونكم في المسائل الدينية، التي هي لكم أن تقدموها في معنى خاص. غير أني أتجرأ أن اسألكم العون ذاته حتى في المسائل السياسية. أنا لا أؤمن بأن الدين لا شأن له في السياسة إن انفصلت السياسة عن الدين فهي مثل جثة لا يلائمها غير الدفن. وكحقيقة واقعة فإنكم في سلوككم الصامت تؤثرون في السياسة تأثيراً غير قليل. وأشعر أن محاولة فصل السياسة عن الدين لم يقم بها كما يقام بها الآن ولولاها لم تصب بالانحلال، كما يظهر غالباً. لا أحد يعد الحياة السياسية في البلد في حالة يسعد بها. متتبعاً روح السواديشي الحظ أن المؤسسات المحلية وقرى البنشايات تشدني. الهند حقاً بلد جمهوري، ولأنها كذلك فقد نجت من كل صدمة من أي جهة أتت. الأمراء والحكام سواء كانوا هنود المولد أو أجانب ما احتكوا بالجماهير العريضة إلا من أجل جمع المحاصيل. والجماهير بدورها أعطت مالقيصر لقيصر وفعل الآخرون كما يحلو لهم. ولم تلب منظمة المنبوذين الواسعة الانتشار حاجات المجتمعات المحلية الدينية بل لبتث حاجاتهم السياسية. لقد دبر القرويون شؤونهم الداخلية من خلال نظام (المنبوذين) ومن خلال هذا النظام تعاملوا مع كل اضطهاد يقع عليهم من القوة أو القوى الحاكمة. ليس ممكناً أن ننكر على أمة استطاعت أن توجد نظام المنبوذين قدرتها الرائعة على التنظيم. على المرء أن يحضر الـ«كومباميلا» العظيم في هاردوار السنة الماضية ليعرف ماكانت عليه تلك المنظمة من البراعة والتي بدون جهد بادٍ للعيان كانت قادرة على أن تقدم الطعام لأكثر من مليون حاج. ومع ذلك اعتاد البعض أن يقول إننا نفتقر الى القدرة على التنظيم، هذا يصح، كما أظن، الى حد معين، على أولئك الذين تربوا على التقاليد الحديثة. لقد عملنا في ظروف شديدة السوء سببها غياب روح السواديشي القاتل. نحن الطبقات المثقفة تلقينا تعليمنا بواسطة لسان غريب ولهذا لم نتجاوب مع الجماهير نريد أن نمثل الجماهير ولكننا نخفق. لا يعترفون بنا أكثر مما يعترفون بالضباط الانكليز. قلوبهم موصدة في وجه الاثنين. تطلعاتهم غير تطلعاتنا. هنا

يوجد شرخ. وما تلاحظونه لا الاخفاق في التنظيم بل الحاجة الى التواصل ما بين الممثلين ومن يمثلون. لو أننا خلال الخمسين سنة الماضية تعلمنا بلغاتنا المحلية، فإن كبارنا وخدمنا وجيراننا كانوا قد حصلوا جزئياً على معرفتنا. واكتشافات (بوز) أو (ري) تعد كنزاً كما كانت (رامايانا) والـ(مهابهاراتا). كما أن هذه الاكتشافات العظيمة، على قدر ما تكون الجماهير معنية، يمكن أن تتحقق بالشكل نفسه على يد أجانب. لو أن العلم في مختلف فروع التعليم كان باللغات المحلية. فإني أجرؤ على القول بأنه كان يزداد غنى وروعة. مسألة الصحة في القرية كانت حلت منذ زمن طويل. ولاصبحت قرى البنشايات قوى حية بطريقة خاصة ولتمتعت الهند تقريباً بحكم ذاتي يتلاءم مع متطلباتها ولوفرت على نفسها هذا المشهد المهين للقتل المنظم على أرضها المقدسة. لم يفت أوان الاصلاح. وتستطيعون أن تساعدوا اذا أردتم كما لا يستطيع أي شخص أو أشخاص.

والآن حول الجزء الأخير من السواديشي. إن فقر الجماهير المدقع يعود أكثر أسبابه الى الابتعاد المدمر عن السواديشي. في الحياة الاقتصادية والصناعية لو أنه لم تجلب أية سلعة تجارية من خارج الهند لكانت اليوم أرضاً تفيض باللبن والعسل وهذا ما كان ليكون. لأننا كنا جشعين وكذلك كانت انكلتره. لقد تأسست العلاقة ما بين الهند وبين انكلتره على خطأ. لكن انكلتره لم تبق في الهند خطأ. إن سياستها المعلنة أن الهند يجب أن تكون رصيداً لشعبها. اذا كان ذلك صحيحاً فإن على لانكشاير أن تتنحى. واذا كانت تعاليم السواديشي تعاليم سليمة، فإن لانكشاير تستطيع أن تنحى دون أن تتأذى. على الرغم من أنه يمكن أن تتلقى صدمة. أفكر بالسواديشي لا على أنها حركة مقاطعة قامت بغرض الانتقام. أفكر بها كمبدأ ديني يجب أن يتبعه الجميع. لست رجل اقتصاد لكني قرأت بعض الكتب التي تظهر أن انكلتره تستطيع بسهولة أن تكون بلداً مكتفياً بذاته وتنتج كل احتياجاتها. هذا ولاشك يدعو الى الضحك ولعل أفضل برهان بأن ذلك ليس ممكناً هو أن انكلتره واحدة من أكبر المستوردين في العالم. لكن الهند لا تستطيع أن تعيش من أجل لانكشاير ولا من أجل أي بلد آخر قبل أن تستطيع العيش من أجل نفسها. وتستطيع العيش من أجل نفسها فقط حين تنتج وحين تُساعَد انتاج كل احتياجاتها داخل حدودها. هي لاتحتاج، ويجب ألا تحتاج الى أن تجر الى تيار التنافس المجنون المخرب الذي يلد النزاعات بين الأخوة والغيرة وكثيراً من الشرور

الأخرى. ولكن من سيمنع أصحاب الملايين من أبنائها من دخول المنافسة العالمية؟ بالتأكيد ليس التشريع. قوة الرأي العام، التعليم المناسب على كل حال يمكنهما أن يقدما شيئاً كثيراً في هذا الاتجاه. إن صناعة الأنوال اليدوية في حالة موات. حرصت كل الحرص أثناء تجوالي السنة الماضية أن أرى أكبر عدد من النساجين. وقد توجع قلبي أن أراهم ضائعين. ما أكثر الأسر التي تخلت عن هذه المهنة المزدهرة والمشرفة. إذا اتبعنا تعاليم السواديشي فسيكون واجبك وواجبي أن نبحث عن جيران يستطيعون تأمين حاجاتنا وأن نعلمهم كيف يفعلون ذلك في حالة جهلهم، مفترضين أن هناك جيراناً بحاجة الى مهنة شريفة. عندئذ ستكون كل قرية في الهند وحدة قائمة بذاتها تزود نفسها بنفسها وتتبادل فقط السلع الضرورية، مع قرانا الأخرى، التي لا تصنع محلياً. قد يبدو كل هذا سخفاً. حسناً الهند هي بلد السخف. إنه من السخف أن يحرق المرء حلقه من العطش حين يكون مسلم طيب مستعداً لتقديم الماء العذب للشرب. ومع ذلك فهناك مئات من الهندوس يفضلون الموت عطشاً على شرب ماء من مسلمين. ويمكن للسخفاء أيضاً، حين يقتنعون أن دينهم يأمرهم بأن يرتدوا الثياب المصنعة في الهند فقط وأن يأكلوا الطعام المزروع في الهند، سيميلون الى أن لا يرتدوا ثياباً ولا يتناولوا طعاماً غيره. وضع اللورد كورزون تقليد شرب الشاي وسرت عادة شرب هذا الدواء المؤذي لتشمل الأمة. لقد تسبب هذا الشراب بتخريب الجهاز الهضمي لمئات آلاف الرجال والنساء وفرض ضريبة إضافية على محافظ نقودهم النحيلة. بإمكان اللورد هاردينجي أن يضع تقليداً للسواديشي وستقلع الهند كلها تقريباً عن اقتناء البضائع الأجنبية. هناك جملة بهغفادغيتا، التي، اذا ما ترجمت، تعني الجماهير تتبع الطبقات العليا. من السهل عدم فعل الشر إذا ما أخذت الفئة المفكرة في المجتمع على نفسها عهد السواديشي حتى ولو سبب ذلك لبعض الوقت ازعاجاً قصيراً. أكره التدخل في أي دائرة من دوائر الحياة. لكني قد أتسامح، أرحب، وفي الحقيقة أتوسل من أجل فرض ضريبة حماية شديدة على البضائع الأجنبية. ناتال، مستعمرة بريطانية حمت سكرها بفرض ضرائب على السكر المستورد من مستعمرة بريطانية أخرى موريشيوس. لقد أخطأت انكلترة بحق الهند بأن فرضت التجارة الحرة عليها. ربما كان ذلك غذاء لها لكنه كان سماً لهذا البلد.

قيل غالباً بحماس إن الهند لا تستطيع تبني السواديشي في الحياة الاقتصادية

بأي مقياس هؤلاء الذين يقدمون هذا الاعتراض لاينظرون الى السواديشي كقاعدة حياة. فهي لهم جهد وطني فحسب ولا يجوز أن يقدم اذا تضمن أي إنكار للذات. السواديشي كما عرفت هنا هي نظام ديني يجب أن يأخذ طريقة دون النظر مطلقاً الى الازعاج الجسدي الذي يمكن أن تسببه للأفراد. وتحت سحرها، فإن منع استخدام دبوس أو ابرة، لأنها غير مصنوعة في الهند، لا يحتاج الى ارهاب. السواديشي سيتعلم أن يتخلى عن مئات الأشياء التي يعتبرها اليوم ضرورية وفوق ذلك، فإن أولئك الذين يطردون السواديشي من أذهانهم بمجادلة المستحيل ينسون أن السواديشي أخيراً هدف يجب أن يبلغ بجهد ثابت، ويمكن لنا بلوغ هذا الهدف حتى لو جددنا السواديشي بعدد من المواد، نسمح لأنفسنا وبشكل مؤقت باستخدامها، طالما أنها لا تسبب الأذى في البلد.

يتبقى الآن اعتراض آخر، يجب أخذه بعين الاعتبار، كان قد اثير ضد السواديشي. يعد المعترضون السواديشي على أنها نظام أناني بلا أي حق في دستور الاخلاقية المتمدنة. عندهم ممارسة السواديشي عمل يعود للبربرية. لا أستطيع الدخول في تحليل تفصيلي لهذه المقولة ولكني ألح على أن السواديشي هي النظام الوحيد المنسجم مع قانون التواضع والحب. إنه من الصلف أن أفكر في خدمة جميع الهند في حين أنني لا أكاد أقدر على خدمة أسرتي أنا. وإنه لمن الأفضل أن أركز جهودي على أسرتي وأعد ذلك من خلالها خدمة لجميع الأمة واذا أردتم جميع الانسانية. هذا هو التواضع وهو الحب. سيدعم الدافع نوعية الهدف. يمكن أن أخدم أسرتي دون أخذ بالاعتبار المعاناة التي يمكن أن أسببها للآخرين كأن أقبل، مثلاً، وظيفة تمكنني من أسرق المال من الناس. اني أغني نفسي عندئذ وأؤمن كثيراً من المتطلبات غير المشروعة لأسرتي. أنا هنا لاأخدم الأسرة ولا الدولة. أو يمكن أن أتفهم أن الله منحني يدين وقدمين فقط لأعمل بها من أجل غذائي وغذاء أولئك المعتمدين عليّ. عندئذ سأبسّط حياتي فوراً وحياة كل من أستطيع الوصول إليهم. في هذه الحالة أكون قد خدمت الأسرة دون إلحاق أذى لأي شخص آخر. وعلى فرض أن كل واحد اتخذ هذا النمط من الحياة فسيكون لدينا فوراً دولة مثالية. لن يصل الجميع تلك الحالة في وقت واحد. ولكن الذين يدركون حقيقتها ويفرضونها على أنفسهم بالتدريب لابد أنهم سينضجون ويسّرعون مجيء ذاك اليوم السعيد. في نظام حياة كهذه، فيما يبدو أنني أخدم الهند بالانعزال عن أي بلد من البلاد

الأخرى لا أؤذي أي بلد. وطنيتي هي مانعة وجامعة في آن واحد فهي مانعة بمعنى أني بكل تواضع أوجه اهتمامي لأرض ميلادي ولكنها جامعة بمعنى أن خدمتي هي ليست من طبيعة تنافسية أو تنازعية. تقول القاعدة الشرعية اللاتينية (الرومانية) «انتفع بملكك بشكل لا يضر بأملاك غيرك». إنها ليست قاعدة شرعية فحسب بل هي نظام حياة عظيم. إنها مفتاح ممارسة الاهيمسا أو الحب. إنها لكم، ياحراس إيمان عظيم، أن تضعوا تقليداً وأن تروا في مواعظكم المقدسة بالعمل، بأن الوطنية المبنية على الكراهية تقتل والوطنية المبنية على الحب تهب الحياة.

## تعريف السواديشي

تعريفي للسواديشي معروف كل المعرفة. علي أن لا أخدم الجيران الأبعدين على حساب الأقربين. ليس انتقامياً ولا يستهدف العقاب. وليس ضيقاً في أي معنى من المعاني، لأني اشتري من أي مكان في العالم ما أحتاجه لنمائي، وأرفض شراء أي شيء من أي شخص مهما كان جميلاً أو لطيفاً إذا كان يتدخل في أمر نمائي أو يؤذي أولئك الذين جعلتهم الطبيعة رأس عنايتي، اشتري الأدب القيم من أي مكان في العالم، اشتري الأدوات الجراحية من انكلتره، الدبابيس وأقلام الرصاص من النمسا، والساعات من سويسرا. ولكنني لن اشتري شبراً من أفضل منسوجات القطن من انكلتره أو اليابان أو أي بلد آخر لأن ذلك سبب ولا يزال يسبب الأذى للملايين من سكان الهند. وأعد عدم شرائي الثياب المغزولة والمنسوجة بأيدي الملايين المحتاجين من مساكين الهند وشرائي الثياب الأجنبية، على الرغم من أنها قد تكون ذات نوعية تفوق ما ينتجه الغزل اليدوي الهندي، أعد ذلك خطيئة. لذلك فالسواديشي التي أعنيها تتركز بشكل رئيسي حول المغزل اليدوي (خادار) وتمتد الى كل شيء يمكن أن ينتج أو ينتج في الهند. قوميتي واسعة وسع السواديشي. أريد نهضة الهند كيما ينتفع العالم. لاأريد للهند أن تنهض على أطلال أمم أخرى. لذلك إذا كانت الهند قوية وقادرة، فستبعث للعالم بكنوزها الغنية وبهاراتها المفيدة للصحة، غير أني أرفض أن أصدر الأفيون أو الأشربة المسكرة على الرغم من أن الاتجار بها قد يجلب المنفعة المادية للهند.

**مهاتما غاندي**

# قَسَمُ السواديشي

السواديشي هي قانون القوانين الواجبة التطبيق في عصرنا الراهن، والقوانين الروحية، كالقوانين الطبيعية لا تحتاج الى إصدار فهي تلقائية. لكن الانسان يهملها إما جهلاً أو لأسباب أخرى، أو يعصيها. لذلك القسم مطلوب كيما يثبت خطا المرء. الانسان النباتي بطبعه لا يحتاج الى قسم ليقوي نباتيته. لأن منظر الغذاء الحيواني يدفعه للتقزز بدل أن يثير شهيته. قانون السواديشي أمر في طبيعة الانسان الأساسية لكنه غاص في النسيان في أيامنا هذه. من هنا جاءت ضرورة القسم في السواديشي. والسواديشي في معناها المطلق والروحي تهدف الى تحرير روح الانسان من عبوديتها الدنيوية. إذ أن هذا الوعاء الأرضي ليس مسكنها الطبيعي أو الدائم. إنه عائق في رحلتها، ويقف في طريق ادراكها لوحدتها مع الحيوات الأخرى. لذلك فمن كرس نفسه للسواديشي، في كفاحه من أجل اثبات وجوده مع الخليقة جمعاء انما يسعى وراء تحرره من عبودية الجسد.

اذا كان تفسير السواديشي هذا صحيحاً فذلك يستتبع أن من أول واجبات المكرس نفسه له أن يقف نفسه على خدمة جيرانه الأقربين. ذلك يتضمن تنحية أو تضحية بمصالح بقية الناس ما عدا تنحية التضحية فسيكون ذلك ظاهرياً فقط. فخدمة المرء الخالصة لجاره لايمكن أن تؤدي في طبيعتها الى الغاء خدمة البعيدين عنه وربما كان العكس. «كما تكون للفرد تكون للعالم» مبدأ لا يخيب ونفعل خيراً في حفظه في القلب. ومن جانب آخر فإن من يسمح لنفسه بأن تغويه «المناظر البعيدة» ويركض الى أطراف الأرض وراء الخدمة، ليس خائباً في مسعاه فحسب بل مقصر

في أداء واجباته تجاه جيرانه أيضاً. لنأخذ مثالاً ملموساً. حولي حيث أقيم أشخاص منهم الجار ومنهم من أعيل. وطبيعي أنهم جميعاً يشعرون، ولهم الحق، أن لهم ديناً عليّ وينتظرون مني العون والمدد. لنفرض الآن أنني أتركهم جميعاً فجأة وانطلق لخدمة الناس في مكان بعيد. سيؤدي قراري الى رمي عالمي الصغير من الجيران والأهل خارج دائرتي في حين تؤدي شهامتي الطوعية الى إقلاق جو المكان الجديد. وهكذا فما أستحقه من إنكار جيراني الأقربين لي، واساءة خدمة غير مقصودة سيكونان أولى ثمار خرقي لمبادىء السواديشي.

ليس من الصعب أن نكثر من مثل هذه الأمثلة. ولذلك تقول الغيتا «من الأفضل للمرء أن يموت مؤدياً واجبه أو (سوادهارما) لكن (بارادهارما) أو واجب الآخر محفوف بالخطر» وبتفسير الواجب على أنه المحيط المادي للمرء نكون قد حصلنا على قانون السواديشي. وما تقوله الغيتا عن سوادهارما يتطابق مع السواديشي أيضاً. لأن السواديشي هي سوادهارما تتطابق مع المحيط المباشر.

عندما يُساء فهم تعاليم السواديشي فقط تقع الكوارث مثال، إنه تزييف للسواديشي إذا ما قمت بجمع المال بكل الوسائل العادلة والغبية من أجل رفاهية أسرتي، إن قانون السواديشي لا يتطلب مني أكثر من أن أقوم بالتزاماتي المشروعة تجاه أسرتي بوسائل عادلة. ومحاولة القيام بذلك سيتكشف لي عن نظام السلوك الشامل. ممارسة السواديشي لا يمكن أن تؤذي أحداً وإن آذت فهي ليست سوادّهارما بل الأنانية التي تقودني.

قد تحدث مناسبات يدعى فيها المؤمن بالسواديشي الى التضحية بأسرته على مذبح الخدمة العامة الشاملة إن فعلاً كهذا الناتج عن تضحية طوعية سيتضمن أعلى خدمة ترد للأسرة. «من يرغب في الحفاظ على حياته يخسرها. ومن يخسر حياته في سبيل الله يجدها» بتحمل الخير لمجمل الأسرة ومثله للفرد. لنأخذ مثالاً آخر. لنفترض أن الطاعون حل في قريتي وفي محاولة خدمة ضحايا الوباء انمحيت أنا وزوجتي وأولادي وبقية أسرتي من الوجود، عندئذ لا أكون بترغيبي لأحبائي في الاشتراك معي مدمراً لأسرتي بل على العكس أكون صديقهم الصدوق.

لا محل للأنانية في السواديشي. وإذا كان فيها أنانية فهي من النوع الرفيع لا يختلف عن أرفع أشكال الغيرية. السواديشي في أنقى صورها هي ذروة الخدمة

العامة.

كان في اتباعي هذا الخط من المناقشة أن وقعت على الخادي (المغزل اليدوي) كنتيجة ضرورية وكبيرة الأهمية لمبدأ السواديشي في تطبيقها في المجتمع. سألت نفسي: «ما نوع الخدمة التي تحتاجها الملايين المجمعة في الهند أكثر من أي شيء آخر في الوقت الحاضر. خدمة تكون مفهومة بيسر ويقدر قيمتها الجميع. تكون سهلة التقديم وتمكّن عشرات الملايين من مواطنينا الجوعى من العيش. وكان الجواب هو تعميم الخادي أو دولاب الغزل فهو وحده تتوافر فيه كل الشروط.

لا يفترض أحد أن ممارسة السواديشي بواسطة الخادي ستؤذي أصحاب المصانع الأجانب. فاللص الذي يُقلع عن الشر أو يلزم برد الممتلكات التي سرقها لا يصيبه الأذى بذلك، بل على العكس فهو الرابح واعياً في الحالة الأولى وغير واع في الحالة الثانية. ومثل ذلك إذا حرر مدمنو الأفيون أو الخمرة أنفسهم من آثامهم فلا يقال إن أصحاب الحانات وباعة الأفيون سيكونون الخاسرين بخسارتهم زبائنهم. سيكونون الرابحين في أصدق معاني الكلمة، إن إزالة «عاقبة الخطيئة» لا يمكن أن يكون خسارة للفرد المعني ولا المجتمع انه ربح صاف.

من أكبر الأوهام أن نفترض أن واجب السواديشي يبدأ وينتهي في الغزل وارتداء الثياب التي يصنعها الخادي. الخادي هو الخطوة الأولى التي لايستغنى عنها نحو أداء السواديشي دهارما نحو المجتمع. يرى المرء كثيراً من لابسي الخادي إلا أنهم في الأشياء الأخرى يسايرون ذوقهم بالصناعات الأجنبية انتقاماً. لا يمكن أن يقال عن مثل هؤلاء الناس أنهم يمارسون السواديشي، انهم ببساطة يتبعون تقليداً. الواهب نفسه للسواديشي يدرس بيئته بعناية ويحاول أن يساعد جيرانه كلما أمكن بتفضيله الصناعات المحلية حتى ولو كانت من درجة أدنى أو أغلى ثمناً من أشياء صنعت في مكان آخر. سيحاول أن يكمل نواقصها ولكنه لا يتخلى عنها بسبب نواقصها ويأخذ الصناعات الأجنبية.

لكن حتى السواديشي كأي شيء آخر جيد يمكن أن تلقى حتفها إذا ما حولت وثناً. هذا خطر يجب أن نحتاط منه. أن ترفض الصناعات الأجنبية فقط لأنها أجنبية وأن تمضي في اضاعة الثروة والوقت القوميين في إقامة صناعات غير ملاءمة للبلد فهذا غباء اجرامي وسلب لروح السواديشي. الواهب نفسه حقاً للسواديشي لا يمكن أن ينوي الشر للأجانب ولا يمكن أن يتأثر بروح التنازع ضد

أي شخص على الأرض. السـواديشيـة ليست عصـابة الحقد. إنها تعاليم الخدمة الغير ية التي جذورها في أنقى (أهييمسا) مثال على ذلك الحب.

## التفاوت الاجتماعي

لم تتضمن الفـــارنـاشـرامـا، في رأيي، أي روح ضيقـة، بل على العكس، أعطت العـامـل الشـودرا المكـانـة نفسهـا التي للمفكر (البراهمي. المثقف من الطبقة العليـا) إنهـا تساعد على التأكيد على الفضيلة واستئصال الرذيلة. وتحول الطموح الانساني من الجو الدنيوي العام الى الجو الدائم والروحي إن هدف المفكر والعامل (الـبراهمي والشـودرا) مشـترك ـ موشكـا، أو تحقيق الـذات ـ لا تحقيق الشهرة والثروة والسلطـة. بعـد ذلك أنزل هذا المفهوم العالي للفارناشراما الى مكانة أدنى وأصبحت تعرف بشعائرية فارغة وافتراض التفوق عند البعض وفرض الضعة على الآخرين. هذا الإعتراف ليس اظهاراً لضعف الفارناشراما، بل ضعف الطبيعة البشرية التي إن كان تنزع في ظروف معينة الى الارتفاع الى أعلى درجة فإن لها الميل في ظروف معينـة للهبـوط الى الحضيض. إن ما يسعى إليه المصلح هو أن يضـع حداً لنظـام النبـذ ويعيـد للفـارنـاشـرامـا مكـانتها. هل الفارناشراما المتحولة الى هذا الشكل ستتغلب على الاصـلاح أم لا؟ أمـر نراه في المستقبـل. وهذا ما يعتمد بشكل أكيد على طبقـة المثقفـين (البراهمي) الجـديـدة الاخـذة في التشكل تدريجياً، خاصة، أولئـك الـذين وقفوا أنفسهم جسداً وروحاً وعقلاً، على خدمة الهندوسية والبلاد. إن لم يكن لهم طموح دنيوي أبداً كان ذلك خيراً للهندوسية أما إذا كانت الهندوسية كأي (يـّة) مذهب في متنـاول أصحـاب الطمـوح فستفنى. غير أن لدي إيماناً ثابتاً بقـدرة الهنـدوسيـة على تطهير نفسها من كل الشوائب بين وقت وآخر، ولا أظن أن هذه القدرة قد استنزفت الآن.

## عار الهندوسية الأكبر

النبذ (اللامس) كما يمارس في الحاضر يمثل وصمة عار كبرى على الهندوسية انها ضد الشاستراس، انها ضد المبادىء الانسانية الاساسية. إنها ضد ما يمليه العقل. كيف يعد ... سان، بسبب مولده فقط، الى الأبد منبوذاً لا يمس وحتى لا يقترب منه ولا يرى. هذه الصفات تحمل المعنى الكامل لهذا الأمر. وإنه لجريمة لبعض الرجال والنساء والأطفال أن يلمسوا أو يقتربوا الى مسافة محددة أو أن يظهروا فيراهم أولئك المدعوين بالهندوس. والمأساة أن ملايين من الهندوس يؤمنون بهذا النظام كما لو أنه فرض من فروض الدين الهندوسي.

وما يسعد، أن الاصلاحيين الهندوسيين تراجعوا مذعورين عن هذه الممارسة، وقد وصلوا الى نتيجة أنه ليس ما يدعم هذا النظام إذا ما أخذت الهندوشاستراس مبادىء الهندوسية ككل. نصوص معزولة مجتزأة عن سياقها اذا نظر فيها بحد ذاتها قادرة بلا شك على أن تشكل دعماً لهذه الممارسة كما دعم أي شر عرفته البشرية، لكن هناك سلطة كبيرة في الشاستراس لترخيص رفض هذه الممارسة واعتبار أي شيء، وكذلك أية ممارسة اذا تعارضت علناً مع مبادىء الانسانية الأساسية أو الأخلاقية أو الحب أمراً غير هندوسي.

## المنبوذية والنظام الطبقي

ليس اللامس (النبذ) هونتاج النظام الطبقي بل نتاج التمييز بين الأعلى والأدنى الذي زحف على الهندوسية والذي يعمل على تلاشيها. لذلك فالهجوم على اللامس هو هجـوم على الطبقيـة: وما. إن تزل فكـرة الـلامس حتى يطهـر النظـام الطبقي نفسه، هذا يعني، حسب ما أحلم أن هذا النظام سيحل نفسه في الفارناد. رما الحقة، الاقسام الأربعـة للمجتمـع كل قسم يكمـل الآخـر وليس فيه الدونيّ ولا المتفوق. كل منها ضروري لكامل كيان الهندوسية ضرورة الآخر.

## مهاتما غاندي

### الانسجام الاجتماعي

لم أفقد الأمل بأني سأعيش لأرى وحدة حقيقية تتأسس لا بين الهندوس والمسلمين فحسب بل تشمل جميع المجتمعات التي جعلت من الهند أمة. إن كنت أعرف السبيل الى تحقيقها اليوم، فإني أعرف أن عندي الارادة والقوة للحصول عليها مهما كانت صعبة أو شائكة. أعرف أيضاً أن أقصر السبل وأضمنها يمر عبر اللاعنف.

يقول لي بعض الأصدقاء المسلمين إن المسلمين لن يشاركوا في حركة اللاعنف المحض. في رأيهم العنف مشروع وضروري وكذلك اللاعنف. واللجوء الى أي منهما يعتمد على الظروف. ولا تحتاج المسألة الى سلطة قرآنية لإقرار مشروعية كل منهما. هذا هو الطريق المعروف جيداً والذي سلكه العالم خلال العصور. لا وجود لشيء مثل اللاعنف المحض في العالم. غير أني سمعت من أصدقاء مسلمين عديدين أن القرآن يدعو الى اللجوء الى اللاعنف

يعتبر القرآن الصبر يتفوق على الانتقام. إن كلمة الاسلام نفسها تعني السلام الذي هو اللاعنف. لقد جعل بادشاه خان، وهو صديق مسلم ممن لا يقصرون في أداء واجباتهم الدينية، من اللاعنف مذهبا له، وليس جواباً أن يقال إنه لا يعيش مذهبنا، فكما أعرف أنني للأسف لا أعيش المذهب. إذا كان هناك من خلاف في أعمالنا فإنه ليس خلافاً في النوع بل في الدرجة. لكن مسألة اللاعنف في القرآن الكريم مسألة توليدية ليست ضرورية لفرضيتي.

أرى أنه من أجل أن يلعب اللاعنف دوراً كاملاً يحتاج الى ايمان طرف واحد

ما يشابه ظروف الهند . ولا حتى روسيا المعزولة . لذلك ما يمكن أن يكون صحيحاً أوروبياً ليس بالضرورة صحيحاً هندياً .

نحن نعرف أيضاً أن لكل أمة خصائصها وفرادتها ، الهند لها خصائصها واذا كنا نريد أن توجد حلاً صحيحاً لأمراضها الكثيرة ، فعلينا أن نضع في الحسبان كل خصوصيات كيانها ، ومن ثم نصف الدواء . إني أدعي أن تصنيع الهند تماماً كأوروبا هو محاولة المستحيل . واجهت الهند كثيراً من العواصف . وقد خلفت كل واحدة منها آثاراً لا تمحي ، هذا صحيح ، ولكنها حافظت بشجاعة على فرادتها حتى اليوم . الهند واحدة من أمم الأرض القليلة التي شهدت انهيار كثير من الحضارات وبقيت هي صامدة . الهند واحدة من أمم الأرض القليلة التي حافظت على بعض مؤسساتها التليدة بالرغم من أنها مثقلة بالخرافات والأخطاء . لكنها حتى اليوم تظهر ايماناً بقدرتها على تطهير نفسها من الأخطاء والخرافات . وايماني بقدرتها على حل المشكلة الاقتصادية التي تواجه ملايينها ليس أكثر اشراقاً منه اليوم ، وخاصة بعد دراستي ظروف البنغال .

# حُلُمي

قبـل أن أعـرف أي شيء عن السياسة في شبابي المبكر، حلمت حلم وحدة القلوب الاجتماعية سأقفز كطفل، في مساء حياتي، كي أشعر أن الحلم قد تحقق في هذه الحيـاة. ستصحـو عنـدئـذ الأمنية في عيش الحياة من بدايتها الى نهايتها والتي رسمها عرافو الشيخوخة والتي تسمح لنا بالجلوس في سن المئة والخامسة والعشرين. من لا يخاطــر بالتضحيـة بحيـاتـه من أجـل تحقيق حلم كهـذا؟ عنـدئـذ سيكـون لنا سواراج حقيقي. عندئذ على الرغم من أننا جغرافياً وقانونياً قد نبقى دولتين فإنه في الحيـاة اليـوميـة لن يفكر أحد في أننا كنا دولتين منفصلتين. والمشهد الذي أمامي يبـدو لي، كما لابـد أنـه يبدولكم، أعظم من أن يكون حقيقة. ومع ذلك كطفل في لوحة شهيرة رسمها رسام شهير لن أسعد قبل أن يتحقق هذا الحلم. لا أعيش ولا أرغب في العيش لأقـل من هذا الهـدف! فليسـاعـدني السـاعون من باكستان على الاقـتراب من الهـدف الى أقـرب مدى انسـاني ممكن. الهدف الذي لن يعود هدفاً حين يوصل اليه. والمدخل الأقرب دائماً ممكن. ما قلته يحمل كثيراً من عدم الاهتمام فيـما إذا كان الآخـرون سيقـومـون بذلك أم لا؟ إن المجال متسع لكل فرد أن يطهر نفســه أو نفسهـا ليكـافأ بالجـدارة بالارض الموعودة. أذكر أنني قرأت، لاأدري إن كان ذلـك في قلعـة دلهي أو قلعـة أغـرا حين زرتهم في عام ١٨٩٦، شعـرا على إحـدى البـوابـات ترجمتـه: «إن كان ثمة جنة على الأرض فهي هنا، هي هنا، هي هنا» لم تكن تلك القلعـة، على كل أبهتهـا جنـة في رأيي. ولكني أحب أن أرى هذا الشعر منقـوشـاً بحق على كل بوابـات البـاكستان وعلى كل المداخل. في جنة كهذه سواء

به. وطبيعي لو امنّ به الطرفان وعاشا عليه، لما كان هناك حاجة لابرازه وإعلاء قيمته. العيش بسلام معاً هو أكثر الأمور طبيعية لكن لا طرف يدرك فضيلة ممارسة اللاعنف التي يتضمنها. ولسوء الحظ، وفي هذه اللحظة هؤلاء الهندوس الذين لا يعرفون استخدام العنف بالرغم من أنه موجود في قلوبهم، آسفون لعدم قدرتهم ويرغبون في تعلم خدعة - لا أقول فن - العنف من أجل أن يقدروا على مواجهة ما يصفونه بالعنف الاسلامي. واذا كان السلام يجب أن يتحقق بجهد الطرفين المتواجهين بشكل متساو والمتشاركين في العنف، الدفاعي منه والعدواني، فإني أعرف أن هذا السلام لن يحل في زمني، وإذا حل، فلن أهتم بأن أكون شاهداً عليه، سيكون سلاماً مسلحاً يمكن أن يخرق في أية لحظة، هكذا هو السلام في أوروبا. أو ليست الحرب القائمة كافية لتدفع المرء للتقزز من سلام كهذا؟

الأصدقاء المسلمون الذين يعلقون علي كبير الآمال ربما سيتعرفون على حزني بسبب عدم تحقق السلام بالرغم من كدي الذي ثابرت عليه ولا أزال. وعليهم أن يروا أيضاً أن عملي الأساسي ينصرف الى وعظ الهندوس على الأقل بأن يتعلموا فن اللاعنف. إلا اذا كنت قادراً على جلب المسلمين الى موقع (أخوان علي) وأنصارهم الذين اتخذوه أيام الخلافة، كانوا يرددون دائماً: «حتى لو قطعنا أخوتنا الهندوس ارباً فسنظل على حبنا لهم.. انهم جيراننا وأبناء عشيرتنا» والمرحوم مولانا عبد الباري كان دائماً يقول: «لن ينسى مسلمو الهند الدعم الكريم وغير المشروط الذي قدمه الهندوس في الأيام الحرجة من تاريخنا». أنا على يقين من أن هندوس هذه الأيام ومسلميها هم أنفسهم اليوم كما كانوا في الأمس، لكن الأزمان تغيرت وتغيرت معها أخلاقنا. ليس لدي ظل من شك في أن قلوبنا ستلتقي يوماً ما. ما يبدو مستحيلاً علينا اليوم سيجعله الله ممكناً غداً. ولأجل ذلك اليوم أعمل، أعيش وأصلي.

## مهاتما غاندي

### اقتصادنا

طبعاً، الصناعة مثل أية قوة من قوى الطبيعة، غير أنها وهبت للإنسان للسيطرة على الطبيعة وتحقيق الغلبة على قواها. تتطلب منه كرامته حلولاً لمواجهة المصاعب الغامرة. حياتنا اليومية فتح. لا يعرفه جيداً سوى زرّاع.

ما الصناعة سوى سيطرة الأقلية على الأغلبية؟ ليس فيها ما يثير وليس فيها ما هو حتمي. إذا قالت الأكثرية ببساطة «لا» لمداهنة الأقلية فإن الأخيرة عاجزة عن الأذى.

من الخير أن نؤمن بالطبيعة أنا أعيش لأن لدي هذا الايمان، لكن هذا الايمان لا يعميني عن حقائق التاريخ، فالأفراد والجماعات التي تدعى أمماً قد حل بهم الفناء، روما، اليونان، بابل، مصر، وغيرهم كثيرون يمثلون شاهداً يثبت حقيقة أن الأمم فنيت قبل اليوم بسبب سوء أفعالها. وما يمكن أن يؤمل هو أن أوروبا، على حساب ذكائها العلمي الدقيق. ستدرك المحتوم وتراجع خطاها، وتبحث عن طريقها خارج الصناعة المفسدة. لن يكون ذلك بالضرورة عودة الى البساطة القديمة المطلقة. بل يجب أن تكون إعادة تنظيم تسود فيه حياة القرية. وتخضع فيه القوة المادية القاسية للقوة الروحية.

أخيراً، يجب ألا نقع في مصيدة التشابه الجزئي الزائف. الكتاب الأوروبيون عاجزون بسبب افتقارهم الى التجربة والمعلومات الدقيقة. لا يستطيعون إرشادنا أكثر من مسافة محددة إذا أرادوا أن يطلقوا تعميمات من أمثلة أوروبية لا تتطابق كلية مع الظروف الهندية، لأنهم في أوروبا ليس لديهم

كانت في الاتحاد أو الباكستان، لن يكون هناك محتاجون ولا شحاذون. أعلون وأدنون، أصحاب عمل من ذوي الملايين. ولا موظفون نصف جائعين. ولن يكون فيها سكيرون أو مدمنو مخدرات. فيها سينال الاحترام نفسه النساء كما الرجال وعفة الرجال والنساء وطهارتهم مصونة بشكل يثير الغيرة حيث تعامل كل امرأة، ما عدا الزوجة، من الرجال من كل الأديان كأم وأخت وبنت حسب عمرها. حيث لن يكون لامسّ وتلقى الأديان كلها الاحترام ذاته. سيكونون فيها عمالاً فخورين فرحين ومتطوعين بالفطرة. آمل من كل واحد يسمعني أويقرأ هذه السطور أن يسامحني إذا تمددت على فراشي استمتع بالشمس أستنشق الحياة التي يمنحها ضوء الشمس لأني أبهج نفسي بالتمتع بهذا الجمال. ليكن هذا مؤكداً للشكاكين والمتشائمين أنني ليس لدي أدنى رغبة في أنه يجب أن ينتهي هذا الصيام بأقصى سرعة ممكنة. لايشكل كبير أهميته اذا لم تتحقق الأمنيات النشوى لاحمق مثلي أبداً. أنا راض بالانتظار ما دام الأمر ضروريا. إلا أنه يحزنني أن أفكر أن الشعب قد قام بعمله من أجل انقاذي فحسب. إني أعلن أن الله قد ألهم هذا الصيام وسيتوقف عندما يشاء الله. ولم تستطع قوة بشرية أبداً أن تخالف ارادة الله ولن تستطيع ذلك أبداً.

**مهاتما غاندي**

## لعنة التصنيع

أخشى أن التصنيع أخذ يكوّن لعنة للبشرية. استغلال أمة لأمة أخرى لا يمكن أن يستمر الى الأبد. والتصنيع يعتمد كلياً على قدرتك على الاستغلال، على أن تبقى الأسواق الأجنبية مفتوحة لك، وعلى غياب المنافسين. ولأن هذه العوامل آخذة في التضاؤ ل يوماً بعد يوم لانكلتره فإن أعداد العاطلين عن العمل فيها في تصاعد يومي. لم تكن المقاطعة الهندية سوى لسعة ذبابة. واذا كانت هذه حالة انكلتره فإن بلداً فسيحاً كالهند لا يمكن أن يتوقع نفعاً من التصنيع. في الواقع حين تبدأ الهند باستغلال الأمم الأخرى ـ كما يجب أن تفعل إذا أصبحت صناعية ـ فستصبح لعنة على الأمم الأخرى وخطراً على العالم. ولماذا علي أن أفكر في أن هنداً صناعيةً ستستغل الأمم الأخرى؟ ألا ترون مأساة الحالة، أعني، أننا نستطيع ايجاد عمل لثلاث مئة مليون عاطل عن العمل لدينا ولكن انكلتره لا تستطيع أيجاد أي عمل لثلاثة الملايين من العاطلين فيها وهي تواجه بمشكلة حيرت عباقرة الانكليز. إن مستقبل التصنيع مظلم. صار لانكلتره منافسون ناجحون في امريكا، اليابان، فرنسا، ألمانيا، إن لها منافسين في بضعة المصانع في الهند. وكما أن في الهند يقظة، فتحل اليقظة ولابد في جنوب أفريقيا بثرواتها الهائلة الغنى الطبيعية، والمعدنية والبشرية. المردة الانكليز يبدون أقزاماً أمام العروق الافريقية العملاقة. ستقولون، ليسوا سوى متوحشين نبلاء على كل حال. انهم حقاً نبلاء ولكن غير متوحشين ومع مرور سنين قليلة لن تعود الأمم الغربية تجد في افريقيا الأرض الغبية لحروبها. واذا كان التصنيع مظلماً في الغرب. ألا يمكن أن يكون أشد ظلاماً في الهند؟

## مهاتما غاندي

# لا حرب طبقات

بأسلوب اللا عنف لا نهدف الى تدمير الرأسماليين بل نهدف الى تدمير الرأسمالية. ندعو الرسمالي أن يعد نفسه أميناً على هؤلاء الذين يعتمد عليهم في تكوين رأسماله والمحافظة عليه وازدياده. لا حاجة لأن ينتظر العامل تحوله. إن كان الرأسمال قوة فالعمل كذلك. وكلا القوتين يمكن استخدامهما للتخريب أو البناء. كل منهما يعتمد على الآخر. وقريباً يدرك العامل قوته. هو في وضع يؤهله أن يكون شريكاً للرأسمالي عوضاً عن أن يبقى عبداً له وإذا أراد أن يكون المالك الوحيد، فإنه كمن يقتل الدجاجة التي تبيض الذهب. عدم المساواة في الذكاء وفي الفرصة سيدوم الى الأبد. الانسان العائش على ضفاف نهر لديه في كل يوم فرصة الحصول على محاصيل أكثر من ذلك الذي يعيش في صحراء قاحلة. وإذا كان عدم المساواة يحملق في وجوهنا فالمساواة الأساسية يجب ألا تفتقد. لكل انسان حق مساوٍ في ضروريات الحياة مثله مثل الطيور والوحوش. وطالما أن كل حق يحمل معه واجباً مقابلاً. والدواء الشافي لمقاومة أي تعدّ عليه هو في اكتشاف الواجبات المقابلة وعلاجاتها لنصون المساواة المبدئية الأسياسة. الواجب المقابل للعمل بأطرافي والعلاج الشافي هو في الاّ أتعاون مع هذا الذي يحرمني ثمرة عملي. واذا كنت اعترف بالمساواة الأساسية، كما يجب، للرأسمالي والعامل، فإني لا يجوز أن أهدف الى دماره. علي أن أناضل من أجل تحوله، إن عدم تعاوني معه سيفتح عينيه على الخطأ الذي يقع فيه. لا ضرورة من الخوف من أن يحل أحد محلي عندما لا أكون متعاوناً. لأني أتوقع أن أوثر في زملائي العمال في ألا يساعدوا صاحب العمل الجائر.

ولا شك في أن هذا النوع من التربية لجماهير العمال بطيء التأثير. ولكنه بما أنه مؤكد الفعالية فلا بد أن يكون الأسرع. لقد أصبح واضحاً كل الوضوح أن دمار رأس المال يعني حتماً بالنهاية دماراً للعامل وطالما أنه لا يوجد انسان شرير غير قابل للاصلاح، فكذلك لا يوجد الانسان الكامل الذي يتعهد مدمره، الذي يعتبره خطأ الشر كله.

## الاشتراكية

الاشـتراكيـة كلمة جميلة وعلى حد ما أعلم في الاشتراكية كل أفراد المجتمع متساوون لا أدنى فيهم ولا أعلى. في الجسد الواحد ليس الرأس عالياً لأنه في قمة الجسد ولا أخمص القدم واطئاً لأنه يلامس الأرض. فكما أن أعضاء الجسد الواحد متساوية كذلك أعضاء المجتمع في الاشتراكية.

في الاشـتراكيـة الأمـير والفـلاح، الغني والفقـير المـوظف وصاحب العمل جميعهم في مستوى واحد. وبالمصطلح الديني ليس في الاشتراكية ثنائية. إنها وحدة كلية. ولدى النظر الى المجتمع في كل انحاء العالم فلن نجد إلا الثنائية أو التعددية والـوحـدة تلفت النظـر بغيـابها. هذا سام وهذا وضيع، هذا هندوسي وهذا مسلم الثـالـث مسيحي الـرابـع بارسي الخامس سيخ والسادس يهودي. وحتى بين هؤلاء هناك تقسيمات تحتية. في مفهومي للوحدة هناك وحدة كاملة في تعددية الأغراض.

من أجل أن نبلغ حالة الاشتراكية يمكن ألا ننظر للأشياء فلسفياً ونقول لا حاجـة بنـا الى أن نقـوم بحـركة حتى يتحول الجميع الى الاشتراكية. بدون تغيير حيـاتنـا يمكننـا أن نستمـر في الخطـابـات وتشكيـل الأحـزاب وننقض على اللعبة انقضـاض الصقر اذا ما واجهتنا. هذا ليس اشتراكية. وكلما عاملناها كلعبة نحقق فيها الانتصار تناءت عنا.

تبـدأ الاشـتراكيـة بالتحـول الأول. اذا كان لديـك رقم واحـد تستطيع أن تضيف إليه أصفاراً فالصفر الأول سيجعل الرقم عشرة وكل إضافة جديدة تضاعف العدد السابق عشر مرات ترى لو كانت البداية صفراً. فبمعنى آخر لا وجود لأحد

يصنع البداية. فإن جمع الأصفار لن ينتج إلا صفراً. فالوقت والورق المصروف على كتابة الأصفار سيكون هدراً كبيراً.

هذه الاشتراكية صافية صفاء البلور، وهي لذلك تتطلب وسائل نقية لبلوغها. الوسائل المشوبة توصل الى غايات مشوبة، لذلك فالأمير والفلاح لن يتساويا بقطع رأس الأمير ولا يمكن لعملية القطع آن تساوي بين صاحب العمل والعامل. لا يبلغ المرء الحقيقة من خلال الكذب والسلوك الأمين هو وحده الذي يبلغ الحقيقة. أليس اللا عنف والحقيقة توأمين والجواب هو «لا» كبيرة. اللا عنف محتضن بالحقيقة والعكس صحيح. من هنا قيل انهما وجهان لقطعة العملة كلا الوجهين لا ينفصل أحدهما عن الآخر. أقرأ وجهي العملة تجدهما مختلفان في الكلمات، والقيمة هي نفسها وهذه الحالة المباركة لا يمكن بلوغها بدون صفاء كامل. أبعد الصفاء عن العقل أو الجسم تجد في نفسك الكذب والعنف.

لذلك لن يكون قادراً على بناء المجتمع الاشتراكي في الهند والعالم إلا الاشتراكيون المتمسكون بالحقيقة واللا عنف وذوو القلوب الصافية. وعلى حد علمي ليس في العالم بلد اشتراكي بكل معنى الكلمة. وبدون الوسائل التي وصفت سابقاً فإن مجتمعاً كهذا مستحيل.

## مهاتما غاندي

### الاشتراكية والساتياغراها[1]

يجب أن تتجسد الحقيقة والاهيمسا (الحب) في الاشتراكية. من أجل أن يتم ذلك على المؤمن بها أن يكون لديه إيمان حي بالله. التمسك الآلي بالحقيقة والأهيمزا يؤدي الى السقوط في اللحظة الحرجة. قبلاً قلت إن الحقيقة هي الله. والله هو قوة حية. وحياتنا من هذه القوة. تلك القوة تكمن فينا ولكنها ليست الحب. ومن ينكر وجود هذه القوة العظمى ينكر على نفسه فائدة تلك القوة التي لا تنضب ويبقى لذلك عاجزاً. إنه كسفينة بلا سكّان تلطمها الأمواج من هنا الى هناك ثم تختفي من دون أن تحقق أي تقدم. اشتراكية كهذه لن تقودهم الى أي مكان، فماذا يقال عن المجتمع الذي يعيشون فيه؟

اذا كانت الحالة على هذا يعني أنه لا اشتراكي مؤمن بالله؟ إن كان ثمة مؤمنون فلماذا لا يحققون تقدماً ملحوظاً؟ ولكن أيضاً كثير من الأشخاص من أهل الله عاشوا قبل الآن لماذا لم ينجحوا في تأسيس دولة اشتراكية؟

من الصعب كلية اسكات هذين الشكين، وإلا فمن الممكن القول إنه لم يظهر لأحد يؤمن بالاشتراكية أن هناك أية علاقة بين اشتراكيته وبين الايمان بالله، وبقدر مساو من الصحة القول أن المنبوذين كقاعدة لم يحببوا الجماهير بالاشتراكية.

ازدادت الخرافات في العالم رغم المنبوذين من الرجال والنساء. وفي الهندوسية نفسها فكرة اللامس، حتى وقت متأخر، تنوس بالشك.

الحقيقة أن القضية تبقى دائماً مسألة بحث دؤوب لمعرفة هذه القوة العظمى واحتمالاتها الخفية.

ودعـواي أنـه في متـابعـة هذا البحث يكمن اكتشـاف السـاتياغراها . وهي ليست ادعـاء، على كل حال، بأن كل قوانـين الساتياغراها قد بُسِطَتْ ووجدت. وأقــول دون خوف وبحـزم إن كل موضـوع جديـر يمكن الـوصـول اليـه بواسطـة السـاتيـاغراها إنها أعلى وسيلة والوسيلة التي لا يأتيها الباطل وهي القوة العظمى. لن تبلغ الاشـتراكيـة بوسيلة أخرى. الساتياغراها قادرة على تخليص المجتمع من كل الشرور سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

(١) ساتياغراها: العمل المبني على الحق والمحبة.

## مهاتما غاندي

### براهماتشاريا[1] واللاعنف

لكن ليس في خطة اللا عنف ما يدعى اجباراً. يجب أن يكون الاعتماد منصباً على القدرة على الوصول الى العقل والقلب ـ وربما القلب قبلاً.

يستتبع ذلك أنه يجب أن تكون قوة في كلمة ساتياغراها عامة ـ لا القوة التي يمنحها امتلاك أذرعة لا حدّ لطولها. بل القوة التي يُولدها صفاء الحياة والرقابة الحازمة والتطبيق المستمر. ذلك مستحيل بدون أخذ البراهماتشاريا بعين الاعتبار. يجب أن تكون ممتلئة وممكنة انسانياً. لا تعني البراهماتشاريا مجرد الضبط الجسدي للنفس. تعني أكثر. سيطرة كاملة على جميع الحواس. وهكذا تكون الفكرة غير النقية خرقاً للبراهماتشاريا؛ كذلك الغضب. كل قدرة تأتي من رعاية وسمو الحيوية المسؤولة عن خلق الحياة فإذا تجمعت الحيوية بدلاً من أن تتشتت فإنها تتحول الى طاقة خلاقة من أسمى طراز. هذه الحيوية باستمرار وحتى بلا وعي يشتتها الشر والأفكار المضطربة المشوشة المكروهة وما دام الفكر جذر كل القول والفعل فإن نوعية الأخير تستجيب للسابق. من هنا فالأفكار المنضبطة جيداً هي نفسها قوة عالية القدرة يمكن لها أن تكون فاعلة ذاتياً. يبدو لي هذا هو ما تعنيه صلاة القلب الصامتة. إن كان الانسان ساعياً الى صورة الله فما عليه إلا أن يريد شيئاً في المجال المحدود المتاح له فيكون. قوة كهذه مستحيلة على من يشتت طاقته بشكل طائش، مثله مثل بُخار في انبوب مثقوب لايقوى على دفع شيء. الفعل الجنسي الذي لايستهدف الانجاب مثال نموذجي كبير على التشتيت ولذلك خص بالادانة وذاك اختيار صحيح. والذي عليه أن ينظم جماهير البشرية الواسعة في عمل لايتسم

بالعنف، عليه أن يحاول الضبط الكامل الذي وصفته ويُتم تحقيقه.

مثـل هذا الضبـط لا يمكن تحقيقـه الا بارادة الله. هناك شعر في الجزء الثاني من الغيتا اذا ما نثرناه يعني: «تأثيرات الحس تبقى معلقة ما دام المرء صائماً أوما دام الحس جائعاً. لكن الشوق لا يهدأ الا حين يرى المرء الله وجهاً لوجه» هذا الضبط ليس ضبطـاً آليـاً ولا مؤقتـاً. إن حدث لايضبع. في هذه الحالة تكون القوة الحيوية مخزونة بشكل لايسمح بالنفاذ من المخارج التي لا تغذ.

لقـد قيـل أن براهماتشـاريـا كهـذه، إذا كان ممكنـاً بلوغهـا بشكـل ما موجـودة فقـط عنـد سكـان الكهـوف. يقـال إن الـبراهماتشـاري لايجـوز أن يرى امرأة وأكثر من ذلك لايجوز أن يمسها، وبلا شك فإن على البراهماتشاري ألا يفكر بالمرأة ولا يتحدث عنها ولا يراها أويلمسها بشبق، لكن هذا المنع الذي يجده المرء في الكتب المؤلفة عن البراهماتشاريا مذكور دون الاشارة ال الحالة المهمة. ولعل هذا الحذف يعني أن الانسان ليس قاضياً مهماً في مثل هذه المسائل ولذلك فإنه لايستطيع أن يقول متى يكون متأثراً بمثل هذه الاتصالات ومتى لا يكون. وزيارات كيوبيد دائـماً خفيـة. عدا عن أنها صعبة فالبراهماتشاريا تكون مؤداة بشكل صحيح عندما يكون الانسان مختلطا مع العالم بحرية ولا قيمة كبيرة لها إذا تحققت بالانقطاع عن العالم.

على كل حال. لقـد مارست الـبراهماتشـاريـا أكثـر من ثلاثـين سنة بنجاح مقبـول رغـم الحيـاة في وسـط الأنشطـة. بعـد القـرار باتخاذ البراهماتشاريا مذهباً في حياتي حدث تغير في ممارساتي الخارجية، إلا مع زوجتي، وأثناء عملي بين الهنود في جنـوب أفـريقيـا اختلطت بحـرية مع النساء، وكان نادراً أن وُجدت امرأة هندية في الـترانسفـال والناتال لا أعرفها. لقد كن أكثر من اخوات وبنات لي، لم استخلص الـبراهماتشـاريا من الكتب، لقد وضعت قواعدي الخاصة لأهتدي بها ويهتدي بها أولئـك الـذين بدعـوة مني شاركـوني في التجربة. لوأني لم أتبع الممنوعات التي سبق ذكرها لكنت قبلت بشكل أقل الأوصاف الموجودة حتى في الأدب الديني، عن المرأة كنبـع للشـر والاغـراء. ولعـلي اكتسبت هذا السلوك عن أمي. لم أنظر أبداً الى المرأة كمـوضـوع لارضاء الرغبة الجنسية بل بالاحترام الواجب عليّ تجاه أمي. الرجل هو المغـري والعـدواني. ليست لمسة المرأة هي التي تلوث الرجل، لكنه هوذاته دنس في مسهـا. لكن منـذ مدة قصـيرة تمكن مني الشـك حول طبيعـة الحدود التي يجب أن

يصعها البراهماتشاري أو البراهماتشارية على نفسه أو نفسها المتعلقة بالاتصال بالجنس الآخر. لقد وضعت حدوداً لم ترضني. كيف يجب أن تكون لا أدري. أنا أجرب. لم أزعم يوماً أني براهماتشاري كامل حسب تعريفي. لم أحز على تلك السيطرة على الأفكار التي احتاج اليها في بحثي في اللاعنف. إذا كان مفهومي عن اللاعنف قابلاً للعدوى ومعدياً يجب أن يكون لدي سيطرة أقوى على أفكاري. ربما هناك عيب ما اليه يعود سبب الاخفاق الظاهري في القيادة التي أشرت اليها في مستهل هذه المقالة.

إيماني باللاعنف يبقى على قوته كما كان، وأنا على يقين بأنه لا يحقق متطلباتنا في بلادنا بل إنه اذا ما أحسن تطبيقه سيمنع سفك الدماء الحاصل خارج الهند ويهدد بأن يغمر العالم الغربي.

الهامي محدود. لم يمنحني الله القدرة على هداية الناس الى سبيل اللاعنف. لكني تصورت أنه اختارني اداة له لتقديم اللا عنف للهند من أجل أن تواجه أمراضها الكثيرة. والتقدم الحاصل حتى الآن عظيم. لكن هناك الكثير مما يجب عمله.

(١) حياة الزهد والعفة.

## مهاتما غاندي

# ضبط النسل

لست بدون كثير من التردد والتهيب أدخل في هذا الموضوع، مسألة استخدام أساليب صناعية لضبط النسل التي أشار إليها من كتبوا لي منذ عودتي الى الهند. رغم أني أجبتهم شخصياً. لم أتعامل حتى الآن مع هذا الموضوع بصورة علنية. لقد شد هذا الموضوع انتباهي منذ خمس وثلاثين سنة، حينما كنت طالباً في انكلتره، لقد قام جدل حاد وحار بين صفائي (مؤمن بالصفاء) لايمكن أن يقر أي شيء سوى الوسائل الطبيعية وبين طبيب يدافع عن الوسائل الصناعية. وكان أن أصبحت في تلك الفترة المبكرة من حياتي، بعد أن كنت قابلاً لفترة قصيرة بالوسائل الصناعية، أصبحت بقناعة معارضاً لها. الاحظ الآن أن هذه الأساليب توصف في بعض الصحف الهندية بأسلوب مفتوح ومقزز تصدم حس الاحتشام عند الناس. وألاحظ أيضاً أن أحد الكتاب لم يتردد في ذكر اسمي كواحد من مؤيدي الأساليب الصناعية لضبط النسل. ولا أستطيع أن أتذكر مناسبة واحدة تحدثت أو كتبت فيها لصالح أساليب كهذه. رأيت أيضاً اسمين مشهورين قد استخدما في التأييد. أتردد في نشرهما دون الاشارة الى صاحبيهما.

لا يمكن أن يكون هناك رأيان حول ضرورة ضبط النسل. لكن الأسلوب الوحيد المتاح منذ عصور خلت هو ضبط النفس أو البراهماتشاريا إنه دواء متحكم ناجح عاد على من مارسوه بالخير. وسينال أهل الطب امتنان البشرية إذا ما استبدلوا نصائحهم بالوسائل الصناعية لضبط النسل بالبحث عن وسائل ضبط النفس. لم يقصد بالاتحاد اللذة بل انجاب ذرية. والاتحاد هو جريمة حين تغيب

رغبة الانجاب.

الاساليب الصناعية كوضع مكافأة للرذيلة. تجعل الرجال والنساء مهملين. إن الاحترام الذي تلقاه هذه الأساليب لابد أن تسرع في انحلال الكوابح التي فرضها الرأي العام على الفرد، تبني الأساليب الصناعية لابد أن ينتج عنه البلاهة والانهيار العصبي سيتبين أن الدواء أخطر من الداء. خطأ ولا أخلاقي العمل على تهرب المرء من نتائج أفعاله. وخير للشخص الذي يأكل كثيراً أن يتألم ويصوم , ومن الشر له أن يلبي شهوته للطعام ثم يلجأ نتيجة ذلك الى تناول الأدوية المهضمة. ومن الأسوأ على الفرد أن يرضي عواطفه الحيوانية ثم يتهرب من نتائج أفعاله. الطبيعة لاترحم وستحقق انتقاماً كاملاً لأي خرق من قوانينها. النتائج الاخلاقية يمكن أن تحصل بالكوابح الاخلاقية. وتبرير استخدام الأساليب الصناعية في أن ارضاء الشهوة ضرورة من ضروريات الحياةلا يوجد أكثر مغالطة منه. فليتقص أولئك الشغوفون برؤية النسل وقد تنظم الوسائل المشروعة التي نصح بها الأقدمون وليحاولوا أن يبحثوا عن سبل أحيائها. أمامهم عمل شاق وكبير. الزواج المبكر نبع ثر لزيادة السكان، أنماط الحياة الحاضرة لديها الكثير مما تفعله مع شر الانجاب الفوضوي. إذا استقصيت هذه الأسباب واستبعدت فإن المجتمع سيسمو أخلاقياً واذا أهملت من أولئك المتحمسين اللجوجين وأصبحت الأساليب الصناعية نظام اليوم فلن تكون نتيجة ذلك إلا الانحطاط الأخلاقي. المجتمع الذي أصابه الوهن لأسباب عديدة سيصبح أكثر وهناً بتبني الأساليب الصناعية. لذلك فأولئك الرجال الذين يدافعون بسعادة عن الأساليب الصناعية لا يمكن أن يفعلوا أفضل من دراسة الموضوع مجدداً. ليوقفوا نشاطهم المؤذي ويعملوا على اشاعة البراهماتشاريا بين المتزوجين وغير المتزوجين.. هذا هو الأسلوب النبيل والمستقيم الوحيد لضبط النسل.

## مهاتما غاندي

### الله خير

ليس بمعنى س هو خير . س حسن بالمقارنة . هو أفضل من الشر لكن الله هو الخير كله . لا شرّ فيه . خلق الله الانسان على صورته ، ولسوء الحظ فإن الانسان قولب صورته على مثاله هو. وهذا الغرور أغرق البشرية في بحر من الاضطراب . الله هو الكيميائي العليّ . في حضوره يتحول الحديد والشوائب الى ذهب خالص ومثل ذلك يتحول كل شر الى خير .

أكرر أن الله حي ولكن ليس مثلنا . مخلوقاته تعيش لتموت . لكن الله هو الحياة لذلك فالخير وكل ما يوحي به من معان . هو ليس صفة لاحقة . الخير هو الله . والخير الكامن كشيء منفصل عنه هو شيء بلا حياة ويتوقف وجوده على كونه سياسة دفع ، وهكذا كل الاخلاقيات . إذا كان لها أن تحيا فينا فيجب أن تعتبر وأن تُرعى حسب علاقتها بالله . نحن نحاول أن نصبح خيرين لأننا نرغب أن نصل الى الله وندركه . كل العقائد الجافة تتحول الى تراب لأنها خارج حدود الله بلا حياة . وحين تأتي من الله تأتي والحياة فيها وتصبح جزءاً منا وتسمو بنا .

ونحن نمنحه الحياة بتخيلاتنا الباطلة وعليه فإن تصور الله بلا خير معناه بلا حياة .

## مهاتما غاندي

### خطاب الى أمريكا

في رأيي أن المؤتمر الهندي لا يكتسب مكانته من الهند وحدها بل من العالم أجمع، الهند لوحدها قارة تقريباً وتضم خمس البشرية، وتمثل واحدة من أقدم حضارات العالم. لها التقاليد الموروثة من عشرات آلاف السنين، وبعضها لا يزال وكأنه لم يمس مما يثير دهشة الناس. لا شك في أن عوادي الدهر قد أثرت في نقاء هذه الحضارة كما فعلت بكثير من الحضارات الأخرى وكثير من المؤسسات.

ان كان للهند أن تستعيد مجد ماضيها التليد، فذلك يكون حين تنال حريتها، والسبب في أن هذا النضال قد شدّ انتباه العالم لا يكمن في حقيقة أننا نحن الهنود نناضل من أجل حريتنا بل بحقيقة أن الوسائل التي اعتمدناها للحصول على الحرية وسائل فريدة. وكما يطلعنا التاريخ مامن شعب وصلتنا أخباره اعتمد هذه الوسائل.

الوسائل المتبناة هي: لاعنف، ولاسفك دماء، ولادبلوماسية كالتي نعهدها اليوم. بل الحقيقة واللاعنف بكل بساطة وصفاء. ولا عجب أن يُفضي اهتمام العالم الموجه الى هذه المحاولة الى ثورة غير دموية وناجحة. قاتلت الأمم حتى الآن بأسلوب متوحش ونشدت الانتقام من أولئك الذين اعتبرتهم اعداءها.

إذا تفحصنا الأناشيد الوطنية للأمم العظيمة نجد أنها ملأى باللعنات على ما يدعى عدواً. ونرى أن هذه الأمم قد قطعت على نفسها عهداً بأن تدمر العدو، ولا تتردد في ذكر اسم الله وتطالب بالمعونة الالهية لتحقيق هذا التدمير. أما نحن في الهند فقد عكسنا العملية. نحن نشعر أن القانون المتحكم بالخليقة المتوحشة ليس

القانون الذي يجب أن يقود الجنس البشري. فهو قانون مخالف للكرامة الانسانية.

أنـا شخصيـاً أفضـل، إن لزم الأمـر، أن أنتظـر عصـوراً على أن أسعى للحصـول على الحـريـة لبلدي بوسـائل دموية. أحس في أعماق قلبي، بعد تجربة سيـاسيـة امتـدت مزاولتي لها مدة خمس وثـلاثـين سنـة أن العالم مريض حتى الموت بسفك الدماء.

العـالم يبحث عن مخرج، وأرضي غروري بأنـه ربـما كانت هذه فرصة أرض الهند العظيمة في أن تدل العالم المتلهف على الطريق.

لذلـك لا أتـردد في دعـوة كل الأمم العظيمة على الأرض الى تقديم تعاونها القلبي للهند في نضالها المجيد. وإنه لمشهد جدير بالرؤ ية تأمل وتثمين موقف أولئك الملايين من الناس الذين وقفوا أنفسهم على المعاناة دون أن يردوا الأذى بمثله من أجل أن يبرهنوا على كرامة الأمة وشرفها.

لقـد سميت هذا النـوع من المعـانـاة عملية تطهير للنفس وقناعتي أنه ما من انسان يخسر حريته إلا من خلال ضعفه، وأنا واع لدرجة الألم نقاط ضعفنا. تُمثل في الهنـد كل الـديـانات الرئيسية، وانها لمسألة مهينة أن أعترف بأننا بيت منقسم على نفســه وأننـا نحن الهنـدوس والمسلمـين معبؤ ون ضد بعضنا. وحقيقةً أشعر بمهانة أعمق أننـا الهنـدوس نعـد عدة ملايـين من أقـربـائنـا وأبنـاء عشيرتنا محتقرين غير جديرين بأن نلمسهم أعني بهم فئة المنبوذين.

ليس هنـاك نقـاط ضعـف صغيرة في أمة تناضل في سبيل الحرية. ستجدون ذلـك في هذا النضـال من خلال تطهـير النفس. ولقـد خصصنـا قسـماً كبـيراً من تقـاليـدنـا لازالة لعنة اللامس ولبلوغ الوحدة ما بين الطبقات المختلفة والمجتمعات الهندية التي تمثل مختلف الأديان.

وعلى الخط نفسه نسعى الى تخليص أرضنا من لعنة الخمر، وإنه لمسر لنا أن شرب الخمـر وتعـاطي المخـدرات مقصـور على عدد قليـل، بالمقـارنة، من الناس واغلبهم من عمال المصانع وأمثالهم.

من حسن الطالع أن الخمرة والمخدرات قد سلّم بأنها لعنة. ولا تعتبر مسألة تقليـد عنـد النسـاء والـرجـال أن يشـربـوا، أو يتنـاولوا المخدرات. وعلى كل فإننا نخوض نضالاً شاقاً في محاولة إزالة هذه الشرور من أوساطنا.

ومن دواعي الأسف، الأسف العميق أن أقـول إن حكـومتنـا الحـاليـة قد

جعلت من هذا الشر مصدر دخل كبير لها يبلغ المئتين وخمسين مليون روبية. غير أنني أشكر الله لكوني قادراً على القول بأن نساء الهند قد نهضن لهذه المسألة ومنازلتها بوسائل سلمية وذلك بدعوة أولئك الذين استسلموا لعادة الشراب بحرارة أن يقلعوا عنها وبحماسة مثيلة تعاملن مع باعة الخمور. مما خلق انطباعاً قوياً عند أولئك المدمنين لهاتين المادتين الشريرتين.

أود لو أمكنني أن أقول في هذه المسألة على الأقل أننا لقينا تعاوناً قلبياً من الحكام. أو أننا حصلنا على هذا التعاون دون أي تشريع، لكنت أجرؤ على القول أننا حققنا هذا الاصلاح ونفينا الخمور المسكرة والمخدرات من أرضنا العليلة.

هناك قوة لها تأثير بناء والتي حققتها بها الأمة خلال هذا النضال. وهي الرعاية العظيمة لملايين الجوعى المتناثرين في ٧٠,٠٠٠ قرية موزعة على مساحة ١,٩٠٠ ميل طولاً و١٥٠٠ ميل عرضاً. وأنها لظاهرة مؤلمة أن هؤلاء القرويين، بلا ذنب جنوه، يقضون ستة أشهر من السنة عاطلين عن العمل.

منذ زمن ليس بطويل كانت كل قرية مكتفية ذاتياً فيما يتعلق بحاجتين انسانيتين اساسيتين، الغذاء والكساء. ولسوء حظنا جاءت شركة الهند الشرقية وخربت هذه الصناعة الريفية المساعدة بأساليب أفضل ألا أصفها. وأصبح الملايين من الحائكين الذين اكتسبوا شهرة بأناملهم الرشيقة بانتاج أجمل الخيطان التي لم تستطع أن تجاريه حتى الآن آلة حديثة. هؤلاء الغزالون القرويون وجدوا أنفسهم ذات صباح وقد ضاعت مهنتهم النبيلة. ومنذ ذلك اليوم أصبحت الهند فقيرة بشكل كبير.

لا يهم ما يمكن أن يقال للضد، انها حقيقة تارخية فقبل قدوم شركة الهند الشرقية لم يكن هؤلاء القرويون عاطلين عن العمل ومن يرغب أن يرى يراهم اليوم عاطلين. وذلك لايقتضي جهداً كبيراً لمعرفة أن هؤلاء القرويين لابد أن يجوعوا إذا لم يستطيعوا العمل لمدة ستة أشهر في السنة.

فهل لي، اذن، باسم ملايين الجوعى أن أناشد الضمير العالمي أن يهب لانقاذ شعب يموت في سبيل حريته؟

**مهاتما غاندي**

## التسامح الديني

الحاجة الراهنة ليست الى دين واحد، بل الى احترام متبادل وتسامح بين المتدينين من كل الأديان. لا نريد أن نصل الى المستوى الواحد الميت لكن الوحدة في التنوع. وكل محاولة لاقتلاع جذور التقاليد، آثار التراث، والطقس وغير ذلك من الأشياء المحبطة، ليست آيلة الى الاخفاق فحسب بل هي تجديف. روح الأديان واحدة ولكنها تظهر على أشكال متعددة. آخرها سيصر على البقاء الى نهاية الزمان. والحكماء سيتجاهلون القشرة الخارجية ويرون الروح الواحدة الحية تحت القشور المتنوعة. والهندوس الذين يتوقعون أن الإسلام والمسيحية أو الزرادشتية يمكن أن تطرد خارج الهند يحلمون حلماً بليداً، كذلك اذا حلم المسلمون أن يجدوا الاسلام الذي يتخيلونه حاكماً للعالم. لكن إذا كان الايمان باله واحد وأن أنبياءه سلسلة لا تنتهي كافية للاسلام إذن فجميعنا مسلمون لكننا جميعاً أيضاً هندوس ومسيحيون. الحقيقة ليست ملكية خاصة لأي من الكتب المقدسة.

**مهاتما غاندي**

## تراث الهند الروحي

هنـد المستقبل القريب تمثل نموذج التسامح بين كل الأديان. تراثها الروحي بسيـط المعـايشـة وسامي التفكير. أنا أعد المسيحية الغربية كما تمارس عمليا نقيضا لمسيحية المسيح. لاأستطيع أن أتصور المسيح، إن عاش بجسده بيننا، يوافق على المؤسسـات المسيحيـة المعـاصـرة؛ العبـادة الشـائعـة أو الكهنوتية المعاصرة. لو أن المسيحيـين الهنـود ببسـاطـة يتمسكـون بموعظة الجبل التي لم يلقها المسيح لتلاميذه المسالمين فحسب بل لكل العالم الذي يئن، فإنهم لن يقادوا الى الخطأ وسيجدون أنه ما من دين زائف، وإذا ما قاموا بما يتطلبهم منهم ايمانهم وخافوا الله فلن يضطروا الى القلق من المؤسسات وأشكال العبادات وأشكال الكهنوت. كان للفريسين كل ذلـك لكن المسيـح لم يكن لديـه مثلهـا ذلـك لأنهم يستخـدمـون طقـوسهم للنفاق والســوء. إن التعـــاون ما بين قوى الله والــلا تعـاون مع قوى الشـر هما الشيئان المطلوبان من أجل حياة خيرة وصافية، سواء سميت هندوسية أو اسلامية، أو مسيحية.

## القانون والحياد الديني

الحياد الديني معناه أن الدولة لن يكون لها دين دولة ولا نظام أفضليات. لن يكون هناك لامنبوذية. اللا المنبوذ ستكون له الحقوق نفسها التي لغيره، ولكن البراهمي لن يلزم بلمس أي كان. سيكون حراً في أن لا يمس وأن يكون له بئره الخاص، معبده الخاص، ومدرسة خاصة وأي شيء آخر يمكن أن يوفره لنفسه، ما دام يستخدم هذه الأشياء من دون أن يسبب أذى لجيرانه، لكنه لن يكون قادراً، كما يفعل البعض الآن، على أن يعاقب اللامنبوذين لجرأتهم على السير في الشوارع العامة، واستخدامهم الآبار العامة. لن يكون في ظل السواراج مثل هذه الفضيحة حيث ينكر على اللامنبوذين دخول المعابد العامة في حين يسمح بذلك لكل الهندوس الآخرين. لن تحرم الفيداس والشاسترات الأخرى من سلطتها لكن لن يكون تفسيرها بيد أفراد بل سيعتمد على المحاكم القضائية ما دامت هذه الكتب الدينية تستخدم لضبط السلوك العام. ستكون الشكوك الوجدانية محترمة لكن لا على حساب الأخلاق العامة وحقوق الآخرين. وهؤلاء الذين لديهم شكوك استثنائية سيجدون أنفسهم يعانون عدم الراحة ويدفعون ثمن الترف. لن يتسامح القانون مع أي عجرفة أو تعالٍ يقوم به أي شخص أو طبقة باسم العادة أو الدين. غير أن كل ذلك هو حلمي.

## مهاتما غاندي

# جوهر الغيتا

يبدو لي أن هدف الغيتا هو عرض السبيل الأمثل لتحقيق ادراك الذات. هذا ما يرى بوضوح قليل أو كثير. وانتشر هنا وهناك في كتب الهندوس الدينية وظهر بأصفى لغة ممكنة في (الغيتا) ولو كان مغامراً بالتكرار.

. . . ١٤ ـ ذاك العلاج الفذ (الذي لا يضارع) هو الزهد في ثمار الفعل.

١٥ ـ ذلك هو المركز الذي تنسج حوله الغيتا. هذا الزهد هو الشمس المركزية، وما حولها من التقوى، والمعرفة وغير ذلك يدوّم كالكواكب الجسد أشبه بالسجن وحيثما يوجد الجسد يوجد الفعل. وليس من كائن ذي جسد معفياً من العمل. ومع ذلك فكل الأديان تعلن أنه يمكن للانسان، بمعاملته الجسد كمعبد لله أن يحصل على الحرية. كل فعل ملطخ مهما كان تافهاً. كيف يمكن أن يكون من الجسد معبد لله؟ وبعبارة أخرى كيف يمكن للمرء أن يتحرر من الفعل. مثال من لطخة الخطيئة؟ أجابت الغيتا على هذا السؤ ال بلغة حاسمة: «بالفعل الخالي من الشهوة بالتخلي عن ثمار الفعل؟ بوقف كل الفعاليات على الله مثال: بتسليم المرء نفسه له جسداً وروحاً».

١٦ ـ لكن الخلو من الرغبة أو التخلي لا يأتي من مجرد الحديث عنه. لا يمكن بلوغه بعمل عقلي بل يمكن بلوغه فقط بهياج القلب المستمر، المعرفة الصحيحة ضرورية لبلوغ التخلي. لدى المتعلمين من الناس معرفة من نوع ما. يمكنهم أن يتلوا كتب الفيدا من الذاكرة ومع ذلك يمكن أن يكونوا غائصين في ترفيه النفس. ومن أجل ألا تقع المعرفة في الفوضى فإن مؤلف الغيتا أصر على التقوى

مرافقة لها وأعطاها المكانة الأولى . المعرفة بدون تقوى ستصبح خائبة المسعى لذلك تقـول الغيتـا : «حـافظ على التقوى وستلي المعرفة» وتلك التقوى ليست مجرد عبادة شفوية، انها صراع مع الموت. هنا تقييم الغيتا لصفات الاتقياء شبيهٌ لصفات الحكماء.

١٧ ـ وهكذا فالتقى الذي تتطلبه الغيتا ليس اسرافاً في العاطفة. وطبيعي أنه ليس إيـمانـاً أعمى. آخـر ما تهتم به الغيتا هو الأمور الخارجية. وللتقي أن يستخدم المسابح اذا شاء أو علامات على الجبين. ويقدم النذور لكن كل هذه الأمور ليست امتحاناً لتقاه. التقي هو من لا يغار من أحد. من هو نبع رحمة من هو بلا أنانية من يعـامـل البـارد والحـار المعاملة ذاتها. والسعادة والحزن. من يسامح دائماً. الراضي دائماً. قراراته حاسمة. من وقف العقل والروح على الله. لا يسبب خوفاً أو ذعراً، الصـافي، الحـاذق في عمله ومـع ذلـك لا يتأثر به. الذي يتخلى عن الثمار الجيدة أو الـرديئـة. من يعـامـل الاصدقاء والأعداء المعاملة ذاتها. من لا يتأثر بالاحترام ولا الاحتقـار ولا ينفخـه المـديـح ولا يحزن إن ذكـره أحـد بسـوء. من يحب السكينـة والـوحـدة. ذو العقـل المنظم. تقى كهـذا منـاقض للوجود وفي الوقت نفسه شديد الارتباط به.

١٨ ـ وهكـذا نرى أنـه ليكـون الانسـان تقيـاً حقيقيـاً عليه أن يدرك نفسه. وليس ادراك النفس أمراً منفصلاً. روبية واحدة يمكن أن تشتر ي لنا سماً أو شراب عسل، لكن المعرفة والتقوى لا يمكنهما أن تشتر يا لنا لا الخلاص ولا العبودية، إنهما ليستـا وسيلتي تبـادل. انهـما الأمـران اللذان نرغب بهما. وبعبـارة أخرى إذا لم تكن الغـايـة والـوسيلة شخصيتـين فهـما أقـرب ما تكـونان الى ذلك. الوسائل في أعلى درجاتها هي الخلاص. وخلاص الغيتا هو السلام التام.

١٩ ـ لكن لكي تكون المعرفة والتقى حقيقين عليهما أن يصمدا أمام امتحان التخـلي عن ثمار الفعـل. معـرفـة الصواب والخطأ المجردة لاتؤ هل المرء للخلاص. وحسب الأفكار الشائعة الرجل المتعلم يمكن أن ينجح كبانديت (أستاذ أو صاحب سلطة في أمر ما). لا يحتاج أن يقدم أية خدمة. وسير ى في حمل لوتا (شيء خفيف) صغيرة أمراً يشبه العبودية. وحين يكون معيار المعرفة هدم القابلية للخدمة. فليس هناك من محل لعمل دنيوي كحمل لوتا.

٢٠ ـ أو خذ البهـاكتي. الفكـرة الشـائعـة عن البهـاكتي هي رقـة القلب،

والتسبيح وما شابه والأنفة من القيام بأي فعل ولو فعل الحب خشية أن ينقطع التسبيح ـ لذلك فالبهاكتا يترك المسبحة للأكل والشرب وما شابه ولا يتركها أبداً من أجل طحن القمح أو العناية بالمرضى.

٢١ ـ لكن الغيتا تقول: لا أحد يبلغ هدفه بدون فعل، حتى أناس مثل جاناكا توصل الى الخلاص من خلال العقل. واذا ما توقفت عن العمل كسلاً فإن العالم سيفنى، فما أشد ضرورة أن ينخرط الشعب بأسره بالفعل.

٢٢ ـ وفي حين أن لا خلاف على أن كل فعل يقيد، فإنه من جهة أخرى صحيح أيضاً أن كل الكائنات الحية عليها أن تقوم بعمل ما شاءت أم أبت، هنا كل الفاعلية عقلية كانت أم عضلية تدخل تحت اسم الفعل. إذن كيف يتحرر المرء من عبودية العقل بالرغم منه انه يقوم بالفعل؟ الاسلوب الذي حلت الغيتا به المسألة، حسب معرفتي، فريد. تقول الغيتا قم بحصتك من العمل لكن تخل عن نتيجته ـ تحرر واعمل ـ لا ترغب في جزاء واعمل».

هذه هي تعاليم الغيتا الصائبة، من يهجر العمل يسقط. من يتخل عن الجزاء ينهض. لكن التخلي عن ثمار العمل لا يعني مطلقاً عدم مبالاة بالنتيجة. وبالنسبة لكل عمل يجب على المرء أن يعرف النتيجة الناجمة عنه، والوسائل إليه، والقدرة عليه. ومن تسلح بكل ذلك، وكان بلا رغبة في النتيجة ومع ذلك ينهمك كلية في انجاز الواجب الذي أمامه، قيل عنه متخلٍ عن ثمار فعله.

٢٣ ـ مرة أخرى، لا يظنن أحد أن التخلي يعني حاجة المتخلي الى ثمار الفعل. قراءة الغيتا لا تؤكد مثل هذا المعنى التخلي يعني غياب التشهي بعد الاثمار. وفي واقع الأمر فمن يتخل يحصد ألف ضعف. إن التخلي في الغيتا هو الامتحان الحاد للايمان. من يطل التفكير في النتيجة يخسر أعصابه في قيامه بواجبه. ويصبح لجوجاً ومن ثم يصرف غضبه ويأخذ بعمل أشياء تافهة. يقفز من عمل الى عمل ولا يبقى أبداً مخلصاً لأي منها. إن من يتلهف على النتائج يكن مثل من سُلّم لتقوده الحواس؛ هو دائماً مشتت يقول وداعاً لكل الوساوس كل شيء صحيح في تقديره ولذلك يلجأ الى وسائل نظيفة وقذرة لبلوغ غايته.

٢٤ ـ من تجربته المرة في اشتهاء الثمر اكتشف مؤلف الغيتا طريق التخلي عن الثمر. وقدمه للعالم بأسلوب شديد الاقناع. الاعتقاد الشائع هو أن الدين دائماً معارض للخير المادي. «لا يستطيع المرء أن يتصرف دينياً في التجارة والمسائل

الأخرى المشابهة. لا مكان للدين في مثل هذه المهن؛ الدين لبلوغ الخلاص فقط». نسمع كثيراً من الناس ذوي الحكمة الأرضية يقولون: «في رأيي أن مؤلف الغيتا وقع في الوهم. لم يرسم أي خط فاصل ما بين الخلاص والمهن الدنيوية.» لقد شعرت أن الغيتا تعلمنا أن مالا يستطاع القيام به في ممارسة الحياة اليومية لا يمكن أن يدعي ديناً. وهكذا حسب الغيتا فإن كل الأفعال التي لا يمكن القيام بها بدون مودة هي محرمة. هذه القاعدة الذهبية تنجي البشرية من كثير من المخاطر. وحسب هذا التفسير، فالقتل والكذب والفسق وما شابهها يجب أن تعتبر أعمالاً خاطئة وهي لذلك محرمة. وحياة الانسان تصبح عندئذ بسيطة وينبع السلام من تلك البساطة.

٢٥ ـ وأنا أفكر عبر هذه السطور، شعرت أن في محاولة المرء تأكيد التعاليم المركزية للغيتا في حياته، عليه أن يتبع الحقيقة والاهيمزا. حين لا تكون هناك رغبة في الثمر فليس هناك ما يغري باللاحقيقة أو الهيمزا. خذ أي مثال عن اللاحقيقة أو العنف فستجد أن على ظهرها الرغبة في تحقيق غاية محببة. لكن يمكن الاعتراف بأن الغيتا لم تكتب لتؤسس أهيمزا. إن الاهيمزا واجب أولي ومقبول حتى قبل عصر الغيتا. وكان على الغيتا أن توصل رسالة التخلي عن الثمار. هذا ما سيتوضح في الفقرة التالية.

٢٦ ـ لكن اذا كانت الغيتا تؤمن بالأهيمزا أو أنها متضمنة عدم الرغبة، فلماذا شرح المؤلف ذلك بطريقة حربية؟ حين كتبت الغيتا بالرغم من ايمان الناس بالاهيمزا فإن الحروب لم تكن فقط غير محرمة، بل لم يلاحظ أحد التناقض بينها وبين الاهيمزا.

٢٧ ـ في تقييمنا تطبيقات التخلي عن الثمر ليس مطلوباً منا أن نسبر عقل مؤلف الغيتا للوصول الى تحديداته للأهيمزا أو ما شابه. لأن الشاعر يضع حقيقة معينة أمام العالم، ولا يستتبع ذلك بالضرورة أنه عرف وحقق في الواقع كل نتائجها العظيمة أو لأنه يفعل ذلك استطاع أن يعبر عنها تمام التعبير. في هذه ربما تكمن عظمة القصيدة والشاعر. معنى الشاعر لاحد له. معاني الكتابات العظيمة مثل الانسان تعاني التطور. عند تفحصنا لتاريخ اللغات نجد أن معاني المفردات الهامة قد تغيرت أو توسعت. وهذا يصح على الغيتا. المؤلف نفسه. وسّع معاني بعض الكلمات الدارجة، نستطيع أن نكتشف ذلك حتى بتفحص سطحي. من الممكن أنه، في العصر السابق للغيتا كان تقديم الحيوانات أضاحي أمراً مسموحاً به، لكن

لا وجـود لأثـر له في التضحيـة بالمعنى الذي تقصده الغيتا . في الغيتا التركيز المستمر على الله هو ملك التضحيـات . وبشكـل مشـابـه أخضـع معنى كلمـة سانيـاسـا للتحـول . سانيـاسـا الغيتـا لن تتسـامـح مع الانقطاع الكلي عن جميع الفعاليات ، سانيـاسـا الغيتـا كلهـا عمـل ومع ذلك لا عمل . وهكذا فإن مؤلف الغيتا بتوسيعه معـاني المفـردات يعلمنـا أن نقلده . لنسلم إذن بأنـه طبقـاً لحرفية الغيتا من الممكن القـول إن الحـرب متنـاسبة مع التخلي عن الثمار ، ولكن بعد أربعين سنة من الجهد المتـواصـل كليـة من أجـل تأكيـد تعـاليم الغيتا في حياتي الشخصية شعرت ، بكل اتضاع ، بأن التخلي الكامل مستحيل دون أخذ الأهيمزا بعين الاعتبار في كل شكل وصيغة .

# شري اوروبندو.



## شري اوروبندو

# كارما

يجد المرء في الكارما حقيقة لا تُرد ـ ليس بالضرورة في الصيغة التي وضعها بها القدماء، بل بفكرتها المركزية ـ تفجأ العقل وتأمر الفهم بالمصادقة عليها. ولا يجد العقل الصارم، المتشكك من الانطباعات الأولى والحلول الظاهرية، بعد التمحيص الدقيق أن الفهم اسطحي، حارس بوابة ذهننا، قد ضلل إذ سمح لضيف محتال، ومدع كاذب بالدخول إلى قصر معرفتنا. هناك للوهلة الأولى صلابة فلسفية وحقيقة عملية تدعم الفكرة، وأساس وطيد لأعمق الحقائق الشاملة التي لا تنكر في مواجهة ما يعاني منه دائماً العقل البشري في سبر مالا يسبر غوره؛ بهذه الطريقة فعلاً يتعامل معنا العالم، هنا قانون يفرض نفسه في مواجهة ما يتحطم عليه في النهاية جهلنا الأناني وإراداتنا الذاتية وعنفنا، كما قال الشاعر الاغريقي عن كبرياء الانسان المتغطرسة الزائدة، ضد قواعد عرش زيوس، وقدمي تيميس الرخاميتين، وصلابة أنانكي. هناك عامل خفي خالد، هو أساس الفعل غير المتبدل للآلهة العادلة والصادقة، ديفانام ـ دهروفا ـ فراتاني، في شريعة الكارما الصافية والقائمة بذاتها.

أُقرت حقيقة الكارما هذه في الشرق دائماً بشكل أو بآخر؛ لكن الفضل يعود للبوذيين الذين منحوها أجلى وأشمل وأكمل بيان وأبرز أهمية. وقد تكررت الفكرة أيضاً، في الغرب، لكن في لمحات خارجية متناثرة. مثل الاعتراف بالحقيقة العملية للتجربة، وغالباً على شكل قانون أخلاقي منظم أو قدر محتوم ضد قوة الانسان وارادته الذاتية: غير أنها ملفعة بضباب أفكار أخرى مناقضة لحكم أي

قانـــون، وافكـار غامضـة حول نزوة علويـة ما، أوغير الهيـة، ـ تلك كانت فكـرة الإغريق ـ قدر أعمى أوضرورة مبهمة، أو أنانكي، ومن ثم، الطرق التي تكتنفها الأسـرار لاستبـداد من خلال عنـايـة إلهيـة حكيمة ولاشك. وقد عنى كل ذلك أن هنـاك نظـرة خاطفـة مجتـزأة لقـوة فاعلة ما، لكن قانـون فعلهـا وطبيعة الشيء نفسها عصيّـان على الادراك، ـ كما أخفقت بحـدة، طالما أن عين الغرب العقلية المأخوذة بأهـواء الحيـاة، حاولت أن تقـرأ أعمال الكون في ضوء عقل الانسان المفرد وحياته؛ غير أن تلك الأعـمال شديـدة الاتساع، قديمة، مستمرة بشكل متواصل في الزمان ومنتشـرة كل الانتشـار في الفـراغ ـ لا في الـلاتنـاهي المـادي وحـده، بل في الـزمن والفـراغ السـرمـدي للاتنـاهي الـروح ـ ومـا كانت لتقرأ على بصيص متشظ كهذا. منذ أن أصبـح اسم قانـون الكارما والفكرة الشرقية عنها مألوفين لدى العقلية الحديثة، نال جانب واحد منها الاعتراف المتزايد، ربما لأن تلك العقلية في الأيام الأخيرة كانت مهيأة بالمكتشفـات الكـبر ى وتعميـمات العلم لرؤ يـة أشمل للوجود الكوني ولفكرة القـانـون الكـوني الأكثر تنظيماً ومهابة، يمكن كذلك أن نبدأ من الأساس المادي في الـدنـومن مسألـة الكـارمـا هذه، رغم أننـا قد نجـد أخيراً أنها من النهاية الأخرى للوجـود، ومن ذروتهـا الـروحية أكثر من دعامتها المادية، علينا أن ننظر من أجل أن نلتقط مغزاها الكامل ـ ولنثبت حدود أهميتها أيضاً.

معنى الكـارمـا، بشكـل أسـاسي، هو أن كل هذا الـوجـود من صنع طاقة كونية، عملية وفعلٌ، وبناء أشياء بهذا الفعل ـ وتدمير أيضاً، لكن كخطوة لبناء فيما بعد ـ كل ذلك سلسلة متصلة فيها كل حلقة مرتبطة ارتباطاً أزلياً باللاتناهي الماضي لحلقات لا تحصى. وكلها محكومة بعلاقات ثابتة، وبرباط ثابت بين سبب ونتيجة، الفعـل الحـاضـر الـذي هونتيجـة فعل ماض كما سيكون الفعل في المستقبل نتيجة لفعـل حاضـر. الكـل يسبب عمـل الطاقة والكل ينتج أيضاً عمل الطاقة. المغزى الأخـلاقي هو أن وجـودنا كله ناتج لطاقة موجودة فينا والتي بها صُنعنا وكما أن طبيعة الطاقة التي وضعت كسبب فكذلك ستكون الطاقة التي تتحول كنتيجة، ذاك يعني أن القانون الكوني ولا شيء في العالم، لكونه من عالمنا وفي عالمنا، يقدر أن يهرب من حدوثـه المهيمن. تلك هي حقيقـة نظـريـة الكارما وهي أيضاً طريقة رؤ ية تطورت بعلم مادي. إلا أنهـا رؤ يـــة معـوقـة في تضخم حقيقتهـا إلى أبعـد مدى بخطأين متـواصلين، الأول، المحـاولـة النشطـة الظـاهـرية التناقض ـ التي لا يمكن تجنبها

والمفيـدة، بلا شك، كتجـربة واحدة للعقل الانساني الذي يجب أن يأخذ فرصته، إلا أنـه مقـدر عليـه الاخفـاق - في تفسـير ما فوق المـادي بمعادلة (بصيغة) مادية، وخطأ قاتم ثان في أن نضـع، خلف حكم القـانـون الكـوني وكسبب له وفـاعليـة، الفكـرة النقيضـة لحكم الصـدفة الكوني. الفكرة القديمة عن نزوة علوية غامضة - طبيعي أن تكون غامضة مادامت هي من فعل قوة غير ذكية - هكذا أطالت حكمها وحصلت على التسليم بها جنباً إلى جنب مع الـرؤ يـة العلميـة للثوابت وتعاقبات الكون المتسلسلة.

الـوجـود بلا شك واحـد، والقـانون أيضاً يمكن أن يكون واحداً؛ لكن من الخطـر أن نثبت من البـدايـة على نمـط واحـد لظـاهرة، بإرادة مصممة سلفاً على الاستدلال منها على كل الظواهر الأخرى مهما اختلفت في أهميتها وطبيعتها. بهذه الطـريقـة نحن ملزمـون بتشـويـه الحقيقة داخل قالب اهوائنا الخاصة. علينا على الأقل، كواسطة، أن نتعرف على حقيقة الفيدا المنسجمة القديمة، - التي وصلت أيضـاً بهذه الطـريقـة في نهايتهـا، في «فيـدانتاها»، إلى مفهوم وحدة الوجود، - بأن هنـاك مستـويـات مختلفة للوجود الكوني ولذا أيضا مستويات لوجودنا نحن وفي كل منها يجب أن نعمل القدرات ذاتها أو الطاقات أو القوانين نفسها، بنمط مختلف وفي معنى مختلف وضـوء مختلف لتأثيراتهـا. أولاً، إذن، نرى إذا الكـارمـا هي الحقيقة الكـونيـة أم الحقيقة الكونية للوجود، ولابد أن تكون بالقدر نفسه إلى حقيقة العوالم العقليـة الـداخلية والخلقية لأفعالنا كما في علاقاتنا الظاهرية مع الكون المادي. أنها الطاقة العقلية التي نضعها في المقدمة التي تقرر النتيجة العقلية - لكن المشدودة إلى كل أوتـاد ظروف المـاضي، والحاضر، والمستقبل، لأننا لسنا قوى منعزلة في العالم، بل طاقتنـا أقـرب ما تكـون الى جهـد مسـاعـد وشعاع من الطاقة الكونية. الطاقة الخلقيـة لأفعـالنـا تقـرر بشكـل مشابه طبيعة النتائج وتأثيرها، لكن محكومة أيضاً - بالـرغم من أن الاخـلاقي الحـازم لا يولي اعتبـاراً كافياً لهذا العنصر - بالتأثير نفسه لماضي الظـروف المحيطـة وحـاضـرهـا ومستقبلهـا. ذاك أن هذه حقيقة الناتج عن الطاقة المادية، لا تحتاج إلى شرح أو دليل يجب أن نتعرف إلى هذه الأنماط المختلفة لحركات القوة الكونية الواحدة والمصوغة بشكل متنوع، ولا ينفع القول من البداية أن حجم الـوجـود الـداخـلي ونـوعيتـه هو نتيجـة ما لناتج الطاقة المادية مترجمة إلى طاقـات عقليـة وأخـلاقيـة - وعلى سبيـل المثـال أن فعلي الخير أو الشر أو خضوعي

لعواطف الخير أو الشر أو دوافعهما هو واقع تحت رحمة كبدي، أو أنه متضمن في بذرة ميلادي المادية، أو أنه نتيجة عناصري الكيميائية، أو أنه مقرر بشكل رئيسي وبشكل مطلق بنظام الالكترونات المكونة لدماغي وجهازي العصبي. كل ما يشد وجودي العقلي والاخلاقي يمكن أن يؤثر على الجسد من أجل طاقته المادية المساعدة ومهما يمكن أن يكون متأثراً بها يستعيره، ومع ذلك وهي حقيقة واقعة أنه يستخدمها لاغراض أخرى أكبر، فإن له نظاماً فوق مادي يطور دوافع ودلالات أكبر. الطاقة الاخلاقية بحد ذاتها قدرة متميزة ولها مستواها الخاص من الكارما، تدفعني، وهذا على نحو مميز، حتى إلى انهاك طبيعتي الحيوية والمادية. أشكال من القوة الكونية يمكن أن تكون الواحدة في القاع - أو في الذروة - إلا أنها في الممارسة طاقات مختلفة أو هكذا يجب التعامل معها - إلى أن نستطيع الوقوف على ماذا يمكن أن تكون تلك الطاقة الكونية في أعلى وأصفى تركيب لها وقدرتها الأولية وفيما إذا كان هذا الاكتشاف قادراً على توجيهنا في حيرة طبيعتنا في اتجاه موحد.

الصدفة، ذلك الظل الغامض للاحتمالية اللامتناهية، يجب أن تطرد من قاموس مدركاتنا؛ لأننا لا نستطيع أن نصنع شيئاً من الصدفة، لأنها لا شيء. الصدفة لاتوجد مطلقاً؛ انها مجرد كلمة نغطي بها جهلنا ونلتمس له بها العذر. العلم يقصيها عن العملية الفعلية للقانون المادي؛ كل شيء هناك مقرر بسبب وعلاقة محددين. لكن عندما يصل الأمر إلى السؤال لماذا توجد هذه العلاقات لا غيرها، لماذا سبب معين مقرون بنتيجة معينة، يجب أنه يجهل المادة جهلاً مطلقاً كل احتمال واقدر يفترض عدداً من الاحتمالات الأخرى التي لم تحدث في الواقع. لكن يمكن أن تكون امكانية من الناحية النظرية، وإنه مريح عندئذ القول إن الصدفة أو على الأكثر الامكانية المهيمنة هي التي تقرر كل حدث فعلي. صدفة النساء، عثرات تجميع الطاقة غير المدركة التي، بشكل ما، تكتشف بعض الأساليب الحسنة وتثبت نفسها في تكرار العملية. إذا كان عدم الادراك قادراً على القيام بعمل الذكاء، فلا يمكن أن تكون الصدفة العمياء خالقة عالم القانون! لكن ذلك ليس إلا قراءة جهلنا نحن لأحداث الكون - تماماً مثل المتنبيء الذي يقرأ في أعمال القانون المادي نزوات الآلهة أو أي اسم آخر على أنها صدفة لاهية سواء كانت غير الهية أو البست لبوس الأمجاد الالهية، سواء دعمت بمرونة للمصلين أو برشاوي الانسان، أو قدمت بوجه أبي الهول الحجري

الجامد. إلا أن الأسماء في الحقيقة ما هي إلا بسبب جهل الانسان

وحين نواجه الحاجات الملحة لوجودنا الاخلاقي والروحي خصوصاً، فما من نظرية حول الصدفة أو الاحتمال يمكن أن تفيد أبدا. هنا، لايساعد العلم، المادي في أسسه، إلا في الدلالة الى درجة محددة، على تأثيرات تكويني الجسدي على وجودي الاخلاقي أو تأثير فعلي الاخلاقي على مادة جسدي: لأنه بدون التوضيح والتوجه نحو الغرض المفيد يتعثر العلم في حمأة جهله، إنه يقدر له أن يفسر الزلازل والكسوف ويتنبأ بهما، لكنه لا يستطيع في صيرورتي الروحية والخلقية سوى محاولة، لشرح ظواهرها حين تحدث بفرض مصطلحات معقدة وقوانين علم الأمراض ذات الأسماء المتعددة المقاطع المخفية والمدهشة، من علم الوراثة المرضية، وعلم تحسين النسل وما شاكل ذلك من تلمس سائب ويلامس فقط أطراف الوجود النفسي - المادي - غير أني هنا احتاج الى إرشاد أكثر من أي مكان آخر ويجب أن أقر بقانون، هو أعلى مستوى في نظام الارشاد. إن معرفة قانون وجودي الروحي والأخلاقي هو أولاً وأخيراً أمر أكثر الحاحاً عندي من أن أتعلم أنظمة البخار والكهرباء، لأنني بدون هذه الامتيازات الخارجية، قادر على النماء في رجولتي الداخلية، لكن لست كذلك بدون فكرة ما عن القانون الروحي والأخلاقي. الفعل مطلوب مني وأنا بحاجة الى قاعدة لهذا الفعل: شيء ما يحثني داخلياً على أن أصبح ما لست عليه بعد، وأود أن أعرف ما هو الاسلوب وما القانون، ما القوة المركزية أو القوة المتصارعة الكثيرة وما ارتفاع مدى كمال صيرورتي وامكانيته، ذلك بالتأكيد هو السؤال الانساني الحقيقي أكثر من السؤال عن قواعد الاليكترون أو احتمالات مزيد من الآليات الفائقة القدرة أو المتفجرات الشديدة.

قانون الكرما العقلي والاخلاقي عند البوذيين يأتي في تلك النقطة الصعبة بمفتاح (للغز) وبمنفذ. فكما أن العلم يملأ أذهاننا بفكرة سيطرة القانون الشاملة في العالم المادي والخارجي وفي علاقاتنا مع الطبيعة، بالرغم من أنه يخلف وراءه كثيراً من التساؤلات المفتقرة إلى جواب، لا أدريّة، وفراغ لمطلق مبهم، - هنا يغطى بمفهوم الصدفة - فإنه المفهوم البوذي أيضاً يملأ فراغات وجودنا العقلي والاخلاقي بالمعنى ذاته الذي هو سيطرة قانون عملي وأخلاقي: غير أن هذا يخلف وراء هذا القانون كثيراً من التساؤلات المفتقرة إلى جواب، ولا أدريّة وفراغ لمطلق

مبهم. غير أن الكلمة التي تُستخدم غطاء هنا هي أكثر دقة؛ إنها سرّ النيرفانا. يظهر هذا المطلق بكلا الحالتين في هيئة الذهن الملحاح والايجابي كلا واعٍ ـ لكنه مادي في الأول، وفي الآخر صفر روحي مطلق، ـ غير أن المفكرين الأكثر حصافة ومرونة يصفونها بأنها غير قابلة للمعرفة. والاختلاف هو أن غير المعروف في العلم شيء آلي نعود إليه بشكل آلي بفناء مادي أو «لايا»، لكن غير المعروف في البوذية هو دائم خلف القانون الذي تعود إليه روحياً بالجهد في كبح النفس ونكران الذات، وفي خاتمة المطاف، فناء الذات بذوبان عقلي للفكرة التي تحافظ على قانون العلاقات وذوبان أخلاقي لعالم الرغبة الذي يُبقي على مجرى تتابعات الفعل الكوني. هذه احدى الغيبيات الصارمة والنادرة؛ لكن لجلالها المثبط نحن مجبرون بأية حال على المصادقة عليها، لأنها ليست بديهية ولا يمكن تجنبها. إنها على أية حال أكيدة ذلك أن انكاراً روحياً لماهيّتي هو السبيل الممكن والوحيد للكمال، وإثبات روحي ومطلق لماهيّتي يمكن أن يكون أيضاً سبيلاً عملياً وبوابة عمليين. هذه الفكرة الفارغة النبيلة البرودة أو المبهجة، عن النيرفانا، ولأنها انكار مفرط، لا يمكنها في النهاية أن ترضي الروح الانسانية، المشدودة بإلحاح إلى أعلى إثبات ايجابي لذاتها، وتستخدم الانكار أثناء ذلك، لتخليص نفسها مما يشوبها ويشكل عثرة في وجه اكتشاف الذات. مع «لا» الأبدية يمكن للكائن الحي أن يكيف نفسه بالجهد، ارتداد مؤسف أورائع على النفس والوجود، غير أن «نعم» الأبدية هي جاذبيتها الطبيعية: إنها توجهنا الروحي. المغناطيسية التي تشد الروح إنما هي إلى الوجود الأزلي لا إلى اللاوجود الأزلي.

ومع ذلك هناك مفاتيح معينة ضرورية في نظرية الكارما، فأولاً، هناك ذلك التأكيد. تلك الأرض الصلبة التي أستطيع أن أخطو عليها بثبات، ذلك أنه في العالم الأخلاقي والعقلي كما في الكون المادي ليس من عماء (فوضى) ولا قاعدة اتفاقية للمصادفة أو الاحتمالية المجردة، بل هناك طاقة منظمة على رأس عملها تؤكد ارادتها بالقانون والعلاقات المحددة والتتابع الثابت وبروابط السبب والفاعلية الممكن التحقق منها. والتيقن من أن هناك قانوناً عقلياً عاماً شاملاً وقانوناً أخلاقياً عاماً شاملاً ربح عظيم وأساس داعم. ذلك أن في العالم العقلي والأخلاقي كما في العالم المادي مازرعته في التربة الملائمة فسأحصده بكل تأكيد، وذلك ضمانة من الهيمنة الالهية، والتوازن، ونظام الكون؛ وهو لا يبني الحياة على أساس صلب من

القـانـون فقـط، بل يفتـح، بإزالـة الفوضى، الطريق نحوحرية أكبر. لكن هناك احتـمال أنـه إذا كانت هذه الطـاقـة هي كل شيء. يمكن أن أكون فقط مخلوق قوة قاهرة وكل أفعالي وما أصير إليه ما هي إلا سلسلة تصميم ليس لي عليها بحكم ولا فرصة سيادة. تلك النظرة يمكن أن تحل كل شيء في قدرية الكارما، والنتيجة قد ترضي عقلي ألا يمكن أن تكون مدمرة لعظمة روحي. سأصبح عبداً للكارما ودمية وليس لي أن أحلم أبـداً أن أكـون سيـد نفسي ووجـودي، لكن هنا يأتي في الخطوة الثانية في نظرية الكارما، تلك أن «الفكرة» هي التي تخلق كل العلاقات. كل شيء هو تعبير عن الفكـرة وامتـداد لها. عنـدئـذ أستطيـع، بالارادة وطـاقـة الفكـرة فيّ، أن أطور الصيغة التي أنا عليها وأصل إلى انسجام مع فكرة أعظم من التي عُبرّ عنها في قالبي وتـوازني الـراهـنـين. أستطيـع أن أتطلع الى امتـداد أنبل. ويظل الأمر، إذا كانت الفكرة شيئاً بحد ذاتها، دون أي أساس غير قدراتها العفوية، لا أحد ينشئها، ولا عارف بها، ولا سيّـد لها، فيمكن أن أكـون مجر شكـل من أشكـال الفكرة الكونية، وأن نفسي وروحي قد لا يكون لهما وجود أو مبادرة مستقلين. لكن هناك أيضاً هذه الخطـوة الثـالثـة وهي أني روح تتطور وتغذ السير في دروب طاقة كونية وأن فيّ نفسي بذرة كل خَلْقي. ما أصبحت عليـه، صنعت نفسي بروح فكـرة ماضيـة وفعلهـا، كارماها الداخلية والخارجية؛ ماذا أرغب أن أكون، يمكنني أن أصنع نفسي بفكرة حاضرة أو مستقبلية وفعلها، وأخيراً هناك الخطوة العلوية الأخيرة المحررة وهي أن كلا من الفكـرة وكـارمـا يمكن لهما أن تجدا أصلهـما في الـروح الحرة وبالوصول إلى نفسي بالتجـربـة واكتشـاف الـذات أستطيـع أن أنزه نفسي عن أية عبودية للكارما وأحقق الحـريـة الـروحيـة. تلك هي الأعمدة الأربعة لكامل نظرية الكارما. وهي كذلك الحقائق الأربعة لتعامل النفس مع الطبيعة.

## شري اوروبندو

# جوهر البهغفات غيتا[1]

نعرف المعلم الالهي، ونرى التلميذ الانسان؛ ويبقى أن نكوّن مفهوماً واضحاً عن العقيدة. مفهوم واضح مثبت على الفكرة الرئيسية، وقلب التعليم المركزي أمر ضروري، بشكل خاص، هنا لأن الغيتا بفكرها الغني المتعدد الجوانب، وسيطرتها التركيبية على مظاهر الحياة الروحية المختلفة والفكرة اللولبية الطلقة لحجتها تسلم نفسها، حتى أكثر من الكتب الأخرى، إلى تحريفات ناشئة عن عقلية متعصبة. إن اللا الواعي أو نصف الواعي للحقيقة والكلمة والفكرة لتلائم فكرة مسبقة أو عقيدة أو مبدأ مفضلة لدى امرىء ما، أمر عرفه المناطقة الهنود كواحد من أكثر المنابع إفادة للمغالطة؛ ولعل تجنبه من أصعب الأمور حتى على المفكر النابه الوعي. لأن العقل الانساني عاجز عن اللعب دائماً دور المحقق على نفسه هذا الصدد؛ وطبيعي جداً أن يتمسك بنتيجة متحيزة ما، أو فكرة أو مبدأ ويصبح مشايعاً لها ويجعلها مفتاح الحقيقة كلها، كما أن له قدرة على مراوغة النفس لامتناهية كي يتجنب في نشاطاته متابعة ذلك الضعف الضروري والأثير. تسلم الغيتا نفسها بسهولة لمثل هذا النوع من الخطأ، لأنه من السهل، بإضفاء بعض التوكيد على واحد من جوانبها أو حتى على نص منها بارز ورائع، واغفال بقية الفصول الثمانية عشرة في الظل أو جعلها ارشادات مساعدة وثانوية، لتحويلها الى مشايع لعقيدتنا أو تعاليمنا.

من ثمّ. هناك من يجعلون الغيتا تعلم فقط، ولا تعمل أبداً ـ، نظام التحضير للتخلي عن الحياة والعمل؛ القيام اللامبالي بأعمال مطلوبة أو أي واجب

آخـر أمـر متيسّـر، ويصبح الوسيلة، والنظام: التخلي النهائي عن الحياة والعمل هو الهـدف الحقيقي الـوحيـد. من السهـل جداً تسـويغ هذه النظرة باستشهادات من الكتـاب وتـرتيب التـوكيـد في متـابعة حجتها، خاصة إذا أغلقنا أعيننا عن الطريقة الخـاصـة التي تستخـدم بها كلمـة مثـل «سـانيـاسـا» (الـزهـد) غير أنـه مستحيل تماماً أن نثابر على هذه النظرة بقراءة نزيهة على ضوء التأكيد المستمر وحتى النهاية أن الفعـل مفضــل على عدم الفعـل وهـذا التفـوق يكمن في تخلي الـرغبـة الحقيقي والداخلي بالمساواة والتخلي عن الأعمال للبوروشا الأسمى (الله).

آخـرون، أيضـاً، يتحدثون عن الغيتا وكأن مذهب التقوى هو كل تعاليمها مغفلين عنـاصـرهـا الواحدانية والمكانة العليا التي توليها الاستغراق الصوفي في الذات الكليـة. وبـلاشـك فإن تأكيـدهـا على التقوى واصرارها على مظهر الإلهي كربّ و«بوروشا» وتعاليمها حول «البوروشوتاما» الكائن الأعلى الذي يسمو على كل من الكائن المتحول والكائن الثابت والذي بعلاقته بالعالم نعرفه بأنه الله، كل ذلك أكثر العناصر المدهشة ومن بين أكثر عناصر الغيتا حيوية. ومع ذلك، فإن هذا الرب هو النفس التي فيهـا تبلغ المعـرفـة كلهـا ذروتهـا وهـو سيد التضحية التي تؤول إليه كل الأعمال كما أنه هو رب الحب الذي في كيانه يدخل قلب التقوى، وتحافظ الغيتا على توازن مسـاوٍ تمامـاً، مؤكـدة حينـاً على المعـرفـة، وحينـاً على العمل. وحيناً على التقوى لكن من أجل أغراض النزوع المباشر للفكر، دون أي تفضيل مطلق لواحد على الآخر. من اجتمعت فيه الثلاثة معاً وأصبحت واحدة، فهو الكائن الأسمى، «البوروشوتاما».

لكن في اليوم الحاضر، مادام الذهن المعاصر قد أخذ يعترف بالغيتا ويتعامل معها، فإن الميل إلى إخضاع عناصرها حول المعرفة والتقوى، لاستغلال إصرارها على الفعـل واعتبـارهـا كتـاب الكارمايوغا، والنور الذي يقودنا على طريق العمل وانجيـل العمـل. ومـا من شك في أن الغيتا هي إنجيل العمل، لكن العمل الذي يبلغ الذروة في المعرفة، التي في التجلي الروحي والسكينة، والعمل المدفوع بالتقوى، التي هي تسليم المـرء نفسـه تسليـماً واعياً أولاً إلى يدي الكائن الأسمى ومن ثم إليه نفسـه، وليس أبـداً من الأعـمال كما يفهمها الذهن المعاصر، ليست أبداً فعلاً تمليه الأنانية أو الايثار، والدوافع والمبادىء والمثل الشخصية، أو الاجتماعية أو الانسانية. ومـع ذلـك هذا ما تسعى أن تصنعـه من الغيتـا الشـروحـات الحـالية لها. يقال لنا

باستمـرار بأصـوات مسؤولـة، إن الغيتا، معارضةً في ذلك الميل المألوف نحو الزهد والتسليم في الفكر والروحية الهنديين، تعلن بصوت متيقن انجيل الفعل الانساني، ومَثَلَ الأداء الحيادي للواجبات الاجتماعية، لا بل، قد يبدو، المثل الأعلى للخدمة الاجتماعية المعاصر. ورداً على كل هذا أستطيع القول إنه من الواضح بل حتى من النظرة الأولى أن الغيتا لا تفعل شيئاً من هذا القبيل وأن ذلك ليس إلا قراءة مغلوطة معاصرة، قراءة عقل معاصر في كتاب قديم، قراءة ذهن أوروبي اليوم أو المتأورب (المتأثر بأوروبا) للتعاليم الهندية الشرقية السمات حتى الصميم والعتيقة. ذلك أن ما تعـظ به الغيتـا ليس الفعـل الانسـاني بل الفعـل الالهي، لا أداء الـواجبـات الاجتـماعيـة، بل هجـر كل معـاييـر السلوك أو الواجب لصالح الأداء غير المغرض للارادة الالهيـة المؤثـرة في طبيعتنـا؛ لا خدمة اجتماعية بل عمل الأفاضل المأخوذين بالله، السادة المنجز لصالح العالم وتضحية منهم له ذاك الذي يقف خلف الانسان والطبيعة.

وبعبـارة أخـرى، ليست الغيتـا كتاب إرشادات دينية عملياً بل كتاب الحياة الـروحيـة. العقـل المعـاصـر هو الآن فقط العقل الأوروبي، الذي هجر لا المثالية الفلسفيـة للثقـافـة الإغـريقيـة ـ الـرومـانية التي بدأ منها فحسب، بل أيضاً تقوى المسيحيـة في العصـور الـوسطى وقـد أحـل مكـانهـما أو حـولهـما إلى مثـاليـة عمليـة واجتـماعيـة، إلى وقف (تكـريس) وطني وغـيري. لقـد تخلص من الله أو أبقـاه لأغراض يوم الأحد، ونصب مكانه الانسان معبوداً له والمجتمع صنماً. وفي أحسن حالاته هو عملي، ديني ارشادي، اجتماعي، ذرائعي، غيريّ، وانساني. الآن كل هذه الأمـور حسنـة، ويفتقـر إليهـا في الوقت الحاضر، وهي جزء من الارادة الالهية وإلا لما أصبحت شديدة التأثير في الانسانية. وليس هناك من سبب يمنع الانسان الالهي، الانسـان الـذي يعيش بالـوعي البراهماني في الوجود الالهي، من أن يتمتع بكـل هذه الصفـات في عمله؛ سيصبـح، إذا كانت هذه المثـل العليـا، السائدة، يوغادارها، وليس بعد من مثل أعلى يؤسس، ولا تغيير جذري يؤثر به. لأنه، كما يشـير المعلم على تلميـذه، الأفضـل الذي يكون قدوة للآخرين؛ وفي الواقع فإنه يُنادي على أرجونا[٢] ليعيش حسب مثـل عصـره العليا والثقافة السائدة، لكن مع المعرفة والفهم المنطوي عليه، وليس كالناس العاديين، في اتباع القانون والقواعد الخارجية.

لكن الأمر هنا هو أن العقل المعاصر قد نفى من قوة دفعة العملية شيئين أساسيين، الله أو الأزلي والروحي أو الحالة الالهية، اللذين هما المفهومان الأساسيان في الغيتا. إن العقل المعاصر يعيش في الانسانية فقط وتريد من الغيتا أن تعيش في الله ولأن العالم في الله، في حياته وقلبه وعقله فقط، فالغيتا تريد منا أن نعيش أيضاً في في الوجود الثابت الذي هو «الخليقة كلها» والغيتا تريد منا أن نعيش أيضاً في المتحول والعلوي؛ في مسيرة الزمن المتغيرة، والغيتا تريد منا أن نعيش في الأزلي. أو إذا كانت هذه الأشياء العليا قد بدأت الآن تصبح مُتخيَّلة بشكل غامض، فإن ذلك من أجل جعلها مُسَخّرةً للانسان والمجتمع؛ غير أن الله والروحانية قائمان بذاتهما وليسا معاونين لبعضهما. وفي الواقع العملي فإن الأدنى فينا يجب أن يتعلم أن يوجد من أجل الأعلى، من أجل أن يوجد الأعلى أيضاً من أجل الأدنى ليرفعه إلى مرتبته.

لذلك فمن الخطأ تفسير الغيتا من وجهة نظر عقلية اليوم وقسرها على تعليمنا أن التأدية غير المصلحية للواجب هي القانون الأسمى والأوفى. وقليل من الدرس للحالة التي تتعامل معها الغيتا سيرينا أن ذلك لايمكن أن يكون معناها، لأن غاية التعليم، التي منها ينبع، والتي تجبر التلميذ أن يسعى إلى المعلم، هي تصادم لا سبيل لتجنبه بين المفاهيم المختلفة والمتصلة ببعضها حول الواجب الذي ينتهي إلى انهيار كامل الصرح الفكري والأخلاقي المفيد الذي أشاده العقل البشري. في الحياة البشرية يحدث كثيراً نوع ما من التصادم، مثل الصراع بين الواجبات العائلية ونداء الوطن أو القضية، أو بين مطلب البلاد وخير الانسانية أو مبدأ ما ديني أو أخلاقي أهم. يمكن أن تنشأ حالة داخلية، كما حدث لبوذا، يجب أن تهجر فيها كل الواجبات، وتداس، وتطرح جانباً من أجل تلبية الالهي في الأعماق، لا أستطيع أن أفكر بأن الغيتا يمكن أن تحل حالة داخلية كهذه بإعادة بوذا إلى زوجه وأبيه وحكومة دولة «الساكيا» أو توجيه واحد مثل راماكريشنا[٣] ليصبح معلماً في مدرسة أهلية ويعلم الأولاد دروسهم منزهاً عن الغرض، أو تقييد واحد مثل فيفيكانادا ليعيل أسرته ويلتحق راضياً بالمحاماة أو الطب أو الصحافة. الغيتا لا تعلم التأدية اللامبالية للواجبات بل اتباع الحياة الالهية وهجر كل دهارما، وسارافادهارما (العلائق الدينية والدنيوية) يأدي إلى العلوي وحده، والنشاط الالهي لواحد مثل بوذا أو راماكريشنا أو فيفيكانادا أمر منسجم مع هذا التعليم. مع أن الغيتا

تفضـل الفعـل على عدم الفعـل فإنها لا تنكر أمر التخلي عن العمل، بل ترضى به كواحد من السبل إلى الالهي. وإن كان بلوغ ذلك فقط بالتخلي عن العمل والحياة وجميع الواجبات وكان النداء قوياً في أعماقنا، فليذهب إذن كل ذلك الى المحرقة ولا حيلة في ذلك، إن نداء الله أمر ملزم ولا يمكن أن يرجح عليه أي اعتبار.

لكن هنا هذه الصعوبة التالية وهي أن العمل الذي يجب أن يقوم به أرجونا هو العمـل الـذي ينكص عنـه حسه الخلقي، واجبه أن يقاتل، تقولون؟ لكن ذلك الـواجب يصبـح الآن في ذهنـه خطيئة رهيبة، كيف تساعده أو تحل صعوبته، كيف تقـول له ان عليـه أن يقـوم بواجبـه بنـزاهـة ورضى؟ سيحتـاج إلى أن يعرف ما هو واجبـه أو كيف يمكن أن يكـون واجبه أن يدمر في مذبحة دموية أقاربه وأبناء جنسه وبلاده. لقد قيل له إن الحق في جانبه، لكن ذلك لا يرضيه ولا يستطيع أن يرضيه، لأن رأيه الحقيقي أن عدالة دعواه المشروعة لا تبر ر دعمه لها بمذبحة لا ترحم مدمرة لمستقبل أمته. أعليه عندئذ أن يتصرف برضى بمعنى عدم المبالاة فيما إذا كان ذلك خطيئـة أو ماهي النتائج الناجمة عنها مادام يقوم بواجبه كجندي؟ يمكن أن يكون ذلك تعليم دولـة، وسيـاسيـين، ومحـامـين، ومفتين أخلاقيين؛ ولا يمكن أبداً أن يكون تعليم كتـاب ديني وفلسفي عظيم إنـما وضـع ليحـل مشـاكـل الحيـاة والفعـل حلاً جذرياً. وإذا كان هذا ما يجب أن تقوله الغيتا في مسألة روحية وخلقية حادة، فإننا يجب أن نخـرجهـا من قائمـة كتب العـالم المقـدسـة ونـدفـع بها إلى أي مكان غير مكتبتنا، مكتبة العلوم السياسية والافتاء الخلقي.

لاريب في أن الغيتـا مثـل الاوبـانيشـاد[1] تعلم المساواة التي هي فوق الرذيلة والفضيلة، وفـوق الخـير والشـر، لكن كجـزء من الوعي البراهماني وللانسان الذي على الـدرب وتقـدم تقـدمـاً كافيـاً في تنفيـذ القاعدة العليا. إنها لا تعلم اللامبالاة بالخير والشر في حياة الانسان العادية، فمن شأن تعاليم كهذه أن تؤ دي إلى عواقب وخيمة، وعلى العكس، إنها تؤكد أن مرتكبي الشر لن يبلغوا الله. ولذلك إذا كان أرجـونـا ببسـاطة يسعى إلى تنفيذ القانون العادي لحياة الانسان على أفضل وجه، فإن التأديـة الـلامبـالية لما يشعر أنه اثم، وقطعة من الجحيم، لن تساعده، حتى لو كان ذلك الاثم واجباً عليه كجندي. ينبغي عليه أن يحجم عن ما يأنف عنه ضميره حتى لو أصبحت آلاف الواجبات شذر مذر.

علينـا أن نتـذكر أن الواجب هو فكرة تستند في الواقع العملي على تصورات

اجتماعية. يمكن أن نوسع الكلمة ونخرجها عن دلالتها المقبولة، ونتحدث عن واجبنا تجاه أنفسنا او يمكن، إذا أردنا، أن نقول، بمعنى تجاوزي: لقد كان واجب بوذا أن يهجر الجميع، أو حتى إنه واجب الناسك أن يجلس بلا حراك في كهف! لكن ذلك من أجل اللعب بالكلمات بالطبع. الواجب كلمة نسبية ويعتمد على علاقتنا بالآخرين. إنه واجب الأب كأب أن يرعى أطفاله ويعلمهم؛ واجب المحامي أن يفعل أقصى ما في وسعه من أجل موكله حتى لو كان يعرف أنه مذنب وأن دفاعه عنه كذب؛ واجب الجندي أن يقاتل ويطلق الرصاص إذا ما أمر حتى على أقربائه وأبناء وطنه؛ واجب القاضي أن يلقي بالمذنب في السجن ويشنق القاتل. وهكذا ما دامت هذه الأوضاع مقبولة فإن الواجب يبقى واضحاً، ومسألة عملية طبعاً حتى حين لا تكون مسألة شرف أو عاطفة، أو تتجاوز القانون الديني والخلقي المطلق. لكن ماذا لو تغيرت النظرة الداخلية، إذا تنبه المحامي إلى أثم التزييف، واقتنع القاضي بأن عقوبة الاعدام منافية للانسانية، وشعر من دعي إلى ميدان المعركة بشعور معارض هذه الأيام الحي الضمير كما يمكن أن يشعر واحد مثل تولوستوي أنه تحت أي ظرف من الظروف لا يمكن أن يكون مسموحاً اعدام حياة انسان إلا اذا كان مسموحاً بأكل لحم الانسان. من المؤكد أن القانون الخلقي هنا والذي هو فوق كل الواجبات النسبية يجب أن ينتصر. وأن القانون لا يعتمد على علاقة اجتماعية أو مفهوم عن الواجب بل على بصيرة الانسان المتيقظة، والوجود الاخلاقي.

في الواقع، هناك في العالم، قانونان مختلفان للسلوك وكل منهما صالح على مستواه الخاص. القاعدة التي تعتمد على الوضع الخارجي مبدئياً والقاعدة المستقلة عن الوضع وتعتمد كلياً على الفكر والضمير. الغيتا لا تعلمنا أن نخضع المستوى الأعلى إلى الأدنى، لا تطلب من الوعي الاخلاقي المتيقظ أن ينحر نفسه على مذبح الواجب ضحية وقرباناً لقانون الوضع الاجتماعي. إنها تدعونا للأعلى لا للأدنى؛ من صراع المستويين تأمرنا أن نصعد إلى توازن سنيّ يعلو ما هو عملي أساساً وما هو إرشادي بحت، إلى الوعي البراهماني. إنها تحل الالتزام الالهي محل مفهوم الواجب الاجتماعي. الخضوع للقانون الخارجي يفسح مكانا لمبدأ معين لتصميم ذاتي داخلي للفعل الناشيء عن تحرر الروح من قانون العمل. وهكذا، كما سنرى؛ ـ الوعي البراهماني، وتحرر الروح من القانون العمل والتصميم على

العمل في الطبيعة بواسطة الله داخلنا وفوقنا، ـ هو نواة تعاليم الغيتا المتعلقة بالفعل.

يمكن أن تفهم الغيتا فقط، كأي كتاب عظيم آخر من نوعها، بدراستها بكليتها وعلى أنها مناقشة متطورة. غير أن الشراح المعاصرين بدءاً من الكاتب العظيم بانكيم شاندرا شاترجي الذي كان أول من أسبغ على الغيتا ذاك المعنى الجديد إنجيل الواجب، والذي أكد تأكيداً شديداً على الفصول الثلاثة أو الأربعة الأولى، على فكرة المساواة، وعلى عبارة «كارتافيام كارما» العمل الذي يجب أن يتحقق؛ والذين يستخلصون من الواجب وعلى عبارة: «لك حق في الفعل، لكن لا بثمار الفعل» التي يُستشهد به اليوم على أنها كلمة «ماهافاكيا» الغيتا العظيمة، وبقية الفصول الثمانية عشرة على مافيها من فلسفة عليا أوليت أهمية ثانوية، ما عدا طبعاً الرؤيا الرائعة في الفصل الحادي عشر. هذا طبيعي إلى حد كاف لدى العقل المعاصر الذي يميل، أوكان كذلك حتى أمس، إلى عدم الصبر على الدقائق الغيبية والتقصيات الروحية، ويتوق إلى مبدأ العمل، وعلى غرار ارجونا نفسه معنيٌّ أساساً بقانون للعمل قابل للتطبيق، «دهارما». لكن تلك طريقة خاطئة في تناول هذا الكتاب.

المساواة التي تعظ بها الغيتا ليست اللامبالاة، ـ الأمر العظيم الذي أعطي لأرجونا بعد تأسيس التعاليم وقيام بنيانها الرئيسي، «انهض، واذبح أعداءك، وانعم بمملكة مزدهرة» ليس فيه نبرة الايثار المتصلب أو انكار التحرر الروحي. بذاك التوازن في تلك الحرب يجب أن نقوم «بالعمل الذي يجب القيام به» عبارة تستخدمها الغيتا باتساع كبير تتضمن فيها كل الأعمال «سارفاكارماني» وتتخطى، رغم أنها تتضمن، الواجبات الاجتماعية أو الفروض الدينية. ما يجب أن يقام به من عمل لا يقرره الخيار الفردي؛ وليس بالفعل، والرفض للمطالبة بالثمار كلمة الغيتا العظيمة، انما هي كلمة تمهيدية تسيطر على حالة التلميذ الأولى حين يسرع بصعود تل اليوغا. وهي في الواقع العملي تبطل في مرحلة لاحقة. لأن الغيتا تمضي قدماً للتأكيد بشكل حاسم على أن الانسان ليس القائم بالفعل؛ بل هي «براكريتي»، هي الطبيعة. هي القوة العظمى بأشكال فعلها الثلاثة التي تعمل من خلاله وعليه أن يتعلم أن يرى أنه ليس من يقوم بالفعل. لذلك فإن «الحق بالفعل» فكرة صالحة فقط ما دمنا ولا نزال تحت سيطرة الوهم بأننا الفاعلون؛ ولا بد أن

تختفي من الذهن مثل المطالبة بالثمار لحظة توقفنا عن أن نكون بوعينا فاعلي أعمالنا. وعندئذ تنتهي كلية كل الذرائعية الانانية سواء كانت مطالبة بالثمار أو الحق بالفعل.

لكن حتمية البراكريتي ليست كلمة الغيتا الأخيرة. فالمساواة ما بين الرغبة بالثمار ورفضها ماهي إلا وسيلة للولوج مع العقل والقلب والفهم في الوعي الالهي والعيش فيه؛ وتقول الغيتا بشكل معبر بأنها يجب أن تستخدم كوسيلة طالما أن التلميذ عاجز عن أن يعيش أوحتى أن يسعى بالتدريب نحو التطور التدريجي إلى هذه الحالة العليا وماهو الالهي، الذي يعلن كريشنا أنه هو؟ إنه البر وشوتاما خلف النفس التي لا تفعل، خلف البراكريتي الفاعلة، أساس الأول وسيد الآخر رب كل ما هو تجلٍّ له، الذي حتى في خضوعنا الحالي لـ«مايا» ساكن في قلب مخلوقاته ضابطاً أعمال البراكيتي، هو الذي به تم ذبح الجيوش في ميدان كروكشيترا وظلت حية، وهو الذي استخدم أرجونا أداة أومناسبة مباشرة لتلك المذبحة الكبرى. براكريتي هي فقط قوته المنفذة. على التلميذ أن ينهض وراء هذه القوة وأشكالها الثلاثة أو «غوناس»؛ عليه أن يصبح «تريغوناتيتا». ليس عليه أن يتنازل عن أفعاله إليها، التي لم يعد له حق بها أو مطالبة، بل إلى الملأ الأعلى. واضعاً عقله وفهمه، وقلبه وارادته فيه، بمعرفة الذات، وبمعرفة الله، وبمعرفة العالم، وبتساوٍ تام، وتقوى كاملة، ووهب مطلق للذات، عليه أن يقوم بالأعمال نذوراً لسيد جميع الطاقات الذاتية وجميع التضحيات. معرّفاً بالارادة، واعياً لذلك الوعي، هذا ما سيقرر الفعل ويبادر إليه. وهذا هو الحل الذي يقدمه المعلم الالهي للتلميذ.

ليس علينا أن نبحث عن كلمة الغيتا والسامية، «ماهافاكيا»؟ لأن الغيتا نفسها تعلنا في آخر كلامها، النغمة المتوجة للتناغم الرائع: «إلى الله الذي في قلبك إلجأ بكل كيانك؛ فبسموّه ستبلغ السلام الأسمى والمنزلة الخالدة. هكذا بسطت امامك معرفة أكثر إبهاماً مما خفي. كذلك اسمع أعمق سر، الكلمة السامية التي سأتحولها لك. كن منصرماً إليّ، مخلصاً لي، ولي قدم القرابين والعبادة، معصوماً ستأتي إلي، لأنك حبيب إليّ، اهجر كل قواعد السلوك والجأ إليّ وحدي. سأحررك من كل الآثام؛ فلا تحزن».

معضلة الغيتا تحل نفسها في ثلاث خطوات كبيرة يسمو فيها الفعل من المستوى الانساني إلى الالهي مخلفاً عبودية القانون الأدنى من أجل تحرر قانون أعلى. أولاً، بالتخلي عن الشهوة وعلى سوية واحدة يجب أن تؤدي الأعمال على

أنها تضحية من الانسان الذي هو الفاعل، تضحية إلى معبود هو النفس العلية الوحيدة على الرغم من أنها لم تتحقق به في وجوده. هذه هي الخطوة الأولية. ثانياً، لا يجب التخلي عن الرغبة في الثمار فحسب بل كذلك عن الادعاء بصنعها بإدراك للنفس على أنها العنصر المساوي، غير الفاعل، المتحول، ولكل الأعمال على أنها عملية القدرة الكونية، وروح الطبيعة، براكريتي، القدرة الثابتة الفاعلة غير المساوية. أخيراً، يجب أن ينظر إلى النفس العلية على أنها بوروشا العليّ المسيطر على هذه البراكريتي التي منها روح الطبيعة تجل جزئي، التي بها تدار كل الأعمال؛ إليه يجب أن يستسلم الوجود كله ويجب أن ينهض الوعي كله ليسكن الوعي الالهي وبذلك يمكن أن تشارك الروح الانسانية بسمو طبيعة الالهي وأعماله وتتصرف بحرية روحية تامة.

الخطوة الأولى هي كارمايوغا، التضحية غير الانانية بالعمل، وهنا اصرار من الغيتا على العمل. والثانية هي جنانايوغا، ادراك النفس ومعرفة حقيقة طبيعة النفس والعالم، وهنا الاصرار على المعرفة؛ لكن التضحية بالأعمال يستمر ويصبح درب الأعمال واحداً مع درب المعرفة دون أن يتلاشى فيه. والخطوة الأخيرة هي البهاكتيوغا، العبادة والبحث عن الذات العلية ككائن إلهي، وهنا الاصرار على التقوى؛ غير أن المعرفة ليست مخضعة بل يعلى من شأنها وتشحن بالحيوية وتكتمل، وتظل التضحية بالأعمال مستمرة والدرب المزدوج يصبح ثالوثاً درب المعرفة والعمل والتقوى. وثمرة التضحية، الثمرة الفريدة التي كانت موضوعة أمام الباحث تصبح في المتناول، ويتحقق الاتحاد مع الوجود الالهي والتوحد مع الطبيعة الالهية العليا.

---

(١) كتاب فلسفي، وهو الجزء الهام في ملحمة الماهابهاراتا. رواه الإله لريشنا لصاحبه آرجونا في واقعة كرويشيتدا..

(٢) أحد الاخوة الباندوفيين في المهابهاراتا. وصاحب كريشنا الذي تلى عليه البهغفات غيتا.

(٣) متصوف وأحد أبرز المعلمين الروحيين في الهند الحديثة.

(٤) التعاليم السرانية، وهي استمرار لكتب الحكمة، الفيدا، عند الهندوس.

## شري اوروبندو

# الانسان: الكائن الإنتقالي

الانسان كائن انتقالي، وهوليس الختام، لأن في الانسان وما أبعد منه تصعد درجات الاشعاع المتسلقة إلى انسانية عليا الهية. هناك يكمن مصيرنا والمفتاح المحرر نحو وجودنا الارضي الطامح لكن المضطرب والمحدود.

نعني بالانسان العقل المسجون في جسد حي. لكن العقل ليس أعلى قوة ممكنة للوعي؛ لأن العقل ليس مالكاً للحقيقة، إنما ساعٍ إليها جاهل. وخلف العقل قوة فوق عقلية أو روحية للوعي الذي هو الحيازة الأزلية للحقيقة. هذا العقل الفائق موجود في منبعه الوعي الحركي، وفي طبيعته في آن واحد الحكمة الأزلية غير القابلة للتجزئة والارادة الذاتية للخالق الالهي العارف. العقل الفائق هو الانسان الفائق؛ وانسانية فائقة روحية هي خطوة تطورية متميزة منتصرة يجب أن تصل إليها الطبيعة الأرضية.

الانتقال من الانسان إلى الانسان الفائق هو الانجاز التالي القريب في تطور الأرض. وهو أمر محتم لأنه في آن واحد مقصد الروح الداخلية ومنطق العملية الدائرة للطبيعة.

ظهور امكانية انسانية في عالم مادي وحيواني كان الومضة الأولى المبشرة بمجيء النور الإلهي، الوعد الأول السحيق بأن ألوهية ستولد من المادة. وظهور الانسان الفائق في العالم الانساني سيكون الانجاز لذاك الوعد الإلهي. ومن الوعي المادي الذي يعمل فيه عقلنا كعبد مقيد بالسلاسل ينبثق قرص شمس القدرة السرية، والفرح، والمعرفة. سيكون العقل الفائق الجسد المشكل من ذلك التألق

المشع.

الانسانية الفائقة ليست الانسان وقد تسلق إلى ذروته الطبيعية، وليست درجة متفوقة للعظمة الانسانية والمعرفة، والقدرة، والذكاء، والارادة، والشخصية، والعبقرية والقوة الحركية، والقداسة، والحب، النقاء أو الكمال. العقل الفائق هو شيء فوق الانسان العاقل وحدوده، إنه وعي أعظم من أعلى وعي مميز للطبيعة البشرية.

الانسان هو كائن عاقل تعمل عقليته هنا مشوشة غامضة منحلة في دماغ عضوي. وتحرن فيه امكانياته المنيرة ذات القوة العلوية والحرية بتلك التبعية، ومرتجٌ عليه حتى عن قدراته الإلهية الذاتية، عاجز عن تغيير حياتنا خارج حدود ضيقة قلقة؛ إنه قوة أسيرة مكبوحة ضيقة، ليس شيئاً في الغالب سوى خادم أو متعهد للمصالح أو متعهد لمسرات الحياة والجسد، غير أن الانسان الفائق سيكون نفساً روحية. العقل الفائق فيه سيتحكم بالأدوات الجسدية والعقلية، واقفاً فوق الأجزاء الظاهرية الدنيا ونافذاً فيها. سيحول العقل، والحياة والجسد.

العقل هو أعلى قوة في الانسان، لكن العقل في الانسان قدرة جاهلة ضبابية. ومكافحة. وحتى في أشد استنارة له لا يملك غير ضوء منعكس دقيق شاحب. والعقل الفائق الحر السيد، المعبر عن أمجاد إلهية سيكون أداة الانسان الفائق المركزية. حركة الوجود الذاتي غير المقيدة فيه، والمعرفة، والقدرة العفوية والبهجة الطاهرة ستؤكد انسجام حياة الآلهة على الوجود الأرضي.

الانسان في حدا ذاته ليس أكثر من لا شيء طموح. هو ضآلة تصل إلى الاتساع والفخامة اللذين خلفه، وقزم متيِّم بالأعالي. عقله شعاع داكن في سناء العقل الشامل. وحياته كفاح، وجذل، ومعاناة، تتقاذمه عاطفة مشبوبة ويحل عليه الأسى أو توق أعمى غبي إلى لحظة عابرة للحياة الشاملة. هذا لا يمكن أن يكون نهاية جيشان الطبيعة الغامض المتصاعد. هناك شيء ما وراء ذلك، شيء ستصير إليه البشرية؛ ويُرى الآن في لمحات كسيرة فقط من خلال صدوع في جدار القيود الكبير الذي ينكر امكانيته ووجوده. روح خالدة في مكان ما معه تقذف بعض الشرارات الدالة على حضورها؛ تظلله من فوقه روح أزلية تأخذ بيد استمرارية طبيعته الروحية. لكن تلك الروح العظمى ممنوعة من النزول بسبب غلظة غلاف بناء شخصيته؛ وتلك الروح الداخلية الألقة ملفعة، مخنوقة، مضطهدة بغلاف

خارجي كتيم. نادراً ما تنشط الروح إلا عند القلة من الناس ولا يدرك عند الأكثرية إلا بصعوبة. الروح والنفس في الانسان تبدوان وكأنهما فوق أوخلف طبيعته أكثر من كونهما جزءاً من حقيقته الخارجية والمرئية. انهما في حالة الولادة أكثر من كونهما مولودتين في المادة؛ إنهما لامكانيات الوعي الانساني أكثر من أشياء حاضرة ومدركة.

عظمة الانسان ليست في ما هوعليه، بل بما يجعله ممكناً. ومجده أنه المكان المغلق ومشغل عمل حي فيه يجري تصنيع الانسان الفائق على يد حرفي إلهي. غير أنه متاح له أيضاً أن يكون أكثر عظمة ذاك أنه مسموح له أن يكون مختلفاً عن الخليقة الدنيا، فهو إلى حد ما صانع ماهر لتغيره الالهي؛ وموافقة وعيه، وارادته المركزة، ومشاركته مطلوبة حتى يهبط إلى جسده البهاء الذي سيحل محله. وطموحه هو نداء الأرض للخالق ذي العقل الفائق.

إذا ما نادت الأرض وأجاب العليّ، فإن ساعة التحوّل المجيد لهائل يمكن أن تكون الآن.

لكن ما الربح الذي سيجنبه الوعي الأرضي الذي نجسده بهذا الصعود الذي لم يسبق له مثيل من العقل إلى العقل الفائق وما هي ضريبة هذا التغير فوق العقلي؟ وإلى أية غاية على الانسان أن يغادر حدود الانسانية الآمنة في هذه المغامرة الخطرة؟

أولاً نأخذ بعين الاعتبار ما ظفرت به الطبيعة حين انتقلت من اللاوعي الوحشي، وعطالة ما يبدو مادة بليدة أمام فصائل النبات اليقظة النابضة بالحياة والحساسية. لقد ظفرت بالحياة؛ وكان ذلك الظفر بداية من ذلك النبت الضئيل المتلمس طريقه والمرتبك. ليصل إلى وعي يتمطى نحو النماء، نحو حس الحياة، نحو التهيؤ لأشواق حيوية؛ ولازالت أقل قدرة للتطلع من أعلى إلى نفسها لتعرف حركاتها وتدركها وتضبطها لأنه لايزال هناك قمع شديد من اللا واعي الأول الذي كان مغطى بظاهرة المادة الغريزية وطاقة المادة اللتين هما دلالتان على الروح. لم تستطع بحال أن تتوقف عند هذا الحد لأنها تحمل في نفسها غموضاً، واحتمالية وكموناً غير واضح وغير منظم، وكان التطور مجبراً على أن يستمر، ووجب على الحيوان أن يحل محل النبات في رأس الطبيعة وقمتها.

ما الذي جني من ربح حين انتقلت الطبيعة من غموض مملكة النبات إلى الحس اليقظ، والرغبة، والعاطفة وحرية الحركة التي لحياة الحيوان؟ كان الربح هو

حساً متحرراً وشعوراً ورغبة وشجاعة وذكاء واكتشافاً لموضوعات الرغبة، والعاطفة، والفعل والجوع، والقتال، والغزو، ونداء الجنس، واللهو، والمسرة وكل أفراح المخلوق الواعي الحي وآلامه. لا حياة الجسد فقط التي يشارك الحيوان بها النبات إنما عقل حي ظهر لأول مرة في قصة الأرض ونما من شكل إلى شكل أكثر تنظيماً حتى بلغ أفضل حالات صيغته.

بلغ الحيوان أول شكل للعقل، غير أنه لم يقدر على امتلاكه، لأن هذا الوعي العاقل المنظم الأول كان أسير مدى ضيق، ومقيداً بوظائف الجسد المادي والدماغ والأعصاب، مقيداً لخدمة الحياة المادية ورغائبها وحاجاتها، وعواطفها، ومحدوداً بأغراض الدافع الحيوي الملحة، وللتوق المادي والشعور والفعل، ومكبلاً في استخداماته الدنيا، والتجمع العفوي للتداعيات والذاكرة والغريزة. لم يكن قادراً على التخلص منها، ولا الوقوف وراءها كما يفعل ذكاء الانسان ليراقبها؛ ولا زال غير قادر على أن يطل عليها من عل كما يفعل العقل الانساني وارادته للسيطرة، والتوسع. واعادة الأمر، والتفوق، والتسامي.

هناك عند كل خطوة رئيسية لصعود الطبيعة انعكاس للوعي في روح ناشئة. كما يستدير صاعد إلى القمة التي اجتهد لبلوغها وينظر إلى أسفل بقوة رؤية أشد وأوسع إلى كل ما كان حيناً فوقه أو في مستواه وهو الآن دون قدميه، الكائن المتطور لا يسمو على نفسه الماضية، ووضعه السابق المتجاوز فقط، بل يصدر الأمر من مستوى إلى أعلى للتجربة الذاتية والرؤية؛ مع شعور مدرك جديد أو بصر فاهم جديد وقدرة على الفعل في نظام قيم أعظم، كانت كلها وعيه الذاتي وهي الآن دونه وتنتمي إلى خليقة أدنى. الانعكاس هو دلالة على انتصار حاسم وختماً لتقدم جذري في الطبيعة.

الوعي الجديد الذي حصل في تطور روحي هو دائماً أعلى درجة وقوة ودائماً أكبر وأكثر شمولاً، وأوسع في الرؤية والشعور، أعتى في القدرات وأدق، وأكثر تعقيداً، عضوي، وأكثر تحكماً من الوعي الذي كان مرة لنا وخلفناه وراءنا. هناك اتساع ومساحة وارتفاعات أمام الأعماق المفاجئة غير ممكنة العبور والعلائق الأليفة. هناك تمدد مضيء وهو العلامة الواضحة ليد العلي على صنعه.

لاحظوا أن كل خطوة من الخطوات الجذرية نحو الأمام التي خطتها الطبيعة كانت أكبر بشكل لامتناهٍ في تغيرها، وأكثر اتساعاً بشكل لا يحسب في نتائجها من

الخطوات السابقة الضئيلة. هناك فتح معجز إلى تعبير أوسع وأغنى دائم. هناك اضاءة جديدة للخليقة واعلاء حركي لمغزاها. ليس في هذا العالم الذي نعيش فيه مساواة للكل على مستوى منبسط واحد، بل تسلسل في المراتب للتفوقات المتهورة الدائمة التسارع تدفع بمناكبها الى أعلى نحو العليّ.

لأن الانسان كائن عاقل فمن الطبيعي أن يتخيل أن العقل هو القائد والفاعل والخالق الوحيد أو العامل الذي لا يمكن الاستغناء عنه في الكون. لكن ذلك خطأ؛ حتى بالنسبة للمعرفة، العقل ليس الأداة الوحيدة أو الأداة المحتملة العظمى، أو الطامح والمكتشف الوحيد. العقل هو فاصل غير متقن ما بين اللا واعي للطبيعة الواسع الدقيق وبين الفعل الإلهي الفوق - عقلي المعصوم.

لا شيء يصنعه العقل لا يمكن أن يصنع بشكل أفضل في ثبات العقل وسكون حرية التفكير. حين يكون العقل ساكناً، عندئذ تنال الحقيقة فرصتها كي تسمع في نقاء الصمت.

لايمكن بلوغ الحقيقة بفكر العقل، بل فقط بالرؤية الذاتية الصامتة. تحيا الحقيقة في ضياء غير أرضي هادىء للفضاءات الخالدة؛ وهي لا تستطيع السطوع في الضجة وفي ثرثرات النقاشات المنطقية.

يستطيع الفكر في العقل على الأكثر أن يكون ثوباً شفافاً رائعاً للحقيقة، وهو ليس حتى جسمها. انظر من خلال الثوب الا إليه ويمكن لك أن بعض ملامح شكلها. يمكن أن يكون هناك جسم فكري للحقيقة لكن ذلك الفكر العفوي الفوق - عقلي والكلمة التي تقفز كاملة الشكل من النور. لا زيف عقلياً صعباً فيها ولا اختلاط. الفكر الفوق - عقلي ليس وسيلة الوصول للحقيقة بل طريقة تعبير عنها لأن الحقيقة في العقل الفائق موجودة بذاتها أو ذاتية الوجود. إنها سهم من النور لا جسر للعبور إليها.

توقف داخلياً عن الفكر والكلام، كن في داخلك بلا حراك، انظر إلى الأعلى إلى النور، ونحو الخارج في الوعي الكوني الفسيح المحيط بك. كن شيئاً فشيئاً أكثر توحداً مع الائتلاق والاتساع. ثم ناشد الحقيقة أن تهبط إليك من عليائها وتتسرب فيك من كل ما حولك.

يا حبذا لو أن العقل أقل توتراً من صفائه منه في صمته. لأن في العقل غير الصافي يشيع الصمت بأنوار مضللة وأصوات زائفة، صدى، أو تحول أفكاره

وآرائـه العبثيـة ، أو استجـابـة كبريـائـه ، وغـروره ، وطموحه ، وشهوته ، وجشعه ، ورغبته الخفية .

الصمت لا يمكن الاستغناء عنه ، لكن هناك حاجة للاتساع ، لو أن العقل غير صامت ، فلن يستقبل أنوار الحقيقة السماوية وأصواتها ، وإلا استقبلها خالطاً بها ألسنته المضطـربـة وهذيانه المدعي . يستقبل فعالاً ، متغطرساً ضاجاً مايصل إليه فيشـوهـه ويحـرفـه . إن لم يكن واسعاً ، فلن يؤوي إليه القدرة المؤثرة والقوة الخلاقة اللتـين للحقيقـة . يمكن لبعض النور أن يكون له دور إلا أنه يصبح ضيقاً ، محدوداً وعقيـماً ، القـوة التي تهبـط حبيسـة ومحبطـة ومنسجمة ثابتة إلى أعاليها الفسيحة من ذلك المستوى الغريب المتمرد . أو حتى لو أن شيئاً نزل وأقام فإنه لؤلؤة في الوحل ، لأنـه لا تغيـير يحصـل في الطبيعـة أو في غيرهـا أو تكـوّن سوى توتر دقيق يشير إلى العلاء نحو الذرى ، لكنه يمسك بالقليل ولا ينير كثيراً العالم حوله .

## شري أوروبندو

# الطموح الانساني

تتعقب هدف أولئـك العـابـرين، تجاوزا، إنهـا الأولى في التـوالي الأبـدي للأصبـاح القـادمـة، ـ يوشا تتسع تبدي الذي يحيا، وتوقظ أحداً مات. . ما مداها حين تنسجم مع الأصباح التي أضـاءت من قبـل والأصبـاح التي يجب أن تشرق؟ ترغب في الأصبـاح القـديمـة وتكمل أضواءها، ناثرةً إلى الأمام ألقها، تدخل إلى الجمع مع بقية الآتين.

كوستا أنغيراسا ـ ريغ فيدا

ثلاثـة طبقـات تلك الـولادات العلويـة للقوة الإلهية التي في هذا العالم، انها حقيقيـة ومـرغـوب فيهـا؛ يتحـرك هنـاك علنـاً مع الـلانهـائي ويشـع نقيـاً مضيئـاً ومكمـلاً. . . ذاك الخـالد بين الفانين والمالك للحقيقة، هو إله وقائم داخلياً كطاقة فاعلة في قدراتنا الإلهية. . ارتفعي عالياً أيتها القوة، انفذي من خلال كل الحجب ودعي الأشياء الالهية تتجلى فينا.

فاماديفا ـ ريغ فيدا

انشغـال الانسـان المبكـر في أفكـاره المتيقظـة، وكـما يبـدو، انشغاله المحتوم والمطلق ـ لأنـه يبقي على قيـد الحياة دهوراً من الريبيّة ويعود بعد كل نفي ـ أيضاً،

أعلى ما يستطيع فكـره أن يتصـوره. ويتجلّى في الوهية الاله، النبض الدافع إلى الكـمال، والبحث عن الحقيقـة الصـافيـة والفـرح الأكـبر الصرف، ومعنى الأبدية السـريـة. بواكـير المعرفة البشرية تركت لنا شهودها على ذلك الطموح المتواصل؛ واليـوم نرى الانسـانية متخمة لكنها غير قانعة بالتحليلات الناجحة لمظاهر الطبيعة وتتهيأ للعـودة إلى أشـواقهـا البـدائيـة. أبكـر صيغـة للحكمـة التي تعـد أن تكون الأخيرة، ـ الله، النور، الحرية، الخلود.

هذه المثـل المتـواصلة للنـوع الانسـاني هي على النقيض من تجربتـه العادية وتأكيـد على تجارب أعلى وأعمق التي هي غير عاديـة للانسـانيـة والتي لا يمكن بلوغهـا، في كليتهـا المنظمـة، إلا بجهـد فردي ثوري أوبالتقـدم العـام الحـاصـل تدريجيـاً. ولكي تعـرف، وتمتلك وتصبح الكـائن الالهي في وعي حيـواني أنـاني، ولتحـول عقليتنـا المـاديـة الغـامضـة إلى ضيـاء فوق عقلي غير محدود، ولنبني سلْماً موجـوداً بذاتـه حيث لا توجـد غير ضغـط أشبـاع الـرغبـات العـابر المحاصر بالألم الجسـدي والمعـانـاة العاطفية، لتأسيس حرية مطلقة في عالم يعلن نفسه مجموعة من الحـاجـات الآليـة، لنكتشف ونتفهم الحيـاة الخـالـدة في جسـد محكوم عليه بالموت والتحـول المستمـر، ـ كل ذلـك معـروض عليـا كتجـلٍّ لله في المادّة وهدف الطبيعة في تطـورهـا الـدنيـوي. وأمـام العقـل المادي العادي الذي يأخذ نظامه من المثل غير المفهومة مع الحقيقة الواقعة المفهومة هناك حجة نهائية ضد مصداقيتها. غير أننا إذا قلّبنـا النظـر في أعـمال العـالم، فإن التعـارض المبـاشر يظهر كجزء من نظام الطبيعة العميق الأسرار وختماً لقانونها المكتمل.

لأن كل مشـاكـل الوجود هي بشكل رئيسي مشاكل انسجام. فهي تنشأ من إدراك لنشـاز لم يوجـد له حل وغـريـزة التـوافق غير المكتشف أو الـوحـدة. فللبقية الرضى بنشاز غير محلول ممكن للجزء العملي والحيواني من الانسان إلا أنه مستحيل على عقله اليقظ الذي بكامل نشاطه، وعادة حتى أجزاؤه العملية انها تهرب فقط من الحاجة العامة إما بشطب المسألة أوبقبول توفيق تقريبي نفعي غامض. لأن كل الطبيعة، بشكل رئيسي، تنشد انسجاماً، الحياة والمادة في عالمها وكذلك العقل في ترتيبـات مدركـاتـه. فكلما عظمت الفـوضى الظاهرية للمواد المعروضة، أو التباين الظـاهـري، أو النقيض المـواجـه، للعنـاصـر التي يجب استخـدامها، قوي الحث والـدفـع نحو نظام أكثر قوة وذكاء مما يمكن أن يكون نتيجة عادية لجهد أقل صعوبة. إن

التـوافق بين الحيـاة النشطـة وبـين ماديـة الشكل التي تبدو فيها حالة النشاط نفسها عطالة، هي احدى مشكلات النقائض التي حلتها الطبيعة وتسعى دائماً إلى حلول أفضـل مع المشـاكـل الأكثر تعقيداً، لأن حلها الأمثل ما بين العقل الواعي والارادة الواعية اللذين في حد ذاتهما ليسا وعياً صريحاً وقادرين في أحسن الحالات على وعي آلي أو إرادة واعيـة مشكلة أخـرى من النقـائض التي انتجت منهـا نتـائـج مدهشة، وأهـدافـاً دائـماً لمعجزات أعلى؛ لأن معجزتها الأخيرة يمكن أن تكون وعياً حيوانياً لا يبحث عن الحقيقـة والنـور بل يمتلكهـا، بالقـدرة الكليـة العملية التي ستنشأ من امتـلاك معـرفـة مبـاشـرة وكـاملة. ولا يكون عندئذ فقط اندفاع الانسان عالياً نحو توافق مع تناقضات أعلى عقلية في ذاتها، بل هي الإتمام المنطقي لقانون والجهد يبدو أنه النهج الأساسي للطبيعة والمعنى الحقيقي لنضالها الكوني.

نتحـدث عن تطـور الحياة في المادة وتطور العقل في المادة؛ لكن التطور كلمة تحدد الظاهرة ولا تشرحها. لأنه يبدو أنه لا سبب يدعو لتساؤ ل لماذا يجب أن تتطور الحيـاة من عنـاصـر ماديـة أو يتطور العقل من شكل حي ما لم نقبل بالحل الذي قدمته كتب الفيـدا وهـو أن الحيـاة امتـزجت في المـادة والعقـل في الحيـاة لأن في جوهـر المادة شكـلاً من أشكال الحياة المقنعة، حياة هي شكل للوعي المقنع. وعندئذ يبدو أن يتضاءل الاعتراض عند خطوة أبعد في سلسلة القبول بأن الوعي العقلاني يمكن أن يكون بحـد ذاتـه شكـلاً أو قنـاعـاً لحالات أعلى هي أبعد من العقل. في تلك الحالة فإن اندفاع الانسان الكاسح نحو الله، والنور، والفرح الكلي، والحرية، والخلود، يضع نفسـه في مكـانـه الصحيـح في السلسلة ببساطة كالاندفاع الجبري الذي به تسعى الطبيعـة للتطـور وراء العقل، والذي يبدو طبيعياً وحقيقياً وعادلاً مثل الاندفاع نحو الحياة التي غرستها في أشكال معينة من المادة أو الاندفاع نحو العقل الذي غرسته في أشكال معينة من الحياة. هناك كما هنا، الاندفاع يوجد بشكل غامض قل أو كثر في أوانيها المختلفة في سلاسل دائمة الصعود في قوة اراداتها في الوجود، هناك كما هنا إنه تطـور تدريجي ومحكـوم بأن يطـور الأعضاء والقدرات الضرورية؛ وكما أن الاندفاع نحو العقل ينطلق من ردود فعل الحياة الأشد حساسية في المعدن وفي النبات صعوداً إلى كمال تنظيمها في الانسان، فكذلك في الانسان نفسه سلسلات الصعود نفسها والتحضـير، إن لم يكن أكثـر، لحياة أعلى وأكثر ألوهية. لقد قيل إن الحيوان هو معمل حيّ صنعت فيـه الطبيعـة الانسـان. ولعـل الانسـان نفسه هو معمل مفكر حي به

وبمعـاونـة وعيـه ترغب الطبيعـة أن تخرج الانسـان الفائق . الله . أولماذا لا نقول، لتظهـر الله؟ لأنـه، إذا كان التطـور هو تبيان الطبيعة لما كان نائماً أو عاملاً فيها، فهو أيضاً الادراك المنفتح لما هو حي بشكل سري . لا نستطيع إذن أن نطالبها بالتوقف عند مرحلة محددة من مراحل تطورها. وليس لنا الحق في أن نحكم على أي قصد من مقاصد الطبيعة يمكن أن تبديه أو جهد يمكن أن تفعله من أجل أن تمضي إلى أبعد مما هي عليه، فنقول مع المتـدينين بأن ذلك انحراف وتجرؤ ومع العقلانيين بأنه مرض وهلوسـة. إذا كان صحيحـاً أن الروح تمتزج بالمادة وأن الطبيعة الظاهرة هي الله، إذن فإن تجلي الالهي في حد ذاتـه وإدراك الله داخـلاً وخـارجاً هما أعلى هدف مشروع ممكن للانسان على الأرض.

هكـذا فإن المفـارقـة الأزليـة والحقيقـة الخـالدة لحياة إلهية في جسد شهواني، وطمـوح هام أو حقيقـة ساكنـة في مسكن فان، ووعي فريـد وشامل يعبر عن نفسه بعقـول محدودة ونفـوس منقسمـة، ووجود متعال، لا يمكن تعريفه، لا زمان له ولا مكان وهو وحده الذي يجعل الزمان والمكان والكون ممكنين، وفي كل هؤلاء الحقيقة العليا تدرك بشروط دنيا فإنها تبر ر نفسها لعقل النوع البشري المتأني تماماً كما تبر رها لغريزته العنيدة أو حدسه.

بذلت أحيـانـاً محاولات للكف عن التساؤ لات التي غالباً ما صرح بأنها غير قابلة للحـل بالفكـر المنطقي ولإقنـاع البشر بصرف نشاطاتهم العقلية على المسائل المبـاشـرة والعمليـة لوجودهم المادي في الكون. لكن مثل هذه المراوغات لم يكن لها تأثير دائم أبداً. عاد البشر منها بدافع للتساؤ ل أشد حدة وبجوع إلى حل فوري. بهذا الجوع تنتفع الصوفية وتنهض ديانات جديدة لتحل محل القديمة التي دمرت أو جردت من أهميتهـا بريبيـة لم تكن قادرة على الإرضـاء، والتي على الـرغم من أن عملها هو التساؤ ل لم تكن ترغب بالبحث بما فيه الكفاية. إن محاولة انكار حقيقة أو إخماد نفسها لأنها لا تزال غامضة في نتائجها الظاهرية أو أنها غالباً ما تمثلت بشعوذة مبهمة أو بإيمان غرّ، هي نفسها نوع من الابهامية والغموض. الرغبة في الهرب من ضرورة كونيـة لأنهـا شاقـة وصعبـة التبرير بنتائج مباشرة ملموسة. وبطيئة في ضبط عمليـاتهـا لابـد أن تتحول تلقائياً إلى لاقبول لحقيقة الطبيعة بل ثورة على الإرادة العظمى الخفيـة للأم العظمى. إنـه من الأفضـل والأعقـل أن نقبل مـا لاتسمح، كجنس بشـري، أن ترفض، ونـرفعه من مجال الغريزة العمياء، والحدس الغامض

والطمـوح العشـوائي إلى ضوء العقـل والارادة الـذاتية الهداية والواعية . وإذا كان هنـــاك من نور أسطـع للحـدس المضيء أو الحقيقـة المتجليـة بذاتهـا التي هي الآن الانســان العــاجـز أو المعطـل أويعمـل بومضــات منقطعـة كأنـما من وراء غلالـة أو بظهـورات عرضيـة كالأضـواء الشـمالية في سماواتنا المادية ، عندئذ أيضاً يجب أن لا نخاف من الطموح لأنه شبيه ذلك ستكون الحالة التالية الأعلى لوعي العقل شكلاً من أشكـالـه أو غلالـة ، ومن خلال روعة ذلك الضوء يمكن أن يكمن طريق تكبير أنفسنا المتقدم إلى أية حالة أعلى تكون مكان هجوع الانسانية الأخير .

## شري اوروبندو

### رسالة الخامس عشر من آب ١٩٤٧

الخامس عشر من آب ١٩٤٧، هو يوم ميلاد الهند الحرة. مَعْلَم نهاية حقبة قديمة، وبداية عصر جديد. غير أنه يمكننا أن نجعله بحياتنا وأفعالنا كأمة حرة تاريخاً هاماً في عصر جديد مفتوح للعالم أجمع ولمستقبل الانسانية السياسي والاجتماعي والثقافي والروحي.

الخامس عشر من آب هو يوم ميلادي أنا ومن الطبيعي أن يسرني أن يفترض أن يكون له هذه الأهمية العظيمة. وأعد هذه المصادفة. لا على أنها حادث حظ، بل على أنها ارادة القوة الالهية التي تهدي خطواتي في عملي الذي بدأت فيه الحياة، ببداية إثماره الكامل. حقاً إني في هذا اليوم أستطيع أن أنظر الى معظم الحركات العالمية، التي أملت أن أراها وقد حققت أهدافها في زمني، ومع أنها بدت حينها أحلاماً غير عملية، آخذة في الاثمار أو في طريقها للانجاز. في كل هذه الحركات يمكن أن تحسن الهند الحرة لعب دور كبير وتأخذ موضعاً قيادياً.

كان أول هذه الأحلام حركة ثورية يمكن أن تخلق هنداً حرة وموحدة. الهند اليوم حرة ولكنها لم تحقق الوحدة. في لحظة ما بدت وكأنها في قلب سعيها للحرية تسقط متراجعة الى فوضى الدول المنفصلة التي سبقت الغزو البريطاني. لكن لحسن الحظ يبدو الآن ممكناً أن هذا الخطر يمكن أن يتجنب، وأنه يمكن أن يؤسس اتحاد كامل، ولو أنه حتى الآن غير كامل. أيضاً السياسة الحكيمة الصارمة للجمعية التأسيسية جعلت ممكناً حل مشكلة الطبقات المضطهدة من غير انشقاق أو تصدع. لكن يبدو أن التقسيم الطائفي القديم الى هندوس ومسلمين

يزداد صلابـة في انقسـام سياسي دائم للبلاد، إنه لمأمول أن هذه الحقيقة المقررة لن يقبــل بأنهـا مقـررة، الى الأبـد أو كأي شيء أكثـر من وسيلة موقتـة. لأنـه اذا دام الانقسـام ستضعف الهند بشكل جدي بل يمكن أن يصيبها الكساح: الكفاح المدني يمكن أن يظـل محتمـلاً، محتمـلاً حتى غزو جديـد واجتيـاح أجنبي. تطـور الهنـد الـداخلي وازدهـار يمكن أن يعـوقـا. ومكـانتها بين الأمم تضعف ومصيرها مهدد أو حتى محبط. هذا يجب ألا يكون؛ التقسيم يجب أن يزول، ودعونا نأمل أن يحصل ذلـك بصـورة طبيعيـة بمـزيـد من الاعـتراف بضـرورة لا السـلام والوئام فقط بل بضـرورة العمـل المشـترك، في ممارسة العمل المشترك وخلق الوسائل من أجل هذا الهدف. بهذه الطريقة يمكن للوحدة في النهاية أن تتحقق تحت أي شكل. . لشكل الطـريقـة الـدقيق أهميـة ذرائعيـة لا أسـاسيـة. لكن أيا كانت الوسائل، أيا كانت الطريقة التقسيم يجب أن يزول والوحدة يجب أن تتحقق وستتحقق، لأنها ضرورية من أجل عظمة مستقبل الهند.

حلم آخر كان من أجل انبعاث شعوب آسيا وتحررها وعودتها لدورها في تقدم الحضـارة الانسـانيـة. آسيـا قامت (غـدت)؛ أجـزاء كبـيرة منهـا متحررة الآن أو أنها الآن في طريقهـا الى التحـرر: وأجـزاؤ ها المحكومة كلياً أو جزئياً تسير نحو النضال بأشكـال مختلفـة من النضـال إلا أن شيئـاً ضئيـلاً يجب أن يصنـع وسيصنع اليوم أو غداً. هنـاك دور للهنـد لتلعبـه وقد بدأت به بطاقة وقدرة تشيران سلفاً إلى مستوى امكانياتها والمكان الذي ستحتل في هيئة الأمم.

الحلم الثـالث كان اتحـاداً عالميـاً يشكـل الأسس الكـبر ى لحياة بشرية أجمل وأكثـر إشـراقـاً، وأنبـل، إن توحيـد العـالم الانساني على الطريق؛ هناك بادرة غير مكـتـمـلة تنظـم لكـنهـا تنـاضــل في وجــه مصــاعـب هائـلة. لكن الـزخم موجود ويجب أن يزداد بشكل لا يرد وينتصر. هنا أيضاً الهند قد بدأت أن تلعب دوراً (بــارزاً) واذا ما استطــاعت تطـويـر فن الحكم غير المحـدود في الحقـائق الحـاليـة والاحتمالات المباشرة بل تنظر الى المستقبل وتقربه. حضورها سيصنع الاختلاف ما بين التطـور البطيء الجبـان والتطـور الجـريء السـريع. يمكن أن تتدخل كارثة أو تقـاطـع أو تخرب ماقد تحقق، لكن حتى ذلك الوقت فالنتيجة النهائية مؤكدة. لأن الاتحـاد هو ضرورة طبيعيـة وحـركـة لابـد منهـا. ضرورتهـا للأمـم واضحـة أيضاً، لأنـه بدونهـا ستكـون حريـة الأمم الصغـيرة في وقت ما معرضة للخطر وحياة حتى

الأمم الكبرى والقوية غير آمنة، الاتحاد لذلك لمصلحة الجميع، وفقط الغباء الانساني والانانية البلهاء يمكن أن يمنعاه. لكن ذلك لن يدوم الى الأبد في مواجهة ضرورة الطبيعة والارادة الالهية. لكن الأسس العريضة ليست كافية يجب أن تنمو روح ونظرة عالميتان، صيغ عالمية ومؤسسات عالمية يجب أن تظهر، ربما تطور كهذا مثل الجنسية المزدوجة أو المشتركة، التبادل الثقافي الارادي والاندماجي التطوعي. القومية ستحقق ذاتها وتفقد وطنيتها الاقليمية ولن تجد بعد ذلك هذه الأشياء متعارضة مع المحافظة على الذات وتكامل نظرتها. إن روحاً جديدةً توحدية ستأخذ سبيلها الى الجنس البشري.

حلم آخر، هدية الهند الروحية للعالم سبق وبدأت. روحية الهند تدخل أوروبا وأمريكا في تزايد مستمر. ستنمو هذه الحركة؛ وسط نكبات الزمان المزيد من العيون والمزيد تتلفت نحوها يحدوها الأمل، وهناك حتى ملاذ متسع لالتعاليمها فقط بل لممارستها المادية والروحية.

الحلم الأخير كان خطوة في التطور الذي يرفع الانسان الى وعي أكبر وأسمى ويبدأ بحل المشكلات التي حيرته وأربكته منذ أن بدأ التفكير والحلم بالكمال الفردي والمجتمع الكامل. لايزال هذا أملاً شخصياً وفكرة، مثلاً أعلى بدأ يأخذ مكانه في الهند وفي الغرب في العقول التي تنظر الى أمام. المصاعب في الطريق أكثر ضخامة من أي حقل من حقول الجهد لكن الصعوبة توجد من أجل أن يتغلب عليها واذا كانت الارادة العليا موجودة فسيتغلب عليها. هنا أيضاً اذا كان لهذا التطور أن يجد طريقه، ما دام عليه أن يتقدم من خلال الروح والوعي الداخلي، فإن المبادرة يمكن أن تأتي من الهند وبالرغم من أن المدى يجب أن يكون شاملاً فإن الحركة المركزية يمكن أن تكون حركتها.

مثل هذا المضمون أضعه في هذا التاريخ لتحرر الهند؛ هل سيتحقق هذا الأمل وكيف ذلك؟ يعتمد على الهند الحرة.

# مولانا أبو الكلام آزاد.

**مولانا أبو الكلام ازاد.**

## الهند وآسيا

اثبتت التجـربـة أن الاتصـالات الثقـافيـة أكثـر تأثـيراً في توحيـد الأمم من الأحـلاف السياسية. الأحـلاف السياسية تقوم على روح المساومة، بينما العلاقات الثقـافية تعمق التفاهم المتبادل. وهذا التفاهم أكثر أهمية اليوم في وجهة نظر النهضة الحديثة التي تأخذ مكانها في العالم الشرقي كافة. لدينا اليوم في أنحاء الشرق حركة من أجل احياء تربوي وثقافي تستحق الاهتمام والدراسة المتفهمة.

لأسبـاب عدة في السنـين الحـاليـة أصبحت الهنـد على اتصـال مع بلدان أوروبية وأمريكية بدرجات متفاوتة. والحاجة اليوم الى تفاهم أكبر مع بلدان خارج هذا المـدار. الحـاجـة الى منظمة تضع برنامجا لمثل هذه الاتصالات أمر أكيد، لكن علي أن أعترف أني وجدت بعض الصعوبة في اختيار اسم ملائم لمثل هذا الكيان، كيـان واحـد يغطي كل تلك المنـاطق يمكن أن يثبت عدم فعاليته. ولا أستطيع أن أفكر باسم مناسب يغطيها جميعاً. لقد صممت الجغرافيا نفسها الحدود التي يمكن أن تبنى عليها مثل هذه المؤسسات. علينا من جهة أن نقيم علاقات أوثق مع تركيا وأفغانستان وبلدان الشرق الأوسط، ومن جهة أخرى علينا أن نقيم علاقات أوثق مع الصـين واليـابان وبلدان جنوب شرقي آسيا. والحل الذي فاجأني للوهلة الأولى هو في أن يكـون لدينـا كيـانـان ندعو الأول الرابطة الهندية الشرق أوسطية، والثاني الـرابطـة الهنـديـة الجنـوب شرق آسيـويـة. بالـرغم من أن هذا لن يرضي بشكـل تام لأن تركيا وافغانستان لن تكونا مشمولتين في رابطة الشرق الأوسط وبشكل مماثل فإن الـرابطـة الجنوب شرق آسيوية لن تضم بلداناً كالصين واليابان وكوريا. ويبدو

أن الطـريق الـوحيـد للتغلب على هذه الصعـوبـة هو في وصف المنظمة بأنها مجلس تعاون ثقافي هندي . ولهذا الكيان قسمان مختلفان ـ واحدها للبلدان الغربية بما فيها افغانستان، وتركيا ومصر، والآخر للمجموعة الثانية بما فيها كوريا والصين واليابان .

ومن المؤكـد أن هدف مجلس كهـذا هو تحقيق اتصـالات ثقافية بين الهند وتلك البلدان وزيـادتهـا . وعليـه أن يعمـل على أنـه وكالة تبادل معلومات وآداب وتبادل أفراد . إن زيارات قصيرة يقوم بها أساتذة وطلاب هنود الى تلك البلدان ومن تلك البلدان وتنميتهـــا . وعليـــه أن يعمـــل على أنـــه وكـالـة تبـادل معلومـات وآداب المجلس أيضاً من أن يكون لديه مكتبة وقاعة مطالعة وأن يعمل على طباعة مجلات ودوريات أدبية أخرى .

إن منظمة غير رسمية ، إن كانت ممثلة لفئة المثقفين في البلاد ، هي ، بطبيعة الحال ، أكثر ملاءمة لتحقيق وظائف من هذا النوع . إذا تأملنا كيف يمكن لمثل هذه المنظمة أن تقوم ، فإني أظن أنكم ستوافقوني على أن أفضل السبل يمكن أن تكون موضع قانون ينص على أن جميع الجامعات الهندية والجماعات الثقافية يمكن أن ترسل ثلاثة أو أربعة ممثلين الى المجلس المقترح . بالاضافة الى أن هذا المجلس يجب أن يتضمن البارزين الذين حققوا لأنفسهم امتيازاً في ميدان الفن والأدب والانسانيات* .

* من خطاب مؤتمر التعاون الثقافي بين الهند والبلدان الأسيوية . نيودلهي ١٩٤٩ .

## مولانا أبو الكلام آزاد

# الفن والتربية

أصبح من الواضح هذه الأيام أنه ما من تربية يمكن أن تكون كاملة إن لم تول اهتماماً كافياً لتطوير العواطف وتهذيبها. يمكن أن يتحقق هذا من خلال تهيئة وسائل تدريب الأحاسيس بممارسة أحد الفنون الجميلة. وخارج حدود مسألة تطوير مظاهر الشخصية الجميلة من خلال التربية الفنية. هناك استخدام مباشر لمثل هذه التربية في تطوير مهاراتنا اليدوية ومدى حساسيتنا. ومن المعترف به اليوم أن هذه التربية في المرحلة ما قبل الابتدائية أو مرحلة الحضانة يمكن أن يكون تأثيرها أفضل في تدريب الطفل على مقارنة الألوان والأشكال والحجوم. هذا يطلق الغريزة الابداعية لدى الطفل يحول طاقته الفائضة من القنوات الهدامة الى قنوات السلوك الاجتماعي والتقاليد الاجتماعية. وهكذا سواء من وجهة نظر تدريب العواطف أو تنقية الأحاسيس أو تطوير المهارة اليدوية والنشاط الابداعي، فإن أهمية الفن كعنصر في التربية لا يمكن أن تؤكد عليه أكثر من ذلك.

ينتهي بنا ذلك الى أن مجتمعاً ما يكون صحيحاً ومتوازناً جيداً اذا كان التدريب على الفنون وتعلم تقديرها منتشرين بين أفراده. إن مظاهر التراجع للمجتمع المعاصر الذي يكون أفراده ممزقين ومقسمين وتعج فيه مئات الصراعات هو نتيجة حقيقة أن الفنون قد حدث بينها طلاق وبين الحياة في ألف نقطة. ويمكن أن أعيد الى ذاكرتكم أنه لم يكن هناك تمييز ملحوظ ما بين الفن والحرفة في الماضي. في الأيام السالفة الفنانون الذين كانوا يصنعون أدوات

للاستخدام في المجتمع كانوا فنانين تلقائياً. ومن جانب آخر الفنانون كانوا يفخرون بروعة صناعتهم ولم يترددوا مطلقاً في أن يأخذوا نصيبهم كاملاً في الانتاج الاجتماعي، إحدى النتائج المؤسفة للثورة الصناعية وتطور نظام الانتاج الرأسمالي أنه حدث طلاق ما بين الفن والحرفة. النتيجة أن الفنانين يميلون الى امتهان الحرفيين والنظر لهم كمجرد صناع، والعمال الذين ينتجون البضائع للاستهلاك هم في جانب آخر يرتابون بشكل مساوٍ بتلك النشاطات الاجتماعية والتي تبدو بلا فائدة التي يقوم بها الفنانون. في النتيجة، فكلا الفن والحرفة عانيا. وهكذا فإن الفن انفصل نهائياً عن حاجاتنا المباشرة في حين أن الحرفة تدنت الى الاستخدام الآلي الذي اختفت منه كل متع الابداع.

إن على الفنان أن يحاول مدّ جسر فوق هذه الهوة، يمكن أن تتذكروا جهود ويليام موريس في تجاوز تلك العقبة بالتأكيد على أنه حتى المنتجات التجارية يجب أن تتمتع بصفات فنية عالية، ذاك سيؤدي مباشرة الى رقي في الذوق في المجتمع وبذلك يغني حياة الانسان العادي. ومن جانب آخر يمكن أن تؤدي خدمة مساوية للفنان نفسه. يستطيع في سياق كهذا أن يعتمد على الدعم من المجتمع ككل بدلاً من بضعة راغبين أغنياء هنا وهناك. ومعظم ما يعانيه الفنان اليوم من فقر وعدم الأمان ناجم عن ضعف الدعم الاجتماعي. وما إن يعيد علاقاته بالمجتمع حتى تختفي أسباب عدم الامان والنتائج ستكون في صالح الفن والحرفة والمجتمع على أوسع مدى.

مع نمو الديموقراطية فإن الحاجة الى علاقات وثيقة ما بين الفنان والانسان العادي أصبحت مهمة أكثر فأكثر. إن مستوى الانسان العادي هو الذي يحدد مستوى المجتمع. لذلك اذا كان الانسان العادي فقيراً وبعيداً عن الصفات الفنية، فليس هناك من احتمال لظهور فن غني ومزدهر. لذلك على الفنانين أن يلعبوا دورهم الكامل في تربية الشعب، وعلى هذا المؤتمر أن يقترح على الحكومة كيف يكون بلوغ ذلك بأفضل السبل من خلال المتاحف وقاعات العرض والمعارض المتجولة وأي أسلوب آخر يمكن أن يكون ضرورياً*.

---

* من خطاب في الاجتماع السنوي لمؤتمر الفنون في عموم الهند كالكوتا آب ١٩٤٩.

**مولانا أبو الكلام آزاد**

## التربية الاجتماعية والمناطق الريفية

كانت الهند في أحسن حالاتها حين كانت أبوابها مفتوحة على مصاريعها لجميع القادمين من الخارج. لقد أخذت بشكل حر من كل الدروس التي رأى العالم أن يقدمها وأعطت أحسن ما لديها بحرية مساوية للعالم. إن قبول الوحدة في التنوع كان شعارها خلال العصور. وجوهر هذا المبدأ هو تسامح شامل لقلوب مفتوحة، حيث يقر بالاختلافات وتأخذ حظها من الاهتمام. العبقرية الهندية كانت دائماً تعترف بأن الحقيقة ذات وجوه متعددة وأن الحقد والصراع ينجمان عن ادعاء الناس احتكار القضية والحقيقة. هذا هو الدرس الذي أعطته الهند في أيام مجدها. وهو الدرس الذي لقنه المهاتما غاندي مجدداً في سياق العصر الحديث. ورسالته الى الشعب الهندي هي درس في التسامح والارادة الطيبة والحب للجميع. لقد قال إن الحقد من الضعف والخوف، ولذلك حض مواطنيه لنبذ الخوف لقد آمن بتربية جديدة يمكن أن تعيد تشكيل شخصية الانسان. هدفها اجتثاث الاندفاع الى الاستهلاك والعنف والارادة الخبيثة من الفرد ومن المجتمع. لم يعظ بالحاجة الى الحب والتسامح للجميع لكنه وقف حياته على البرهنة على مصداقية هذه القيم الخالدة. واذا كنا نستطيع أن نتمثل في سلوكنا الخاص والعام روح التسامح التي يتمتع بها والانسانية الواسعة القلب التي يتجلى بها بحيث يمكن أن توجد الاختلافات جنباً الى جنب دون صراع فستحل واحدة من أصعب المشكلات في العصر الحديث*

---

* من خطاب في ندوة اليونسكو حول تعليم الكبار في الريف، مايسور. تشرين الثاني ١٩٤٩.

## مولانا أبو الكلام آزاد

# مفهوم الانسان في الشرق والغرب

في الآلاف الستة الأخيرة من السنين أويزيد، قام الانسان برحلة عبر منطقة شاسعة من بداياته المبكرة في المجتمع البدائي. لقد رأت تلك الفترة الانسان ينتصر على كثير من العقبات الخفية ويواجه تحدي طبيعة جامدة وعالم حي. وبالرغم من كل المصائب التي كان على الانسان أن يواجهها في هذه المرحلة، حدث على العموم تقدم متواصل وثابت في الانتزاع من الطبيعة بعضاً من أسرارها العظيمة، لقد تمزقت الحجب الواحد بعد الأخر عن وجه الطبيعة.الخفي والأسرار التي لا تزال مجهولة تخضع لبحث الانسان اليوم.

في حين كان تقدم الانسان المنتصر في كشف الحجب عن وجه الطبيعة ثابتاً ومستمراً، هل نستطيع القول بثقة مماثلة أنه نجح في كشف الحجاب عن ملامحه هو نفسه؟ هل تستطيع القول أنه بعد ستة آلاف سنة من البحث عن الحقيقة، أن الانسان يرى نفسه رئيسياً في المكانة التي هو فيها؟ أظن أنكم توافقونني أن علينا أن نقدم اعترافاً محزناً في هذه المسألة. المرآة التي اخترعها الانسان تعكس كل مظاهر العالم لكن لا تعكس ما في داخل نفسه هو. علينا أن نعترف بأن الانسان لما يستطع أن يكون قادراً على تكوين صورة واضحة عن طبيعته الخاصة. إن أسرار الكون أكثر وضوحاً لديه من أسرار نفسه. ظل الفلاسفة لمدة ثلاثة آلاف سنة أو أكثر يتساءلون المرة تلو المرة ما الانسان؟ من أين يأتي والى أين يروح؟ الأسئلة لاتزال تتلقى أجوبة كبيرة. ومن المؤكد أنه غير قادر على بلوغ حل مرض لمشاكل الفرد، والمجتمع، ومشاكل الأمم والعلاقات الدولية حتى يعرف بوضوح طبيعة نفسه هو

ويحدد ماهو مكان الانسان في الكون الواسع.

إن الموضوع الأساسي أمامكم هو أخذكم هذه المسألة بعين الاعتبار. لقد اجتمعتم لبحث مفهوم الانسان كما عبر عنه المفكرون في الشرق والغرب أريد في هاتين مستهل حديثي أن أؤكد على أنه في الحديث عن الشرق والغرب، إنما نفكر فقط في ملامح خاصة في فكرة هاتين المنطقتين. إن هذا لا يمكن ولايعني أنه لايوجد مساحات واسعة من الأرضية المتفق عليها. لقد تبنى الانسان في مختلف أنحاء العالم أساليب مشتركة في التعليل والتفكير. المنطق الانساني واحد. والعواطف الانسانية متشابهة جداً. الارادة الانسانية تعمل بشكل كبير أوقليل بنفس الاسلوب في الحالات المتشابهة في كل مكان. لذلك من الطبيعي أن طريقة الانسان في نظرته الى نفسه والعالم متشابه في مناطق مختلفة في أصقاع العالم. موقف البشر من الأسرار الخفية للوجود هو كذلك متشابه. اليونان الذي نظروا بإعجاب وحنين الى قمم جبل الاولمب يشاركون مشاعرهم الهنود الذين تأملوا في وديان الهيمالايا ونظروا الى ثلجها الخالد.

بالرغم من المساحة الكبيرة للتوافق، فإن العقول البشرية في مختلف المناطق من العالم تبنت مداخل مختلفة لبعض المسائل المشتركة. حتى ولوكان المدخل غير مختلف فإن هناك ميلاً للتأكيد على المظاهر المختلفة للمشاكل المشتركة والحلول المشتركة. ليس من حالتين متماثلتين كل التماثل. وكان من غير الممكن أن يولي الناس في المناطق المختلفة اهتماماً أشد للمظاهر المختلفة وللمشاكل المشتركة. ونحن نعتمد على مثل هذه الاختلافات في التأكيد بأننا نصف طريقة معينة في التفكير على أنها مميزة خاصة لأمة معينة أو منطقة. وإنه من وجهة النظر هذه سأحاول أن أصوغ الاختلافات التي تميز الشرق عن الغرب. أظن أنكم ستوافقون أنه حتى لو كانت الحلول متشابهة في النموذج والخطوط العريضة، فإن هناك اختلافات في الظل واللون تسمح لنا بتسمية بعض الحلول شرقية والأخرى غربية.

هناك، كما قلت، كثير من النقاط المشتركة مابين آراء الفلاسفة في الشرق والغرب لكن هناك فارقاً في التوكيد ما بين الهند واليونان والصين يلفت انتباهنا منذ بداية التاريخ المدون. في الهند التوكيد في الفلسفة، على العموم، كان على التجربة الداخلية للانسان. الفلاسفة هنا سعوا وراء فهم الطبيعة الانسان الداخلية وفي المتابعة تجاوزوا حدود الحواس والذكاء وحتى العقل وعملوا لاعلان

شخصية الانسان الفرد بحقيقة عميقة خفية. في اليونان كان الفيلسوف منهجيا بشكل رئيسي في فهم طبيعة العالم الخارجية كان يبحث كيف يقرر مكانة الانسان في العالم الخارجي. لذلك كانت نظرته، على العموم، أكثر اهتماماً بما يجري حوله مما هو في الهند، في الصين من ناحية أخرى لم يقلق الفلاسفة بشأن طبيعة الانسان الداخلية ولا بشأن الطبيعة الخارجية لكنهم ركزوا على الانسان في علاقته بأقرانه. هذه الاختلافات في التوجه عززت تأثيرا عميقا في التطورات اللاحقة في الفلسفة في كل من هذه المناطق. لذلك نجد اختلافات بارزة في مفهوم كل منها عن الانسان.

دخل اليونان مفهوم الانسان من وجهة نظر خارجية. ولذا نرى أنه من أقدم العصور خصصت الفلسفة اليونانية اهتماماً أكبر على ماذا يفعل الانسان لا على ماهو الانسان؟! صحيح أن بعض الفلاسفة اليونان الأقدمين فكروا في الانسان بشكل رئيسي على أنه كيان روحي ونجد ذلك ربما في طريقة التفكير الظاهرة حتى أيام أفلاطون. مع أرسطو بدأ بشكل ما، توجه جديد، أخذ الاهتمام يتحول عن فكرة الانسان الى فعاليات الانسان في العالم هنا والآن. وتحت تأثير أرسطو الذي عرف الانسان بالحيوان الاجتماعي أصبحت الفلسفة أكثر ايجابية، ومع مرور الوقت أصبح هذا الموقف الايجابي التجريبي العلمي هو المناخ السائد في الفكر الغربي. العقلانية تميز الانسان عن الحيوانات الأخرى، ومن خلال ممارسة العقلانية تجاوز أصله الحيواني القديم. وإلا يبقى بشكل رئيس وأساسي حيواناً متطوراً. ونادراً ما عبر عن هذه الفكرة بالجمال الذي عبر فيه الفيلسوف الالماني رايا Riehl. في حين يقر بأن الانسان انحدر من الحيوان يشير إلى أنه قد وصل الآن الى مرتبة توجب عليه أن ينظر إلى أعلى لا إلى أسفل. إنه الحيوان الوحيد الذي يقف منتصباً ويستطيع أن يظل كذلك فيما اذا استمرت نظرته الى أعلى. والله هو الهدف الذي على الانسان أن يناضل من أجله إذا أراد أن يحافظ على قامته الحالية.

صحيح أن تأثير المسيحية وسيطرة التقاليد المسيحية ظلت عنصراً قويا في الفكر الأوروبي. هكذا نجد أن السكولائيين في العصور الوسطى كانوا أحياناً رجال دين أكثر منهم فلاسفة. حتى في الفترة الحديثة هناك ملامح دينية مثالية قوية في الفكر الأوروبي. منذ مطلع العصور الحديثة هذه الملامح على كل حال اضطرت أن تفسح مجالاً لنظرة فلسفية شاملة خاضعة لمفاهيم العلم. إن التقدم

العلمي المبهر بدأ في القرن السابع عشر وزاد في سيطرة الانسان على الطبيعة . نجاح العلم بهر العقل الغربي وزرع ايماناً في نجاعته التي لا تخفق . سعى الغرب إلى تطبيق مفاهيم وأساليب العلم في كل حقول التجارب الانسانية وعامل الانسان أيضاً كمادة بحث بين بقية المواد والموضوعات . ومع مرور الوقت أصبح المزاج المادي والعلمي هو السائد في الغرب . نجد نجاحات لهذا التطور في القرن التاسع عشر والقرن العشرين . داروين عمل على تأسيس أن الانسان نشأ وتطور عن الحيوان في حين يجادل ماركس في ذلك نجد أن عقليته بشكل كبير نتاج محيطه المادي . فرويد في القرن العشرين ذهب خطوة أبعد ورأى أن الانسان لم يتطور عن الحيوان بل إن عقليته لاتزال تحمل آثار أصله الحيواني .

وفي مواجهة مفهوم ان الانسان حيوان تقدمي نجد في الشرق مفهوماً مغايراً كلياً عن الانسان . لقد أكد الشرق منذ البداية على قيمة الانسان الروحية . تأمل حقيقة الانسان الداخلية أدى إلى قيام فلسفة الفيدانتا في الهند والصوفية عند العرب . هذا المفهوم الروحي للانسان قد أثر بعمق في عقلية الانسان في كل انحاء الشرق وليس غريباً كلياً عن الغرب . وعلى ضوء هذا الاتجاه في الرؤية لا نستطيع فهم جوهر الانسان إذا اعتبرناه فقط كياناً مادياً . طبيعة الانسان الحقيقية يمكن أن تفهم فقط إذا مانظرنا إليه على أنه من فيض الله . كان هناك في الفلسفة الشرقية اتجاه قوي في الايمان بوحدة الوجود . في مختلف مدارس الفلسفة الهندية تعتبر كل الأشياء تعبيرات عن وجود الله ولكن رغم ذلك فالانسان ينتمي الى منزلة خاصة . لأنه أعلى تجليات وجود الله . وقد جاء في الغيتا .

أنت الباقي ، السامي على الفهم .
أنت المأوى المطلق لهذا الكون .
أنت الحارس الخالد للقانون الخالد .
أنت الشخص الأول .

بشكل مشابه نجد ، حسب ما يرى الصوفيون ، أن الانسان موجة من البحر غير المحدود الذي هو الله . إنه شعاع من الشمس التي هي الله . يمكن أن يعتبر الانسان نفسه مختلفاً عن الكائن الخالد فقط ما دامت رؤيته غائمة بشتر الجهل .

وحالما تكون هناك معرفة فإن كل هذه الفوارق تنحل ويتعرف الانسان على نفسه كلحظة في الوجود الخالد.

مفهوم الانسان الذي بلوره الشرق يعتبر الانسان ليس فقط حيواناً متفوقاً على كل مخلوقات الأرض بل يختلف عنها أساساً بطبيعته. الانسان ليس الأول بين متساوين بل له وجود أسمى من وجود أي كائن آخر. ليس حيواناً متطوراً، بل يكشف بوجوده عن ملامح الله نفسه، فطبيعته في الواقع سامية وصاعدة وأن لا شيء أعلى منه مسألة مفهومة من العقل البشري.

بكلمات من (تشا هند وغيا اوبابيشاد):

«هذه هي الحقيقة. هذه هي الروح. هذا أنت».

هذا المعنى عبر عنه بشكل جميل بالعربية:

«من عرف نفسه فقد عرف الله».

المبدأ نفسه حين تطور الى أبعد انشأ فكرة أن الانسان ليس فرداً معزولاً لكنه يحوي في نفسه الكون بكامله، وفي كلمات الغيتا:

«هنا الآن. ترى الى الكون جميعه. متحركاً وثابتاً وكل ما تشاء رؤيته. ياغوداكيا، كلها متوحدة مع جسدي».

وقد عبر شاعر صوفي عن المفهوم نفسه في الشعر العربي:

وتحسب أنك جرم صغير        وفيك انطوى العالم الأكبر

ولعله من المسلم به أنه لا يمكن أن يكون هناك مفهوم عن الانسان أسمى من هذا المفهوم إن الله يرسم حدود الفكر البشري.

بتعريف الانسان بالله فإن المفهوم الشرقي عن الانسان يسمو به الى مرتبة الإله. لذلك ليس للانسان من هدف سوى أن يعيد بناء شخصيته مع الله. وهكذا يصبح أسمى من كل الخليقة.

## ٢

لقد ناقشنا حتى الآن مفهوم الانسان من وجهة نظر الفلسفات في الشرق والغرب. ونريد الآن أن نعرض بإيجاز ماذا يقول الدين في هذه المسألة. إذا أخذنا

اليهـوديـة والمسيحية بعين الاعتبار وجدنا بياناً واضحاً في العهد القديم أن الله خلق الانســان على صورتـه ومثاله . ويستتبع هذا انه يشارك الله في صفاته . عنصر قوي من الصوفية الروحية ميز موقف المسيحية ومثل ذور الكابح لطغيان الاتجاهات المادية المتطرفة .

في الاســلام نجـد آثـار تأثـيرات من ذات الصــورة . في الواقع أن القرآن قد مضى خطـوة الى الامـام في رفعـه قيمـة الانسان . يعلن القرآن أنه لم يخلق الانسان على صورة الله بل هو خليفته على الأرض ، وفي الحديث عن خلق آدم يقول الله :

«إني جاعل في الأرض خليفة»

هذه الفكرة عن الانسان أثرت بعمق بالفلاسفة العرب ، ويمكن أن نلاحظ أمـرين اثنـين في هذا الصـدد . كخليفة لله على الأرض فإن للانسان علاقة مباشرة به . هذا أيضا يجعل الانسان أسمى من كل المخلوقات ويجعله سيداً لا على الحياة الحيوانية فقط ولكن على قوى الطبيعة نفسها ويعلن القرآن ثانية وثانية :

«وسخرنا له ما في الأرض أو في السموات . . . . . .

على العمـوم معـروف جداً أن أرسطو أثر تأثيراً كبيراً على الفلاسفة العرب ولكنهم حتى في تفسـيرهم لارسطـو أبـدوا إشـارات واضحـة لتأثـير فكـرة خلافـة الانســان لله . ابن سينـا وابن رشـد كانـا أرسطيين من الناحية الميتافيزيائية ، غير أن توجههـما الـروحي في الاســلام جعلهـما يعترفان أنه طالما أن الانسان يشارك الله في صفاته فليس هناك حدود لما يستطيع بلوغه في ميداني القوة والمعرفة . علماء مسلمون مثـل الغـزالي والـرازي ، والـراغب الاصفهاني وغيرهم ، عبروا عن هذه الفكرة في كتاباتهم الفلسفية .

علينـــا أن نعـترف ، على كل حال ، أنـه في حين يأخـذ مفهـوم الانســان في الفيدانتا والصوفية مكانة رفيعة فإنه لا نستطيع أن نتهرب من أن كلا الفلسفتين اذا لم تضعا حداً لامكانية الانسان فإنهما من جهة ثانية تشيران الى عنصر القدرية الذي يحد من قدرة الانســان . وتفســر هذه المفـارقة يوجد في مفهوم علاقة الانسان بالله . مادام الانســان هو من فيض الألـوهيـة . فإن كل مايفعله الانسان هو من فعل الله . وكل ما يحدث هو من ارادة الله ومن هنا اذا خطونا خطوة أخرى لفكرنا أن الانسان ليس الا لعبة بين يدي القدر.

لقـد قيـل إنـه طالمـا أن مفاهيم الفيدانتا والصوفية في شكليها الصامتين كانا

مسؤولين عن بعض ما بلغه الانسان من رفعة روحية فإنهما لعبا الى حد مادور العائق لتقدم الانسان في الجانب المادي من الحياة. التأكيد على وحدة الانسان مع الله جعلت المجتمع غير عابىء نسبياً بالمعاناة الانسانية، تلك المعاناة اعتبرت مجرد وهم. لذلك نجد أن المجتمعات الشرقية غالباً ما تكون لا مبالية تجاه إزالة أسباب الأمراض الاجتماعية. هذا يفسر لماذا بعض المفكرين المعاصرين يبحثون عن صيغة لفلسفة الفيدانتا من غير قدريتها.

نجد مفارقة مشابهة في المفهوم الغربي للانسان. فلسفة المادية تبدو للوهلة الأولى أنها تشير الى صورة حتمية للحياة. طالما أن قانون السببية يتحكم بالعالم المادي فإن القانون نفسه يمكن أن يطبق على أعمال الانسان. ونرى هذا الاتجاه في ذروته في النظريات النفسية للسلوكيين. العقل الغربي، على كل حال، حاول أن يدعم نفسه ضد هذا المفهوم للحتمية وعرض طاقة الروح التي لم تواز إلا نادراً وربما لم تسبق أبداً.

واحدة من مهام هذه الندوة الرئيسة هي وجوب فحص كيف يمكن أن نؤلف ما بين هذين المفهومين اللذين أثرا على الصورة الفلسفية والدين في كل من الشرق والغرب. إذا ما اتحد مفهوم مكانة الانسان الشرقي مع مفهوم التقدم لدى الغرب فستفتح للانسان امكانية التقدم اللامتناهي بدون المخاطرة المتوقعة من اساءة استخدام العلم ويمكن أن تشير الى مخرج من القدرية التي يبدو أنها استتبعت المفهوم الشرقي لوحدة الانسان مع الله، إن مفهوم مكانة الانسان الشرقي لا يتوافق مع التقدم العلمي الغربي بل في الواقع يقدم توضيحاً ذكياً عن كيف يكون التقدم العلمي ممكناً اذا كان الانسان مجرد حيوان متطور فإن هناك حدوداً لتقدمه. اذا كان يشارك الله خلوده فليس هناك حدود للتقدم الذي يمكن أن يحرزه. يمكن أن يسير العلم من نصر الى نصر ويحل كثيراً من الألغاز التي تقلق الانسان حتى أيامنا هذه.

هناك سبب آخر: حول لماذا تأخذ المطابقة مابين مفهومي الشرق والغرب عن الانسان أهمية خاصة لمستقبل الانسان. العلم لوحده حيادي. مكتشفاته يمكن أن تشفي أو أن تقتل. انها تعتمد على صورة المستخدم وعقليته فيما اذا كان العلم سينشيء جنة جديدة على الأرض أو يدمر العالم بحريق شامل. إذا ظننا الانسان مجرد حيوان تقدمي فليس هناك مايمنع استخدامه للعلم لإرضاء رغبات مبنيّة

على عواطف يشارك بها الحيوان . واذا، فكرنا على أنه من فيض الله فإنه سيستخدم العلم لأغراض إلهية وهي تحقيق السلام على الأرض والخير لكل الناس.

## ٣

حاولت أن أشير الى أن مفهوم الانسان في الشرق والغرب متكاملان بشكل ما، اذا كان أحدهما يؤكد روعة وجوده الذاتي، فإن الآخر قد أكد على التقدم الذي حققه ويمكن أن يحققه بجهوده الخاصة. اذا ما أكد أحدهما على العناصر الروحية لطبيعته فإن الآخر قد أشار الى أن الروعة الروحية لابد أن تستند على أسس مادية. اذا ما كان ممكناً التوفيق ما بين المفهومين على الرغم مما يؤكدان عليه كل على حده، فليس من سبب لعدم توافق فلسفة التربية في كل من الشرق والغرب في فلسفة للتربية أشمل لكل العالم.

في كل من الشرق والغرب أنظمة التربية الشائعة سببت عدة مفارقات. في الشرق نجد تركيزاً غير متناسب على الخلاص الفردي. يسعى الفرد للمعرفة كوسيلة لمنفعته الفردية. طريقة التفكير الشرقي بارتباطها المسبق في الخلاص الفردي لم تعط الاهتمام الكافي أحياناً للرعاية الاجتماعية والتقدم. في الغرب على العكس هناك تأكيد أشد على الحاجة الى التقدم الاجتماعي. في الواقع، الأخذ بعين الاعتبار السعادة الاجتماعية قادت في بعض الأحيان الى نمو مجتمعات شمولية أصبح فيها الفرد مضطهداً. اليوم وقد أصبح الشرق والغرب يتقاربان من بعضهما من خلال عمليات العلم، فمن الضروري بأن الميل، سواء كان لصالح الفرد أو المجتمع، يجب أن يصحح. ويجب أن يطور نظام تربوي يولي الاهتمام الواجب لكلا الفرد والقيم الاجتماعية.

هنا تكمن أهمية التربية في العالم المعاصر. لقد أظهرت التجربة أن التربية تؤثر بعمق في تطور الأفراد ومن خلال الأفراد في المجتمعات. فإذا كان الفرد ذا شخصية غير مندمجة فإن المجتمع لا يمكن أن يكون منسجماً. وظيفة التربية في العالم المعاصر لذلك هي بناء الأفراد المندمجين وفي مجتمع مندمج ومفهوماً من الشرق والغرب وكلاهما يجب أن يسهما في مثل هذا التطور.

وقبـل أن أنتهي هنـاك مشكلة أخرى بودي أن ألفت انتباهكم اليها . يطرح دائـماً سؤ ال فيـها اذا كانت التر بية وسيلة أم غاية . يمكن أن أقول بشكل عام : نظر

الغرب الى التر بية على أنها وسيلة في حين أن الشرق نظر اليها كغاية . إذ نظر الى التر بية كوسيلة فإن السؤ ال ينطرح ماهي الغاية من هذه الوسيلة . غالباً مانظر الى الـرعـايـة الاجتـماعية كغاية لكن الرعاية الاجتماعية هي مفهوم يمكن أن يترجم في عدة سبـل ، في كل الأحـوال الميل الى اعتبار التر بية وسيلة يقود إلى نوع من التقليص لقيمـة الـتر بية . وأنا أميل الى الظن بأن المفهوم الشرقي يظهر فهما أصدق لطبيعتها الحقيقيـة . بالنظـر الى الـتر بيـة على أنهـا غايـة فنحن نضـع المعرفة في منزلة القيم العليـا . ولا أظن أن أي مفكـر غربي يمكن أن ينكر أهمية المعرفة لكن قيمتها لاتعطى حقها من التقدير الكافي إلا إذا اعتبرت التر بية غاية في حد ذاتها وأكثر من ذلك ، بهذا الاقــرار يبر ز الكيــان الانســاني . ومن وجهـة النظـر هذه أيضـاً فإني أميـل الى التفكير بأن يجب أن ينظر الى التر بية كغاية لامجرد وسيلة من أجل انتفاع خارجي .

## ٤

أوجز . في المفهوم الشرقي : الانسان هو من فيض الله ويشاركه صفاته الأزلية وهـو قادر على الحصـول على السيـادة على الخليقـة بكاملها . في المفهوم الغربي ، الانســان حيـوان بلا شك ولكن ليس هنـاك حدود للتقـدم الـذي يريـد في الميـدان المـادي . وأن انجـازاتـه العلميـة برهـان منظور على تفوقه على بقية الخليقة ، ووهبته السيطـرة على السماء والبحـر والأرض . لذلـك يمكننـا القـول إن الممارسة الغربية أعطت الصفـة المـاديـة للدعوى الشرقية التي صنعتها النظرية الشرقية حول احترام الانســان . ومـا دام ، على كل حال ، المفهوم الغربي لم يؤكد على الأصل الروحي للانسان ، فإن انتصاراته العلمية أصبحت هي ذاتها مصدر خطر على بقائه ، لذلك إذا مااستخدمت الانجازات العلمية الغربية بالروح الشرقية عن اتحاد الانسان بالله فإن العلم سيصبـح أداة لاللتـدمـير بل من أجـل نشـر الازدهـار الانسـاني وترسيخ السلام والتقدم .

## مولانا أبو الكلام آزاد

## الفن والشعب

الحاجة العليا في العصر الحديث هي لتفاهم أوثق بين شعوب مختلف بلدان العالم. لقد أدت المكتشفات العلمية الى تغير ثوري في وسائل الاتصالات والنقل المسافات التي كانت تقطع بأشهر أو بسنين تغطى اليوم بساعات. يلتقي الناس من مناطق بعيدة في العالم اليوم بسهولة أكثر من التقاء مواطنين من أحياء مختلفة من المدينة الواحدة. جمع العلم الناس ببعضهم مادياً لكن هل كان قادراً على اختراع آلة تجمع قلوب الناس وتؤلف بينها؟ علينا أن نقول بأسف: ـ لا.

في حين أخفق العلم في ايجاد وسيلة لتوحيد القلوب البشرية فإننا نتذكر بسعادة أن الحياة في مجراها الخاص قد قامت بذلك لقرون. العلاقات الثقافية بين البلدان المختلفة وبين الأمم المختلفة يعود تاريخها الى البدايات الأولى للتاريخ. في الواقع حتى قبل فجر التاريخ المدون، قامت الصلات الثقافية بين شعوب مناطق مختلفة. كيف تطورت تلك الصلات بالرغم من صعوبات التفاهم؟ واحدة من كبريات أسرار التاريخ غير المحلولة. منذ خمسة آلاف سنة. طورت الهند في (موهن جودارو) حضارة تظهر علامات واضحة عن علاقات مع بلاد بعيدة مثل مصر وبلاد ما بين النهرين. هناك اشارات تدل على أن هذه الصلات قد توسعت طولاً وعرضاً بالرغم من عوائق المسافة وصعوبات التفاهم.

إن أقام الناس علاقات في أيام كان فيها السفر صعباً فعلينا أن نعمل على اتصالات أوثق في اليوم الذي فقد فيه السفر صعوبته. في الماضي زادت هذه الاتصالات من غنى الحياة البشرية واليوم وقد ربط العلم العالم بوحدة متماسكة فإن

هذه الاتصـالات ضروريـة لا لمجـرد اغناء الحياة بل، يمكن القول، من أجل بقاء الانسـانيـة. لقـد وضع العلم في يد الانسان قوى هائلة تدميرية تتطلب من الناس من مختلف العـروق والبلدان أن يتعلمـوا كيف يعيشـون بصـداقة وود إذا أرادوا أن يعيشوا حقاً.

* * *

مبـدأ أن الفن للشعب يقـرر ملاحظـة الحقيقـة ذاتهـا. إنـه يعلن أن الفن الحقيقي يعكس ما يحبه الفرد وما لا يحبه ويخدم التعبير عن المشاعر التي هي عامة. وهـو أيضـاً يشـد الانتبـاه الى حقيقة أن كل الفنون العظيمة هي تربوية بكل معنى الكلمـة. إنهـا تصفي المشـاعـر وتسمو بها وتربي الحواس والخيال، والمتعصب لمبدأ الفن للفن لن ينكـر للحظـة قيمتـه الاجتماعية الرابطة. إنه فقط حين يترجم مبدأ «الفن للشعب» ليعني أن الفن يجب أن يرضي أية نزوة عابرة أو رغبة لدى العامة فإن المبدأ هذا يفقد معناه ويصبح مذهباً خاطئاً.

* * *

يمكن أن يقسم العـالم سيـاسيـاً الى معسكرين متنافسين. يمكن أن يكون صراع ايـديـولوجيات حول المصالح المادية المحضة، أمّا في عالم الروح، في الإبداع الفني، والفلسفـة، والأدب والقيم الأخرى فإن البشرية واحدة. في هذا الحقل كل في الفن التي يعـود إلى ماضي سحيق يمكن أن تكون حافزاً للفنانين الروس وأنا على يقـين من أن معـرض أعـمال الفنـانـين السـوفييت العظـام المعاصرين سيكون عوناً لفنانينا الشباب*.

* من خطاب في افتتاح معرض الفنون الجميلة السوفيتية نيودلهي آذار ١٩٥٢

**مولانا أبو الكلام آزاد**

## التواترات والنظرة الغاندية

ان افتقار الانسان للمعرفة لم يمكنه من استخدام موارد الطبيعة الاستخدام الكامل. وقد كان هذا سبب غالبية الحروب في الماضي. تستطيع أمة أو فئة أن تكفي نفسها وتؤمن احتياجاتها بانتزاع ما لدى الآخرين. إن الطعام أو المرعى كانا نادرين والوسائل الوحيدة للتغلب على ذلك هي في الاحتلال بالقوة لحقول أو مراعي الآخرين. أما اليوم فإن التقدم العلمي خلق ظروفاً يمكن فيها أن تؤمن المطالب المشروعة للانسان. نحن نعيش الآن في اقتصاد الوفرة الزائد عن حاجة المرء. لقد كشفت أسرار الطبيعة الواحد تلو الآخر وجعل ذلك بمتناول الانسان الثروة الخبيئة الهائلة من الموارد الطبيعية. ومأساة الوضع الحالي على كل حال، أن هذه الزيادة في المعرفة والسيطرة على الطبيعة لا تستخدمان كثيراً لأغراض بناءة في المجتمع بل تستخدمان لزيادة قدرة الانسان على التدمير. طاقة الذرة قد اكتشفت ويمكن لهذا أن يجعل الراحة والوفرة بمتناول الجميع. نحن على كل حال، نركز على استخدام الطاقة الذرية بشكل رئيسي لخلق آلات تدمير مخيفة. اللاسلكي قد قرب البشر الواحد من الآخر ولكن عوضاً عن أن نستخدمه لتقوية روابط الصداقة بين الناس نستخدمه كوسيلة للدعاية للكراهية والخصومة. الطائرات تستخدم بصورة رئيسية لتطوير الهجوم في الحرب الجوية. معرفة أوسع بالجراثيم والبكتريا تعد بالسيطرة على المرض والمعاناة، لكن مثل هذه المعرفة يسعى نحوها من أجل تطوير استخدامها كسلاح في الحرب البكتيرية. إن هذا ليس لأن هذه الاكتشافات غير ذات نفع، بل أن هذا الاستخدام يهدف الى تطويرها الى أسلحة

لدمار الانسانية .

منذ مطلع هذا القرن والتطويرات التكنولوجية والعلمية ميالة الى جعل الحرب والسلم على تماس مع كل العالم . في الماضي قد تكون بعض المشاكل قد حلت بوساطة الحرب . وفي كل الحالات هذه الحروب ظلت محدودة في قسم من العالم . اليوم واضح أنه ما من مشكلة يمكن أن تحل بالحرب ،إذا ما قامت محاولة لحل المشاكل بوسائل الحرب ، فالنتائج تمتد الى خارج حدود الأمم المعنية وتورط كامل البشرية . لقد بلغت الحرب مستوى يجعلها تفلح فيتكثيف الكراهية بين الأمم وتقود الى أحقاد أخرى . لذلك فإن نتيجة الحرب اليوم تقوية الدوافع الانتقامية والعقابية . القوى التي انطلقت تجعل من كل حرب مقدمة إلى مزيد من الحروب الشاملة .

* * *

الاقرار بالعدالة على أنها قيمة مطلقة يعني استبدال الحق بالقوة . هذا أيضاً يؤدي الى أن الغايات لا يمكن أن تبرر الوسائل . المبدأ الرئيسي في فكر غاندي أنه لايكفي أن نهدف الى الحقيقة والعدالة لكن يجب أن نتبنى وسائل عادلة وصادقة . لذلك ما من خيار أمام العالم اليوم إلا العودة الى تعاليم غاندي وأساليبه لينجو من الكارثة . كان غاندي يعظ بأن العنف والحقد لم يحلا مشكلة ويمكنهما فقط أن يقود الى ببؤس أشد . وهولذلك طالب الناس بتسوية خلافاتهم بضوء العقل والعدالة . دروس التاريخ تؤكد أقواله ، لأن التاريخ مليء بالصراعات المدونة التي بدت وكأنها ستنتهي بالنصر ولكنها كانت فقط مقدمة لصراعات أخرى ، وكما حدث غالباً ، وانتهت بهزيمة مرة .

في الجوهر رسالة غاندي ليست جديدة انها الرسالة التي قدمتها الهند للعالم قبل ست مئة سنة من ميلاد المسيح من خلال (غواتامابوذا) . تلك كانت الرسالة التي أعطاها المسيح للعالم على جبل الزيتون . لقد قيل دائماً إن المسيح كان المسيحي الأول والأخير . هذا ، على كل حال ، لا يبدو صحيحاً كلية . اذا نظرنا الى تاريخ الكنيسة المسيحية ، وجدنا أنها استطاعت البقاء ونجت من ملاحقة الامبراطورية الرومانية وفي الواقع انتصرت عليها لا باستخدام القوة والعنف بل باستعدادها لمعاناة الاضطهاد بل حتى الموت من أجل مثلها . حتى حين أصبح هؤلاء

المسيحيون الأوائل أقوياء امتنعوا عن استخدام القوة. عبر ترتليان عن هذا الموقف في كلمته التي دافع فيها عن المسيحيين ضد اتهامات الوثنيين وفي خطاب الى القضاء قال: «أصلنا جديد لكننا سلفاً نملأ كل ما تعرفه قواكم - المدن، القلاع. الجزر. المقاطعات، مجالس الشعب، حراس روما، والقصر والشيوخ والأماكن العامة وخاصة الجيوش. لم نترك لكم شيئاً سوى معابدكم. تأملوا أية حروب نحن قادرون على شنها. أية قوة منعتنا عن تسليح أنفسنا؟ ألم يكبحنا ديننا الذي يعظنا بأنه خير لك أن تقتل من أن تقتل؟»

ظهر الاسلام الى مسرح الحياة بعد ستة مئة سنة من قدوم المسيح. حين بدأ رسول الاسلام دعوته في مكة هبت كل البلدة في معارضة حازمة وعملت على كم تعاليمه بواسطة العنف. والملاحقة أصبحت مريرة بحيث أصبح مستحيلاً عليه وعلى أتباعه البقاء في مكة وصار عليه أن يهاجر الى المدينة. مد نفر من أهل المدينة له عونهم لكن قريش مكة ما كانوا ليسمحوا له أن يعيش في سلام حتى هناك. هيأوا حملة وقاموا بهجوم عنيف عليه. فما كان من النبي إلا أن يشهر السيف للدفاع عن النفس. لابد أنه كان قد تدرب على السلاح إلا أن الروح التي فعل بها ذلك ليس لها نظير في كل حروب العالم. لقد كان رسول الاسلام مجبراً على حمل السيف لكن لم يكن هناك حقد أو رغبة في الانتقام في عملياته العسكرية. حتى في قلب الصراع، حين هوجم هو وصحبه بعنف وعانى هو نفسه من جراح في جسده ظل يقول: «اللهم أهدِ قومي الى طريق الحق فإنهم لا يدرون ما يفعلون».

هل يستطيع خيط رقيق من الحقد أو النية السيئة والحقد أن يعلق روحاً تطلق حتى في مثل هذه الحالة العنان لهذه العواطف النبيلة.

ثم جاء اليوم الذي عاد فيه منتصراً الى مكة على رأس الآلاف من أتباعه المؤمنين. كانت تلك مناسبة يستطيع فيها الانتقام من ملاحقتيه واضطهادهم. لم تخطر بباله فكرة كهذه ولا للحظة واحدة. لقد سامح من دون أي تحفظ عقلي كل اولئك الذين لم يتركوا وسيلة لعشر سنوات لاضطهاده وأصحابه إلا وفعلوها. لقد قال لهم: سأفعل بكم ما فعله يوسف باخوته الظالمين. حين جيء بهم الى يوسف في مصر قال: «هذا ليس يوم القيامة لكم، فليغفر الله لكم والمغفرة حقاً بغير قياس».

في أيامنا هذه رأينا تولستوي يقدم الرسالة نفسها في معارضة الشر بالخير رغم أنه لم تتح له فرصة وضع هذه النظرية على المحك.

عظمة غاندي تكمن هنا أنه دعا الى اللاعنف لا كفكرة نظرية فحسب بل كبرنامج عملي. في الواقع كانت حياته مثالاً مضيئاً لهذا المبدأ ولهذا استطاع أن يحول الجماهير العريضة من البشر الى طريقة تفكيره. بفعله ذلك قدم غاندي للعالم بديلاً أخلاقياً عن الحرب، حتى زمنه حتى المفكرين الذين عرفوا قسوة الحرب ما كانوا ليستطيعوا تقديم بديل عنها، في برنامجه عن اللا تعاون ـ اللاعنف. أظهر غاندي السبيل إلى كيف يمكن أن يواجه الخطأ دون اللجوء الى السلاح. لم يكن سبيلاً هيناً ولا نعرف حتى الآن كيف يمكن أن يطبق هذا الاسلوب في تسوية النزاعات الدولية. وطالما، على كل حال، أنه ليس هناك من بديل. اذا كان للبشرية أن تبقى فيجب أن نجد طريقة لنشر تطبيقاتها في جميع ميادين الصراع*.

---

* من كلمة افتتاحية في ندوة عن اسهام النظرة الغاندية وأساليبها في حل التوترات ما بين الأمم وداخل الأمة الواحدة نيودلهي، كانون ثاني ١٩٥٣.

## مولانا أبو الكلام آزاد

### دور الفن، والمسرح، والموسيقى

للهند ان تفتخر بعراقة تراثها وتقاليدها في حقل الرقص، والمسرح، والموسيقى. في حقل الفنون الجميلة كما في الفلسفة والعلم، تحتل الهند واليونان مكانة فريدة في التاريخ الانساني. وقناعتي أنه في ميدان الموسيقى انجازات الهند أعظم مما حققته اليونان. الاتساع والعمق في الموسيقى الهندية ربما كان لا يبارى في تزاوج الصوت والآلة.

جوهر الحضارة الهندية وثقافتها كان دائماً روح التمثل والاتحاد. ولا يظهر ذلك جلياً أكثر من حقل الموسيقى. ان اتحاد الأساليب الفارسية والكلاسيكية الهندية خلال العصور الوسطى ولّد نمطاً من الموسيقى يربط بين روعتها. حين جاء المسلمون الى الهند كانت الموسيقى الفارسية ذات نظام متطور لكن لم يحتج المسلمون الى وقت طويل ليكتشفوا المزايا الخاصة للموسيقى الهندية. لم يتبنوها كموسيقاهم فقط بل أغنوها بمزج عناصر من التقاليد الفارسية. ومنذ ذلك الحين لم يتطور كلا النظامين تطوراً منفصلاً، لكن في داخل الهند نشأ جدول متحد في غناه وروعته فاق غنى وروعة السواقي التي أنشأته.

أمير خسرو اسم معروف لكل دارس لتاريخ الهند. كان شاعراً عظيماً لكن عبقريته الخلاقة تركت آثارها على ميادين أخرى مثل الفنون الجميلة. في الموسيقى أبدع أشكالاً من خلال المؤالفة ما بين الألحان الفارسية والهندية، (ايمان، ترانا، قول، سازغرني، سوهلا) وألحان أخرى. التي يغنيها اليوم ملايين الهنود هي شواهد حية لهذه العبقرية ولقدرته على التوليد. في ميدان موسيقى الآلات فهو

الذي ابتكر (السيتار). لقد وجد (الفينا) شديدة التعقيد والتركيب فبسطها بتقليص عدد الأوتار الى ثلاثة فقط. اسم سيتار الذي يعني في الفارسية الأوتار الثلاثة شاهد على هذه الحقيقة.

الاتجاه ذاته في التبسيط والتطوير تأسس في الموسيقى الصوتية. سلطان حسين شارقي ملك الجونبور كان عاشقاً عظيماً للموسيقى وهو الذي قام أسلوب (الخيال) في الموسيقى الهندية. كان الأسلوب القديم للدروباد أصعب وأقسى من أن يعبر عن العواطف. في (الخيال) استكمل اسلوباً يتمتع بوقار الدروباد بدون قسوته وأصبح من أحب الأشكال في الموسيقى الهندية.

نجد روح التمثل والاتحاد نفسها في تطور الآلات الموسيقية الهندية المختلفة. هناك الطنبورا بأنماط متعددة كانت ذات شعبية في ايران وتبنتها الهند واقتبستها لتتلاءم مع متطلباتها. وهناك آلة فارسية أخرى هي القانون لايزال يعزف عليه سكان كشمير حتى يومنا هذا. لذلك ليس من مثال أنصع على الثقافة الهندية التأليفية من ميدان الموسيقى. والتعاون مابين الهندوس والمسلمين قرابة ألف سنة قد ولّد مزيجاً ربما ليس له مثيل في العالم.

لا نعرف كل تاريخ تطور المسرح. الابحاث الجديدة في الدراسات التاريخية المصرية في الخمسين سنة الأخيرة تشير الى أن المسرح كان شائعاً في مصر لآلاف السنين قبل قدوم المسيح. اذا قبلنا نظرية بريستد فسيبدو أن المسرح الممفي قد حقق تطوره في الألف الرابعة قبل الميلاد. في ٨٠٠ ق.م استعادت التقاليد نشاطها بأوامر شاكابا الفرعون الحبشي. ولقد بقيت حية من احدى المسرحيات بضع فقرات. في بابل ونينوى كانت الاحتفالات الدينية يرافقها المسرح. كل ذلك يشير إلى أن كما في ميدان العلم والفلسفة تلقت اليونان الالهام وكذلك النماذج من التقاليد المصرية الأقدم منها.

ولا شك في أن اليونان طوروا المسرحية، بغض النظر عن المصادر التي استلهموا منها، ووصلوا بها الى مستوى لم يتجاوزه أحد. المقارنة في هذه الميادين مجحفة، ولكننا لا نزال نستطيع القول بأن كاليداسا يمكن أن يقارن مع العظماء من كتاب المسرح اليونانيين. لدينا أيضاً أعمال بهاساويهافابوتي، وبانبهاتا الذين رفعوا المسرحية الهندية الى مستوى ربما ليس أقل مما وصل اليه المسرح اليوناني. وفي ميدان نظرية المسرح فإن الانجازات الهندية لا تزال خارقة وتخدم كنماذج حتى يومنا

هذا.

في ميدان الرقص، فإن التنوع في الاساليب الهندية قد شد انتباه كل دارسي الفنـون والثقافة. إن مدى الرقص الهندي امتد من الأساليب الكلاسيكية الصارمة وتطـور في المعـابـد بما فيهـا من تنـويعـات التعبير والتشكيل، الى الايقاع المدهش والانسيـاب في الـرقصـات الشعبيـة في مختلف مناطق الهند، وفي تنوعاتها تبر زغنى الاشكـال التي ينـدر أن نجـد مثيـلاً لها في أمكنة أخرى من العالم. والأكثر عجباً هو استمرارية هذه التقاليد والقوة التي تعرضها الى هذه الأيام.

هذا الـتراث الثمـين من الـرقص والمسرح والموسيقى واحد مما يجب علينا أن نرعى ونطور. يجب أن نقوم بذلك لا من أجلنا نحن بل أيضاً من أجل اسهامنا في التراث الثقافي للبشرية. ليس أكثر صحة من ميدان الفن، انه لكي تبقى عليك أن تبـدع. التقـاليـد لا يمكن الحفاظ عليها لكن يمكن ابداعها من جديد. وسيكون هدفاً لأكاديميتنا أن تحافظ على التقاليد بإضفاء صيغ مؤسسية عليها*.

* من خطـاب ترحيبي في افتتـاح الاكـاديميـة الهنـدية للرقص والمسرح والموسيقى نيودلهي كانون الثاني ١٩٥٣.

## مولانا أبو الكلام آزاد

# دور الفن البصري

كنت دائماً صاحب الرأي، بأنه بغض النظر عن القيمة التي يتمتع بها الفن لذاته. فإنه عنصر أساسي في التربية لانه يطور المشاعر والحساسية الجمالية لدى الانسان، يمكن أن اذكركم بما قلته في مؤتمر في كالكوتا دفاعاً عن الفن في التربية والحياة.

«لقد تبين اليوم أنه مامن تربية تبلغ درجة الكمال اذا لم تول اهتماماً خاصاً لتطوير وتنقية العواطف. يمكن لهذا أن يتحقق بأفضل ما يكون عن طريق تقديم التسهيلات لتدريب الحساسيات بممارسة أحد الفنون الجميلة. وبعيداً عن المسألة العامة لتطوير المظاهر الأجمل للشخصية من خلال التربية الفنية، هناك فائدة مباشرة لمثل هذه التربية في تطوير المهارة اليدوية والحساسية النافذة. لقد أقر اليوم بأن التربية ما قبل المرحلة الابتدائية أو مرحلة الحضانة يمكن أن تتم عبر تدريب الطفل على مقابلة الألوان والأشكال والحجوم. ذلك يحرر غريزة الابداع لدى الطفل ويمتص الفائض من طاقته السطحية من القنوات الهدامة الى القنوات الموافقة للسلوك الاجتماعى والتقاليد الاجتماعية.

وهكذا، سواء من وجهة نظر تدريب العواطف وتنمية المشاعر أو تطوير المهارة اليدوية والحس الابداعي فإن أهمية الفن كعنصر في التربية أمر لا جدال فيه*.

---

* من خطاب في اجتماع في أكاديمية لاليت كالا (الأكاديمية الوطنية للفنون) نيودلهي آب ١٩٥٤.

# د. سارفيبالي راداكريشنا

د. سارفيبالي راداكريشنا

# روح العالم التي لمّا تولد

محاولـة فهم المـرء لعصـره مهمـة ملأى بالصعـوبـات. لا أحـد وهو يحيا فيه يستطيع أن يراه بشكل منفصل عنه. مهما كان الأمر، كمخلوقات عاقلة لا نستطيع إلا أن نسأل على ماذا تدل الحياة المعاصرة بكل نشاطها المكثف وتغيرها السريع، مامعناها كلها؟ لأنه، كما يقول سقراط لنا: إن أنبل الأبحاث هي دراسة ماذا يجب أن يكون عليه الانسان وماذا عليه أن يسعى نحوه.

ليس التـاريـخ الانسـاني سلسلة أحداث دنيوية لا ينظمها ناظم، إنه عملية ذات معنى، تطـور مفهـوم. أولئـك الـذين ينظـرون اليهـا من الخـارج يؤخـذون بالحـروب والمعـارك والاضطرابات الاقتصادية والتقلبات السياسية، لكن تحت كل ذلك في العمق تُرى المسرحية الكبرى الحقيقية، التوتر ما بين جهد الانسان المحدود وبين الهدف الأسمى للكون، لايستطيع الانسان أن يخلد الى الراحة وسط مسائل غير محلولـة، عليـه أن يبحث عن الانسجـام وينـاضـل من أجـل التـوافق. تقدمه موسوم بسلسلة من التكاملات والاتحادات. وبتشكيل المزيد والمزيد من العلاقات المنسجمـة والشـاملة، وحـين يلحظ أن تكاملاً ما غير ملائم للظروف الجديدة فإنه يخرقه ويتقدم الى الكل الكبير. في حين الانسانية دائماً في حركة فإن بعض الفترات تبرز موسـومـة بوضـوح كفـترات تغـيرات ثقـافية حادة. القرن السادس ق. ب. الانتقـال من العصـور القـديمـة الى العصـور الوسطى ومن العصور الوسطى الى الأزمنة الحديثة في أوروبا هي فترات من هذا القبيل. وعلى كل حال لا يمكن أن يقارن أي منها بالتوتر والقلق الشائعين لدى الأشخاص في العالم و اللذين امتدا الى

كل مظاهر الحياة الانسانية. يبدو أننا نشعر أن نهاية فترة حضارية تتشكل ملامحها في الأفق.

لأول مرة في تاريخ كوكبنا يصبح سكانه كلًا واحداً. كل من فيه وكل جزء منه يتأثر بمصائر الآخرين أيا كانوا. العلم والتكنولوجيا، دونما استهداف لهذه النتيجة، حققا الوحدة. الظواهر السياسية والاقتصادية تفرض علينا بشكل متزايد واجب التعامل مع العالم كوحدة. التيارات تواصلت، والتجارة عالمية والمصائر السياسية تعتمد على بعضها. ومع ذلك فإن معنى أن تشكل البشرية مجتمعاً لا يزال نزوة طارئة. تطلع ضبابي غير مقبول بشكل عام كمثل أعلى وجداني أو ضرورة عملية ملحة تدفعنا للشعور بكرامة المواطنة العامةوصرخة الواجب العام. لقد أثبتت محاولات ايجاد وحدة انسانية عبر وسائل آلية، عبر التوافقات السياسية أنها محاولات مجهضة إنه بالارادات وحدها. يمكن أن تتحقق وحدة البشر الخالدة.

قدر الجنس البشري، على مستوى الفرد يعتمد على اتجاه قوى حياته، والأنوار التي تهديها والقوانين التي تشكلها. هناك منطقة خلف الجسد والعقل، فيها تجد الروح الانسانية تعبيرها في التطلع، لا في الصيغ. المنطقة التي دخلها أفلاطون حين وضع اسطورته. يطلق عليها اسم روح الوجود، المبدأ المصمم للجسد والعقل. في أرواح الناس هذه الأيام موجات متضاربة للون والعرق، الأمة والدين، والتي تخلق خصومات مختلفة، وأساطير وأحلام تقسم الجنس البشري الى جماعات عدوانية. الصراعات في الشؤون الانسانية هي بسبب الانقسامات في الأرواح الانسانية. ذهن الانسان العادي عموماً يحترم الواقع الراهن ولا يميل الى المغامرات العظمى. التي يجب أن يتخلى فيها عن أمان الماضي وعزلته. لم تتكون لديه القناعة بهذا الانقلاب الاخلاقي للنظام القائم المسترخي في دائرة الأنانية الوطنية مواجهاً بالمخاوف المتعددة والتردد، بالمعاهدات الهشة وقرارات المحافل الدولية العاجزة، يسأل أفلاطون في «الجمهورية»: «هل تتخيلون أن الدساتير السياسية تنبع من شجرة أو صخرة لا من سوء وضع المواطنين الذي يميل بكفة الميزان ويجر كل الآخرين إليها؟ الدساتير مثل البشر وتنشأ من شخصياتهم». يمكن أن يعاد بناء المجتمع إنما يتم بتغير قلوب الناس وعقولهم. مهما رغبنا في تجديد كل الأشياء، فلن نستطيع أن نتخلص من جذورنا الراسخة في الماضي.

التأثيرات المشكلة لحضارتنا المعاصرة، وروح العلم والعقلانية، الانسانية الدنيوية والدولة القوية يمكن أن يتقفى أثرها الى فترة الكلاسيكية في العصور القديمة.

وضع اليونان أسس العلوم الطبيعية للعالم الأوروبي. ان يحلل ويكتشف، أن يختبر وأن يبرهن على كل الأمور على ضوء العقل، هذه غاية طموح العقل اليوناني. لا جزء من أجزاء الحياة مستثنى من النقد، بأوامر الدولة بأوامر كتاب مقدس. كان اليونان أول من حاولوا جعل الحياة عقلانية، أن يسألوا ما هي الحياة الصحيحة للانسان؟ وحاولوا تطبيق مبادىء العقل والنظام على فوضى المعتقدات البدائية الغامضة. لقد حذرنا سقراط من الحياة غير المختبرة وعرّض شعارات عصره الى تمحيص دقيق. كان لديه ايمان ثابت أن طبيعة الانسان هي أن يفعل الصح ويمشي مستقيماً. الطبيعة الانسانية خيرة في الأساس وانتشار المعرفة سيزيل كل خطأ. الرذيلة هي هفوة فقط، خطأ. نستطيع أن نتعلم أن نكون أخياراً. الفضيلة يمكن أن تكتسب بالتعلم.

يقول لنا أفلاطون أن الفكرة الشاملة أو العامة تقرر طبيعة فرد معين وهي حقيقية أكثر منه. الفيلسوف هو الذي يسعى للهرب من مملكة اللحظة ويتأمل عالم الوجود الحقيقي متحرراً من كل التشوش والخطأ، الذي يفسد موضوعات التجربة اليومية. عالم الأفكار هو المملكة الوحيدة لليقين فيه يستطيع الانسان أن يتجول بأمان. متحرراً من الرأي والاحتمالية. وأوضح مثال على هذه الحقيقة يرى في مسائل الرياضيات العامة.

مع ذلك لم يغفل اليوناني عن أن اهتمامه الأول بالانسان في حقيقته المادية الكاملة. يجب أن تأخذ رغائبه الجسدية دورها، وقواه العقلانية كامل مداها. يجب أن يتطور كل جانب من جوانب طبيعته من أجل تحقيق الانسجام الذي لا يطغى فيه جزء على بقية الاجزاء. هناك تعريف للانسان السعيد منسوب الى (سولون) ووافقه عليه هيرودوتس «هو كامل الأطراف، غريب عن المرض، متحرر من سوء الحظ سعيد بأطفاله ويرتاح النظر إليه. اذا أنهى، بالاضافة لكل هذا، حياته بخير، فهو بحق الانسان الذي تبحث عنه الانسان الذي تنطبق عليه كلمة السعادة». لم يشتهر اليونان بعبقريتهم الدينية أو بقوتهم الاخلاقية. لا نصادف أي جوع للخلود ولا تحقيراً مؤثراً ضد الظلم. دين اليونان الرئيسي هو عبادة آلهة

الأولمب. في الأصل كانت الآلهة قدرات أو قوى الطبيعة، بالرغم من أنهم ما لبثوا أن أصبحوا يمثلون الصفات الانسانية، ديونيسيوس، أفروديت هرمز ارتيميز كل منهم يمثل صفة من صفات الانسان. كانوا بشراً خارقين متحررين من الهرم والموت. أحياناً كما عند اسخيلوس هناك إصرار على عدالتهم واستقامتهم ولكن غالباً كما عند يوريبديس، فإن الألهة يستعرضون قوتهم بسلوك يتحدى كل الاحكام المستندة الى المعايير الانسانية، بالرغم من أنه يمكن أن تكون على توافق مع سبل قوة الطبيعة. كان الاحساس بالغموض يظهر بقوة في حضور القوى الالهية مادامت تفهم على أنها قوى طبيعية.

اذا قسنا طبيعة الدين بمعنى الغموض الذي يقنع به أتباعه فإن الميثولوجيا اليونانية ليست ديناً ذا قيمة عالية. تساءل السفسطائيون حول الحق فيما يلقنه الدين لضبط سلوك الانسان. إنه في أحسن الحالات تقليد انساني. غير أنه يقل الى حد ما حين تبدو الألهة مجسدة.

المعتقدات الدينية في كل الأحوال، كانت مفيدة لأغراض سياسية. إن إلهاً أو آخر يحرس كل مدينة بعناية خاصة. كانت الاحتفالات الدينية مفتوحة لليونانيين موصودة على غيرهم. إذا ما أعدم سقراط ونفى أناكساغوراس بسبب مهاجمتهما المعتقدات التقليدية فإن ذلك تم بسبب لا وطنيتهما. لقد كان الأمر ضغطاً سياسياً أكثر من كونه اضطهاداً دينياً. لو أن السفسطائيين لم يقللوا من احترام القدماء لو أن أبيقور اعترف بوجود الألهة، على الرغم من انكاره عليهم أي دور في حكومة العالم. لو أن الرواقيين، بالعقلانية التي نادوا بها، استمروا في توظيف فاعلية الدين القديمة، لكن حدث هذا كله لأنهم عرفوا قيمة الدين الاجتماعية.

صحيح أنه عند فيثاغورث وعند افلاطون وعند الأورفيين والافلاطونية الحديثة وجدت عناصر صوفية إلا أن هذه الميول لم تكن أبداً ممثلة للروح اليونانية. بيندار وبيركليس وسقراط الذين مثلوا العبقرية اليونانية في أفضل حالاتها في رؤ اهم للفن والعلم ومفهوماتهم عن الحياة المدنية وتطلعاتهم كانوا بشكل رئيسي مفكرين انسانيين، الأديان الغامضة آمنت بتأليه الانسان واليوناني النموذجي لا يجد في ذلك نفعاً. يكتب بندار: شيئان فقط يرعيان زهرة الحياة الى أعلى درجات حلاوتها وسط أزهار الثروة الجميلة أن تحقق نجاحاً باهراً وتربح لذلك شهرة حسنة، وأن لا تحاول أن تكون إلهاً، إذا وقع جزء من هذه المكارم بين يديك فإنك قد ملكت الكل.

أشيـاء الفـانين تلائم كل الملاءمة الفناء . هناك فقرات عند أفلاطون تدعوا لئلا نثق بطبيعتنـا وأن نرى فيهـا عفنـاً لادواء له ، ويحضنـا أن نعيش في عالم المثـل ، لكنـه في ذلك لا يتحدث بصوت الروح اليونانية .

الولاء لدولة المدينة ملأت فراغ الوعي اليوناني . كانت المدينة وحدة المجتمع اليـونـاني وطـالبت بولاء مواطنيهـا . لم تكن أيـة مدينة يونانية لتقبل أن ترضخ لقيادة مدينة أخرى . الخطاب الجنائزي لبركليس يعلن أن خدمة المدن التي هي في آنٍ معاً الكنيسـة والـدولـة هي الـواجب الاسمى . مادام لكـل مدينـة وعيهـا بتفـوقها فقد أخفق اليـونـانيـون في تطوير ولاء أشمل نحو اتحاد عالم اليونان الكامل . لم يستطيعوا أن ينتظمـوا ويعملوا معـاً ، وقضـوا حيـواتهم في صراعـات الحكومات الذاتية المنفرة المتبـادلـة . صحيـح أن أفلاطون حلم بمجتمع مثالي ، غير أنه مفهوم على أنه دولة مدينـة لا جمهـوريـة للبشـريـة . وصلت الحضارة اليونانية الى نهايتها بشكل رئيسي بسبب التصاقها بدين الوطنية الزائف .

وفي حين أعطت اليونان أوروبا عادة متابعة المعرفة النزيهة إلا أنها خلقت لها أيضـاً تراثـاً سلبياً لا يدافع عنه ، وذلك في حمل الوطنية كأعلى فضيلة . ومع اختفاء دولة المدينة ماتت الوطنية اليونانية أوعاشت كروح شعبية . روما التي خلفت اليونان كانت قويـة لمدة ، لكن كان لديهـا صلة خاصة بالدولة . كانت العبادة واجباً عاماً أو وظيفـة مدنيـةيقوم بهـا كهـان رسميـون . لكن للمواطنين أن يكون لهم معتقداتهم الخـاصـة ، ما دامـوا يقـرون علنـاً بدين الـدولـة . عبـادات جديـدة أخـذت تقبل وأصبحت روما بسرعة متحفاً لمعتقدات غريبة . الى جانب ذلك ، فإن عزة الآلهة قد أصابها الضرر العظيم حين تأله ذوو السلطة المطلقة مثل يوليوس قيصر أوآغوستين ، الالـوهيـة السيـاسيـة أزالت السـرانيـة عن الـدين وحـولتـه الى نشيد وطني ، دين كهـذا لا يمكن أن يرضي أشـواق الانسـان الخـالدة ولا يؤمن الوحدة الروحية التي يمكن أن تجمـع مقـاطعـات رومـا المختلفـة . كل مقـاطعة كان لها أشكالها الدينية وممـارسـاتهـا الخـاصـة وتحتقـر ما لدى جيرانهـا وفي ساعـة محاكمتها ظهرت المحلية وأخفقت روما . ومع الزمن تهدم التقليد القديم وبدأ تيار المسيحية .

الـدافـع الحيـوي لتطـور ثقـافة القرون الوسطى ، والتي اتخذت تعبيراً جميلاً وسامياً في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كان مستمداً من مفهوم الحياة اليهودي المسيحي . بعض الهيلينيـين يميلون الى الاعتقـاد بأن تلك الحـركـة كانت مقاطعة

محزنـة للتقـدم الانسـاني . لقـد قيـل إن أوربا كان يمكن أن تكون مكاناً مختلفاً أكثر انسـانيـة ومحبـة للسـلام ، أقـل انـدفـاعاً في النزاعات العرقية والوطنية . والنزاعات الثقافية والدينية . لو أن العقلانية الأساسية والشمولية الكونية للرواقيين سمح لها أن تخمر العالم الأوروبي لو أن محاكيات ماركوس أوريلوس تحت كلية الدعوة المسيحية . مثل هذه الأقاويل بلا فائدة . لأن التاريخ له مجرى آخر . والطبيعة لها لاشك مقاصد مختلفة .

فتوحات روما العسكرية جعلتها على صلة مع المجتمعات الأخرى ، وفقرها الروحي عرّضها لتأثيرات دينية أجنبية . بعد فترة نضال انتصرت المسيحية . واذا ما حدد اغـلاق جوستنيـان لمدارس أثينا نهاية العالم القديم فإن تحول كونستاتين أعطى اعـترافـاً رسميـاً بانتصـار المسيحية . والتي مع احتفاظها بالمعتقدات اليهودية في إله حي وتوق للحق . امتصت الفكر اليوناني والتقاليد الرومانية .

مسـاهمتـاهـا الاثنتـان للفكر الأوروبي هما إصرار على عدم كفاية العقلانية وأهمية التاريخية . كلاهما اليهودية والمسيحية أخذا موقفهما عن التجلي (الوحي) . في حين كان الله ، لدى معظم المفكـرين الـروحيـين اليـونـانيين «فكرة الخير» «المحرك الأول» «المبـدأ الحـاكم» «العقـل أو اللاغوس» فقد كان لدى اليهود والمسيحيين هو العـليّ الـذي يكشف ارادته لأصحاب الشرائع والأنبياء . ويؤ من المسيحيون إضافة الى ذلـك بأن الله أخـذ شكل انسان وقاد حياة انسانية فوق الأرض . مرة أخرى في حين كان عظـماء المفكـرين الهيلينيـين لم يكن لديهم أي مفهـوم عن التاريخ كعملية غائيـة ذات اتجـاه وهـدف ، بل آمنـوا أنـه حركـة دائرية فإن اليهود كان لديهم إيمان بالانجـاز التـاريخي . الـوعي اليهـودي عاش في التـوقـع الكثيف لبعض الـوقـائـع المصير ية التي ستكون الحل النهائي للمسألة التاريخية . فكرة المخلص المنتظر، التي هي عامـل فاعـل في التـاريـخ اليهـودي بقيت على قيد الحياة في المسيحية . النظرة المسيحية تمثل مزيجاً من المفاهيم اليهودية واليونانية عن التاريخي . في أعمال القديس اغوستين، الذي وقف عند نقطة الالتقاء بين العالمين الكلاسيكي والمسيحي ، نجد الصـراع بين المفهـومين . حين رأى الكارثة الكبر ى تحدث أمام عينيه ، انهيار وموت الامـبر اطـوريـة الرومانية ونهاية ما كان يظن أنه أكثر بنيان ثباتاً رآه العالم ، أشار الى حقيقة الله الفائقة الحدود الكائن اللا متغير الفوق كل صدف وتبدلات الحياة . هذه هي الفكـرة المركـزيـة في «اعـترافـاتـه» . التأكيـد اليهـودي على التاريخي وتعاليم

المسيحية والتجسد صعب التوفيق وبين الشخصية الالهية المطلقة واللا تاريخية، كان معظم الحياة الفكرية في القرون الوسطى مكرساً لتفسير هذه المعضلة وإيجاد تبرير مقبول للتعاليم الأخرى للايمان. في الكتابات الدينية لتوما الاكويني نجد محاولة مؤثرة لبناء نظام نظرية مسيحية بمساعدة المنطق البارد للأرسطية. ورغم هذه المحاولات العظيمة فلا تزال المشكلة غير محلولة.

إن الاكتمال الشديد لفكرة محدودية الفكر التي اثيرت في العصور الوسطى ترك حيزاً ضئيلاً لحقائق غير مكتشفة وأفكار موازية.

حين مورست الاستقامة لا من أجل ذاتها بل لأنها إرادة الله فقد مورست بحماسة وعصبية غير إلهيتين بعض الأحيان. حين تعرف إرادة الله نشعر أننا مسوقون الى نشرها ونظن أنه من غير المسموح بألا تطاع والسيد الرب قد قال وهو القادر على النبوءة وحده، حين يُعطى مثل هذا الايمان، يعطي بعض اليقين والاعتقاد والحيوية الى الرسالة الدينية والتي لا يستطيع منطق تجريدي أن يعطي مثلها، فإنه في الآن ذاته يغلق الباب بوجه أي تغيير أو تقدم.

اخترع اليهود اسطورة أن ديناً واحداً فقط يمكن أن يكون صحيحاً. وفي طريق إقناعهم لأنفسهم بأنهم الشعب المختار لم يشعروا برسالة تحويل جميع العالم الى ديانتهم. أعطى اليهود للمسيحية عاطفة أخلاقية وحس التفوق. أعطى اليونان التطلعات الغامضة ولأسرار الروح شكلاً منطقياً واطاراً عقيدياً؛ والرومان بميلهم العملي وحبهم للتنظيم حولوا الايمان البسيط بالمسيح الى ارشادات صارمة. بعد زمن كونستانتين، السلطات الدينية والدنيوية أظهرت عدم تسامح منظم تجاه أشكال الايمان الديني الأخرى تحت مظلة كلمات: «من لم يكن معي فهو ضدي ومن لا ينضم إلي يتشتت».

ولهذا فالفكرة بأن المملكة ليست في هذا العالم وتفريق أوغستين بين المدنيتين يصبح العالم مظهراً زائلاً والجمال مكيدة والمسرة اغراء. أعلى الفضائل هي الامتناع عن الملذات وكبح الشهوات. «إن جاءني أحد لا يكره أباه، وأمه، وزوجه، وأطفاله، وأخوته وأخواته، نعم ولا يكره حياته أيضاً، يمكن أن يكون من أتباعي». في ظل هذا التخلي العظيم تراجعت الدوافع الاجتماعية والفضول الفكري تكاسل.

فكرة أن الدولة هي من خلق الله لقيت دعماً من الرسل ومن الكنيسة

البـدائيـة . «أعـط ما لقيصـر لقيصر» «كل السلطات هي من مشيئة الله» . لقد كان واحـداً من أولى واجبـات المسيحيـين أن يصلوا للأمراء وأصحاب السلطة الآخرين . إن سموّ الدولة يتطلب دعماً دينياً .

فتـوحـات الـرومـانيـين فرضت الـوحدة على قسم كبير من أوروبا وأعطتها حضـارة متميـزة بقـوانينهـا ولغـاتها ، القانون الروماني لا يزال يشكل أسس القوانين لعـدد من بلدان اوروبـا وقبـل نهايـة القرن الخامس انهارت الامبراطورية الرومانية الغـربيـة على أيـدي الغـزاة الشـماليـين ومـع ذلـك استمر ظلٌ لروما القديم وقوتها وأسمهـا . وبقي على قيـد الحياة في القسطنطينية . فقدت أوروبا وحدتها السياسية السـابقـة ، لكن فكـرة الـوحدة الثقافية بقيت الى حد ما في الامبراطورية الرومانية المقـدسـة . وعلى الـرغم من وجـود ممالـك واقطـاعـات محلية وكثير من الاقتتال في العصـور الـوسطى فقـد ظل ممثلوها الكبار شارلمان واوتو، بارماروس وهيلديبراند . الأكويني ودانتي يؤمنون بكنيسة واحدة وامبراطورية واحدة . واستيلاء الاتراك على القسطنطينيـة في عام ١٤٥٣ دمـر آخـر بقـايـا الامبراطورية الرومانية الشرقية معلناً البدء بمرحلة جديدة .

في حين أعطت مسيحيـة القـرون الـوسطى أوروبـا احسـاساً أكيداً بحقيقة الـلامـرئي ، الـذي يحمـل مفتاح قدر الانسان ومؤشر السلوك القويم وهذا ما أعتق حتى الفنـانـين والمفكـرين من الـوثنيـين من السطحية المقوقعة مع الذات والمكتفية بالذات ، التي فرضت على العصبية الدينية الأوروبية والتي خنقت البحث الفكري الحـر وغلبت ضيق النظـرة والظـلاميـة . لكن النـاس الذين لم تتعب قواهم العقلية والجسـديـة لايستطيعـون أن يبقـوا راضـين مع نظام كهذا . عناصر حياة أكثر حرية بدأت تؤكـد نفسهـا بالتدريج . على الرغم من أن القرون الوسطى عاشت في ظل التـاريـخ القـديم وكانت أكثر اهتماماً بأشكالها من اهتمامها بالروح ظلت من خلال نضج تدريجي للعقـل والفكـر اليـونـاني القـديم السهـل والطبيعي فإن كمال (تمام) التصـور (المفهـوم) والتجـريب أثـارا الانتبـاه ، الحـركـة السوكولانية نفسها مهدت الطريق أمام نهضة عقلية (عقلانية) . فالعقول العظيمة كان لديها إدراك للعلاقات المتـداخلة ما بين الالهي والانسـاني . يحدثنـا دانتي أن الـرحمـة الالهيـة وضعت أمام الانسـان نهايتـين : البركة في هذه الحياة القائمة على ممارسة قواه الطبيعية . والبركة في الحياة الخالدة القائمة على ثمرة رؤية الله . الدين والانسانية ليسا متضادين . كل

منهما يحتاج الى خصائص الآخر المميزة. واعتراف كل منهما بالآخر مهد الطريق للايمان بكمال الانسان والمجتمع الذي رُفّع بعد ذلك الى مرتبة ما هو مُنزّل.

عصر النهضة كان عصراً عظيماً للتفتت والانبعاث، حين انزاحت، لخير أو لشر، الوحدة العضوية للحياة في العصور الوسطى المستمدة توجيهها الديني، وولد العالم الجديد كوبرنيكوس وكولومبوس ولوثر وكالفن وغليلو وديكارت ميكافيلي وهنري الثامن. تاريخ الأربعمائة سنة الأخيرة في أوروبا كان نماء تلقائياً (مباشراً) في الحرية السياسية، الازدهار الاقتصادي والتقدم الفكري والاصلاح الاجتماعي، لكنه كان أيضاً انحلال بطيء ومؤكد للتقاليد الاخلاقية الدينية والنظام الاجتماعي. اذا كانت بمعنى ما تقدماً فهي يمعنى آخر رد فعل (تراجع) اتسم بالانفصال عن الأسس الأصيلة للحياة. وبدأت حضارة جديدة مبنية على المثل اليونانية العليا الثلاثة: الفلسفة العقلية والمبادىء الأخلاقية والسياسة القومية تزدهر.

لقد أعاد عصر النهضة لأوروبا الفضول الحر للعقل اليوناني، بحثه الشغوف عن المبادىء الأولية مع الروح العملية الرومانية وحس التنظيم للحياة في انسجام مع المنفعة (الوظيفة) الاجتماعية. ولقد توبع كل ذلك بعاطفة وجدية وبحماس ديني تقريباً، الذي كانت تملكه أوروبا خلال قرون طويلة من نظام العصور الوسطى الديني.

تحت تأثير الحركة الجديدة الهادفة الى إعادة تأهيل الروح الانسانية، باشر العلم مهمته المتحررة من الاغلال. تغيرت السماء مع كوبر نيكوس وتغير العالم القابل للسكنى بالمكتشفين وألقت منجزات العلم والتكنولوجيا العالم في وحدة محكمة الاغلاق وأخذ التاريخ الحديث ينمو بهيئة تاريخ للعالم.

الفكر الفلسفي تقولب بميزة العلم. التأكيد على العادات العقلية الموروثة عن العالم اليوناني الروماني الذي بدأ من ديكارت، الذي يرفض كل مالايستوعبه عقله، يحاول أن يضع حداً لنزوات الآراء المتعددة بممارسة المنهج النقدي. الحقيقة موجودة فقط حيث تدرك بوضوح وتمييز. وكل ماهو غير واضح وغامض غير صحيح. الحقيقة تكمن حيث يفكر البشر بشكل متشابه بأحكام ذات مصداقية شمولية. الرياضيات هي أعظم مثل عن الحقيقة النموذجية المثالية. سبينوزا مثل كانت هدف الى ميتافيزياء علمية دقيقة وألبسها أفكاره بثوب المعادلات الهندسية.

يجب أن تكون الميتافيزياء علماً محضاً ويجب ألا تحتوي أية توفيقات، يقول سبينوزا: «يمكن أن تظل الحقيقة خافية على الجنس البشري لولا الرياضيات، التي لاتتعامل مع الغايات بل مع طبيعة الأرقام وخصائصها التي تظهر للانسان معياراً آخر للحقيقة» ولذلك يبحث في موضوع الله، والفهم والعواطف الانسانية كما لوكانت دوائر ومثلثات. أصبحت الطبيعة آلة ضخمة صامتة لاتبالي بقيم الانسان. حتى لو أطلقت على الخالق اسم الله، فلن نقترب من الكائن الانساني. «لأن العقل والارادة اللذين يؤلفان جوهر الله يجب أن يختلفا بعرض السماء عن عقلنا وارادتنا ولأنه ليس هناك أي شيء مشترك معهما. إلا بالاسم كما يشترك الدب الأكبر النجمي مع الدب الحيوان». ليبنز يحطم عالم سبينوزا الواحد الى عدد لا نهائي من الأجزاء التي تتحرك حسب القوانين الموجودة الخالدة والتي ليس لها الحق ولا القدرة على أن تحيد قيد شعرة عن النظام المستقل عنها. يطرح السؤال فيها إذا كان علم ميتافيزياء ذو بناء منطقي مثل ذاك الذي للعلوم الرياضية والطبيعية ممكناً. العلوم الرياضية والطبيعية صارت ذات شخصية علمية اعتماداً على القواعد العامة التركيبية السابقة للاحكام التي تطبقها. ما دامت هذه القواعد قابلة للتطبيق فقط في حدود التجربة الممكنة فإن الميتافيزياء التي تهدف الى تجاوز الحد أمر مستحيل. التوق الى القانون، الى القاعدة يطغى على فلسفة كانت. القاعدة تعبر عن الحقيقة وتبرز السلوك. فعل ما صحيح اذا كان مبدأه يمكن أن يكون قاعدة عامة. هيغل لا يسأل اذا كان ضرورياً للمتيافيزياء أن تكون علماً، غير أنه يقوي الايمان في استقلالية العقل. عنده الفلسفة، التي هي تطور الروح الذاتي، وانكشافها الطبيعي والضروري.

المدرسة التجريبية الانكليزية يمكن أن تتخلص من كل الأفكار التي لا تتجاوب مع الحقائق الواقعية (الفعلية) وكل المقولات التي لا يمكن اختبارها بالتجربة. رغب لوك في أن يخلص الفلسفة من التأملات غير المجدية في المبهمات. بين يديه يصبح حتى العلم الطبيعي بلا يقين. فهو يقول: في الأشياء الطبيعية ستبقى المعرفة العلمية خارج حدود مقدرتنا على الوصول، مادامت الحواس هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة، وهي لا تستطيع أن تمنحنا اليقين. وعلى الرغم من أن خليفته الفكري بركلي استورد دافعاً نظرياً لتجربته واعترف بحقيقة الأرواح،

الانسانية والالهية، هيوم طور التطبيقات المنطقية للموقف التجريبي حين تركنا مع عالم من الانطباعات والأفكار حول أصل وأهمية ما نعرف يأتي بعد اللاشيء. الذين خلفوا المدارس العقلانية والتجربية اليوم محكومون بالمنهج العلمي. بعض الكتابات الحالية للواقعيين تذكرنا بالتحليل الهيومي والريبية. يقول المفكر الالماني المعاصر هاسرل إنه إنما يرغب في «اكتشاف بداية جذرية لفلسفة، ولنكرر الجملة الكانتية، تقدر على إظهار نفسها كعلم» «لأزود الفلسفة ببداية علمية» إن عصمة الكنيسة قد خضعت لعصمة العقل العلمي. وكما أنها بدورها تبدو تخيبنا فنحن في تيار رد فعل معارض لها. التيارات الفلسفية المختلفة الارادية والذرائعية والحيوية هي مؤشرات على الانتقال من المرحلة العقلانية السائدة في التطور البشري.

المحافظة على الحكمة القديمة وممارسة الفضيلة القديمة كانا طموح المفكرين الانسانيين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. لقد هدفوا الى مهرب من حياة مضبوطة بتقاليد كنسية قاسية الى حياة الحرية المبهمة والعفوية الطليقة. تصبح الحياة الدنيا الهدف لكل نضال أو فعل. الروح النقدية تساعدنا في رؤية نسبية كل القواعد الأخلاقية. نحن نرفض أن نكتفي بمجرد الأقوال عن الخطأ والصواب لكننا نسأل عن الأسباب. نحن نتوق الى التحرر من التقليد ظانين أنه حرية حقيقية. يقال إن التقاليد هي مجرد كوابح وعادات أو مجرد تشدد. فحص دقيق بارد لأعمق الأشياء التي عاشها الناس تنتهي في التجربة التحررية في الأخلاق. النقاء الفكري والفني لا يعتمد على الشبق الوحشي والعواطف الوحشية. إن الايمان بأن انتشار العقل سيوقف كل الهيجانات اللا عقلية قد اختفى. هناك مزيد من العنف، والاضطهاد والقسوة أكثر مما كان في السابق. الانسان يحاول أن يتحكم بسلوكه بوسائل خارجة عن نفسه بالتقنية لا بضبط النفس. الاخلاقية كانبعاث فردي، وتحول داخلي لم تعد مقبولة.

تحت تأثير مفهوم الديموقراطية عن حق الأفراد جميعاً كأعضاء في المجتمع بحياة كاملة والتطور الذي هم قادرون عليه كأفراد، فإن الاقتصاد الزراعي القديم للاقطاع تحطم. واقتصاد المال الجديد مع بدايات الفردية الإقتصادية والوعد بصناعية حديثة تطور. تحرير الطبقات الوسطى التي تأثرت من إلغاء امتيازات الاقطاع تلاه دعوة الطبقات العاملة الى نصيب عادل من الثروة التي ينتجونها. المحاولات التحررية لتحرير العمال من جهلهم وعزلتهم وفقرهم بواسطة تشريعات

انسانية وزيادات في الضريبة بدت وكأنها بطيئة ونظام جديد لالغاء الرأسمالية الذي قيل عنه إنه السبب الجذري لكل الشرور السياسية والاجتماعية، بالاقناع وبالأساليب الدستورية إن كان ذلك ممكناً وبالعنف والثورة عند الضرورة أصبحت أكثر شعبية. أخذ الميل الى الدولة المطلقة ينمو. ضغط المجتمع على الفرد ليس أقل حدة اليوم مما كان عليه في عهود البربرية. والنظرية القائلة بأن النظام الاجتماعي إنما مقصود به أن يساعد على تطوير الخير في أعماق الانسان الذي لم يتخلَّ عنه حتى حين كانت طبيعته تشحن بالعاطفة وجدت دعماً ضئيلاً. أصبح القسر مبرراً داخل الدولة وخارجها.

تأثير عصر النهضة ساعد على تحطيم قوة البابوية في تأسيس البروتستانتية، وحق البحث الحر. وضع لوثر الكتاب المقدس في محل الكنيسة المعصومة ورفعه على أنه التعبير الذي لا يخطيء عن علاقة الله بالانسان. الاصلاح يصر على حق عقل الفرد أن يقرر معنى الكتاب المقدس الملهم. مع أنه من الناحية النظرية قد ترك تفسير التوراة للمفكر الفرد، فمن الناحية العملية فإن الأفراد من مختلف الكنائس كان مطلوباً منهم أن يقبلوا تفاسيرهم المتنوعة لمحتويات التوراة. كل كنيسة ظنت نفسها المستودع الخاص للمعرض الحقيقي الوحيد لإرادة الله الكاملة.

من الناحية الفلسفية الهجوم قد حدث ضد الدين التقليدي. إذا كان العالم تعبيراً عن القانون اذا كان الكون آلياً في الخاصية فإن الله بالضرورة ربما أقام هذه الآلية التي تعمل من نفسها. إنه فقط مهندس العالم. توحيدية العصور الوسطى سقطت في الانكارية (إنكار تدخل الخالق في الكون) اذا كانت الآلة قادرة على العمل بذاتها فهي قادرة على تنشيء نفسها وتشرع بالعمل.

في حين يحاول فلاسفة التنوير والمثالية الألمانية أن يوفقوا بين الحقيقة المسيحية وبين مكتشفات العقل (Findings) يخرج علينا شلايرماشر للبرهان على أنها متوافقة مع شروط الوعي الديني. ريشل يحاول أن يقنعنا بأنها متوافقة مع الأعراف والتقاليد الثقافية. وهكذا اللاهوت المسيحي الذي كان تأسس مرة على فعل إلهي لا يرد يتجاوز كل القوى البشرية على الفهم أخذ يتصف بالعقلانيةبثبات وعهد به الى الأرض وأنه يمكن أن يتوافق مع الحقيقة العلمية والقيم الدينية، هكذا أصبحت القيم الدينية أكثر أهمية من الالهام ذاته. الروح الجديدة التي جادلت

في الشكـل التقليـدي للدين والـوساطة الرهبانية بين الله وبين الانسان، لم تخفق في المسير قدماً والمجادلة في الكتاب المقدس ذاته. في كل ما هو فوق الطبيعة.

الانسـانيـة هي دين الغـالبية من المثقفين اليوم. معظمنا ممن يعلن أنه متدين بفعـل ذلـك بحكم العـادة أو العـاطفة أو الكسل (القصور). نقبل ديننا مثلما نقبل وجـود مصـرف انكلترا أووهم التقـدم. نحن نزعم الايمان بالله لكننـا لا نميـل للتصـرف حسبـه. نعـرف صيـغ الفكـر ولكن ليس لدينـا مادة القنـاعة. حين فقد الناس الايمان القديم ولما لم يجدوا أي شيء صلب يضعونه في مكانه نمت الخرافات. قوى الروح الجائعة تعود لتؤكد مطالبها وتغير أسس عقلنا، الضعيف، المجروح، والمغـلوب على أمـره يتحـولـون الى التحليـل النفسي الـذي يتعـامـل مع مشـاكـل الـروح تحت قنـاع العقلانية مستخدماً ميزة العلم. إنه يخبرنا أن الانسان عقلاني في جزء منه. التعاليم السلطوية التي تعود بنا الى ايام ما قبل عصر النهضة. تروق لأولئـك الـذين يجدون حيـاة العقـل المجـرد مربكـة كل الاربـاك. تستـولي علينا الشعائر ويخضع لها بإيمان أن بعض الشيء خير من لا شيء. العصر منقسم ما بين المعـرفـة الجديدة والايمان القديم بين الطبيعية غير المؤمنة بالله الرخيصة التي عند المثقفين. والشعائر الفجة للأصوليين. وبما أن التقوى تحطمت لدى الكثيرين فقد أخذت الدولة القوية بامتصاص كل طاقاتهم وعواطفهم الاجتماعية والدينية والروحية.

الدولة التي هي أقوى مؤسسة أقل اعاقة من الشكوك الداخلية أو المراجعات الخـارجيـة. الانسـان في المجتمـع على الأقـل نصف متمدن، لكن الدولة لا تزال بدائيـة، وبشكـل رئيس وحشـاً مفترساً. ليس لدينا رأي عام قوي أو قانون روحي مؤثر (فعال) لكبح جماح الدولة المفترسة. والخوف من الهزيمة أو الانسحاق هو كل ما يمنع الانفجار.

أصبحت الأمم رمـوزاً غامضـة تحتشـد لحمايتهـا كما كان يفعـل المتـوحشـون لأوثـانهم. تدعي الأمم أن لكل منها وجودها وأنها مكتفية بذاتها ومستقلة عن الأمم الأخرى. ولقد تدربت على الاعتقاد بأنه لن يكون في العالم إفقار اذا ما فنيت الأمم الأخـرى وبقيت وحـدهـا سليمـة. يتحدث بروكليس عن أثينا فيقول: «نحن الجيل الحـاضـر قد جعلنـا مدينتنـا في كل الأمـور أكثر المدن اكتفاء ذاتياً لمواجهة متطلبات السلم أو الحـرب...» اذا كان الفـرنسي المعاصر، أو الألماني، أو الامريكي مقتنعاً

بإخلاص بأنه أكثر تفوقاً بها لايقاس من هذه «السلالات خارج النظام» ويزعم أنه نبع الحضارة العالمية ورمزكما لها، فما هو إلا الوريث الروحي لليونان واليهود. في حين كان افلاطون يعرف أن الوطنية (القومية) غير كامنة وأنها نوع من الورع الكاذب فإنه أوصى بها على أرضية النفع الاجتماعي. كان البرابرة بالنسبة له أعداء بالطبيعة، ولم يكن غير ملائم له أن يشن حرباً عليهم حتى الى درجة استرقاقهم أو استئصالهم. تأثير اليهود الذين يؤمنون بأنهم ليسوا كغيرهم من البشر ساعد على تقوية الأنانية المقدسة للأمة. بولس أكد على الانقسام حين فصل «أواني الرحمة قبل أن تهيأ للمجد» عن «أواني الغضب المعدة للتدمير» على أساس الدين، والوطنية مستخدمين للأغراض نفسها. مطابقة اليونان مع البرابرة، اليهود مع غير اليهود، الشعوب الشمالية مع غير الشمالية كلها لها نفس الملامح العائلية. ولقد سمعنا أمس قائداً عظيماً يعلن أن «المانيا هي ديننا» مجد دم وتراب ألمانيا الخالدة هو الهدف الوحيد للوجود يبرر كل تضحية بالحرية الفردية والحرية الفكرية. هذه الدعوات الرنانة للهيمنة القومية والطغيان العرقي لها أصل مشترك ولهجة مشتركة.

ما هو الوضع اليوم اذن؟ القلق، لا أدرية، حس بالقلق بأننا نسرع مشوشين الى نهايات مجهولة. في رسمة كاريكاتورية (القرن العشرون يظل على المستقبل) يرسم ماكس بير بوم شكلاً طويلاً، أنيق الملبس، متحفزاً بشكل ما مطل على مشهد عريض ويرى علامة استفهام كبيرة معلقة في الأفق البعيد مثل نجم حقود. المستقبل غير محسوب، لا نعرف ماذا نريد. في العصور السابقة كان للناس فهم واضح للهدف الذي يسعون إليه. فهو إما حياة عقلية أو انتصار للدين أو العودة للكمال القديم. نحن مدركون لخواء حياتنا ودنسها. لكن لا سبيل الى الهرب منها. ينصحنا البعض أن نتخلى عن احترامنا للعقل ونخضع للقدر. وآخرون يقولون لنا أن المهمة أكبر من قدرة الانسان وعلينا أن ننتظر مخلّصاً هو الوحيد القادر على تقويم الفوضى التي أصابت قلب الأشياء. البعض يرتد ببصيرته الى الوراء الى صور القرن التاسع عشر الرخية من الازدهار الصناعي، والتمدد الاستعماري، والانسانية التحررية، مقتنعين بأمانة بأن العالم كان في حال أفضل تحت قيادة رجال سن الولادة والنشأة، مهيأين لخوض آخر معركة من أجل السلطة والنظام. رؤيا النظام القرون الوسطى مع الكنيسة والحكم الديني العسكري والاستبداد من أجل

مبادئها الذي يواجهنا أحياناً. كل هذه الجهود هي عديمة الصلة مع زمننا. انها مثل جرعات من المورقين تمنح راحة مؤقتة وتسبب أذى دائماً للصحة. لا القدرية الراضية ولا الترقب الديني ولا الرغبة في العودة الى الماضي يمكن أن تعطي معنى لعالم في حالة بحث عن روحه. إن الموت البطيء للنظام القديم لا يجب أن يملأنا باليأس، فكما أنه قانون الطبيعة كلها أن الحياة تأتي فقط بالموت. كل حضارة هي تجربة في الحياة، مقالة في الابداع، يجب أن ترمي حين تنتهي مهمتها. وبالصبر اللامتناهي لواحد لديه الزمن السرمدي والموارد غير المحدودة تحت أمرتها، تمضي الطبيعة بطيئة مترددة، وغالباً مسرفة (مبذرة) في طريقها المنتصر. تمسك بفكرة وتأخذ بتشكيلها، وفي اللحظة التي يتم التعبير عنها، تأخذ بالكشف عن فيض أساسي، ومن ثم تدمره ثانية لتبدأ نموذجاً مغايراً. ومع ذلك بشكل ما فإن حكمة وروح الماضي تنفذ في أولئك الذين يلونهم وتلهم بتطور تدريجي الغرض من التاريخ.

اليوم لم تعد روح الانسان واقفة على أسس آمنة. كل ما حوله غير ثابت ومتناقض. روحه أصبحت أكثر تعقيداً، ونفسه أكثر مرارة ومظهره أكثر حيرة، غير أن قلقه ليس مجرد قوة سلبية. هو ليس تحت وطأة شكوك جديدة إنما يلهم بآفاق جديدة، أصداء جديدة وظمأ الى علاقات جديدة مع أقرانه من البشر. لقد وصل الى حالة متقدمة من النضج الروحي وهكذا أصبحت شرائع الديانات التقليدية غير قادرة على الاجابة على أسئلته والتغلب على شكوكه. الألم الحاضر العميق هو حقاً شكل من أشكال المخاض. العالم الجديد الذي لا يزال يقوم بصنعه العالم القديم لا يزال مثل الجنين. العناصر كلها موجودة؛ ما ينقص هو الامتزاج، الاكتمال الذي هو وعي عضوي والتحام العناصر المختلفة مع بعضها وجعلها تتنفس وتأتي الى الحياة. لا نستطيع أن نعيش بالغريزة، أو الصلاة، أو العاطفة. نريد إيماناً عقلياً يدعم نظام حياة جديدة وينقذنا من كدحنا العقلي وقلقنا الروحي.

الفترات العظيمة لتاريخ الانسان موسومة بانتشار موجة من الحيوية الروحية مستمدة من احتكاك الثقافة القومية بالمؤثرات الأجنبية. اذا أخذنا اليهودية نجد أن ابراهيم جاء من بلاد ما بين النهرين ويوسف وموسى قدما من مصر. بعد ذلك تبدي اليهودية التأثر بالهلينية. آسيا الوسطى ومصر أثرتا تأثيراً واضحاً بالتطور اليوناني. العبقرية الخلاقة لعالم القرون الوسطى جاءت من فلسطين. الانتقال

الى العالم الحديث اتسم باسترداد القديم . في أيام الاضطراب نمنح أعمق الالهام من ينابيع خارج أنفسنا، من الماضي الذي استعاد صحته حديثاً، أو من انجازات أناس تحت سموات مختلفة . لهذا، ربما، حضارات الشرق ودياناته أخلاقياته يمكن أن تقدم بعض العون للتغلب على المصاعب التي نواجهها . الماضي الوحيد المعروف للأوروبيين ينبثق من العصور الوسطى كان توراتياً، وحدث أن أصبح اليونان الرومانيون وكلاسيكياتهم موضوعات تدرسها أعظم الجامعات المنشأة في تلك الفترة . الآن ونحن لدينا العالم كله قاعدة ثقافية فإن عملية الشفاء والتدرب على الكلاسيكيات لن يتوقف بالاستماع الى المسيح وبولس وسقراط وسيشرون . سيكون هذا خطأ أكاديمياً وإخفاقاً في رؤية المدى، هناك آخرون أسهموا في مغامرة العصور العلوية رسل مصر. حكماء الصين وأنبياء الهند الذين هم علامات هداية تفتح لنا الطريق الوعر. من الحضارات الحية غير الأوروبية أهمها الاسلامية الصينية والهندوسية . للحضارة الاسلامية الخليفة التاريخية نفسها التي لليهودية والمسيحية المعروفتين جيداً لدى الغرب . الحضارة الانسانية للصين تأثرت تأثراً جلياً بالمفاهيم الدينية في الهند، وخاصة البوذية . الدين، مهما يكن، كان العاطفة الحاكمة للعقل الهندوسي ؛ حملاً عند قدميه ونوراً على دربه . مسلمات وأسس حضارته القوة الدافعة لثقافته والتعبير - بالرغم من اخفاقها المأساوي والانقسامات والتنافرات والانحلالات - عن حياته في الله . في الغرب حتى في المحافل المتعاطفة جداً، الفكر الهندوسي بشكل عام موضوع يلقى التقدير إلا أن الاهتمام به ليس حياً بما فيه الكفاية . إن تأسيس هذا الكرسي يحمل الكثير من المعاني وتعيين أسيوي في كرسي في جامعة أكسفورد، أعتبره، مدفوعاً بالرغبة في انتشال الفكر الشرقي من مأواه البعيد ويشير الى ما يحمله هذا الفكر من قيم قوية حية وأثرها في تشكيل روح الانسان المعاصر.

الهندوسية تتبنى الموقف العقلي في مسألة الدين، لقد حاولت دراسة حقائق الحياة البشرية بروح علمية، لا الحقائق الجلية فقط، انتصارات وهزائم الانسان الذي ينام في اللاوعي الروحي بل حقائق أعماق الحياة . ليس الدين تجلياً فقط يمكن بلوغه من قبلنا بالايمان كجهد من أجل كشف ما في أعماق الانسان ومحاولة الاتصال الدائم بها .

يمكن أن تتميز أديان العالم بهذه التي تؤكد الهدف وتلك التي تصر على

الخبرة بالنسبة للفئة الأولى الدين موقف ايمان وسلوك موجه الى قدرة خارجية. للفئة الثانية الدين تجربة يلتحق بها الفرد بالقيم العليا. الهندوسية والبوذية من هذه النوعية، بالنسبة لهما الدين خلاص. إنه أقرب الى تجربة التحول منه الى فكرة الله. الدين الحقيقي يمكن أن يوجد دونما مفهوم محدد للالوهية لكن ليس بدون تمييز (تفريق) بين الروحي واللا روحي بين المقدس وبين الأرضي (الدنيوي)، حتى في الديانات البدائية بظاهرتها المميزة وهي السحر، نجد ديناً رغم أنه ليس إيماناً بالله، وفي الأنظمة التي تؤمن بالله (دون التقيد بدين محدد) فإن أهم شيء فيها ليس وجود الألوهية، بل قدرتها على تحويل الانسان. بودهي أو المعرفة التي بلغها بوذا ويسعى اليها أتباعه ليست إلا تجربة. الاستبصار التام (سامبودهي) هو غاية وهدف البوذي في الدرب ذي الثمانية رتب. هناك أنظمة من الفكر الهندوسي مثل السامكهيا والجانيا التي لا تعترف بالله إلا أنها تؤكد حقيقة الوعي الروحي. هناك مؤمنون بالقوة الالهية مثل رامانوجا عندهم الوعي الروحي رغم أنه ليس الله نفسه فهو السبيل الوحيد لمعرفة الله. وكل هذه، على كل حال، توافق على اعتبار الخلاص هو بلوغ الموقع الصحيح للفرد. الاعتقاد والسلوك، الشعائر والاحتفالات. السلطات الدينية والشرائع إنما وجدت من أجل تساعد فن وعي اكتشاف النفس والاتصال بالالهي. هذا التمييز في الدين الهندوسي مقر من قبل القدماء أنفسهم. يضع فيلوستراتوس على لسان ابولونيسوس تيانا هذه الكلمات: «الكل يرغب في أن يبعث على مقربة من الله لكنه الهندوس وحدهم عرفوا الطريق».

أن تقول إن الله موجود معناه أن التجربة الروحية يمكن بلوغها. امكانية التجربة تتضمن البرهان القاطع على حقيقة الله. الله «موهوب» وهو رضا التجربة الروحية الحقيقي. وكل البراهين الأخرى هي صفات الله مسائل تعريف ولغة. حقيقة الله لا تعتمد على سلطة بشرية أو شاهد على حوادث مزعومة. سلطة الكتب المقدسة، تقاليد الكنائس حرتقات المدرسين التي تزعم ولا تبرهن، يمكن ألا تولد قناعة عند كثيرين منا نحن أطفال العلم والعقل، لكن يجب علينا أن نخضع لحقيقة التجربة الروحية التي هي مبدئية وايجابية. يمكن أن نخاصم العلوم الدينية لكننا لا نستطيع أنكار الحقائق. إن نار الحياة في احتراقها المرئي تفرض الاقرار، لا تخمينات المدخنين المتعثرة الجالسين حول النار.

في حين يكون الادراك حقيقة، فإن نظرية الحقيقة هي استدلال. هناك

خلاف ما بين ملامسة الحقيقة وتكوين رأي حولها ، ما بين غموض الألوهية والايمان بالله . يمكن للانسان أن يكون عالماً بالدين ولكن مع ذلك يمكن أن يفتقر الى روح الدين. لقد حذرنا المفكرون الهندوس من الكفاية الذاتية العقلانية . إن المتعلم يخاطر أكثر من غير المتعلم. هناك طريقتان لخداع النفس؛ الطريقة السهلة هي طريقة غير المتعلم الذي يعتقد أن العالم الذي يراه هو كل شيء، والطريقة المجهدة للمتعلم الذي يكون حقيقة الطبيعية ويُخدع بالحدود، كلاهما ينجح في ابعادنا عن حقيقة وجودنا.

إن عملية الاكتشاف الذاتية (اكتشاف النفس) ليست نتيجة التحليل العقلي بل نتيجة بلوغ الكمال الانساني عن طريق التحكم الكامل في الطبيعة، إن الايمان القديم بالعقل فقط واعتقادنا أننا نصيب اذا ما فكرنا تفكيراً صائباً ليس صحيحاً. إن المعرفة المجردة هي شيء من التزيين، عرض بدون جذور. إنها لا تحرر العقل. في الشاندوغيا أوباتيشاد يعترف نارادا أن كل ما تعلم من الكتب المقدسة لم يعرفه بحقيقة طبيعة نفسه وفي الاوبانيشاد نفسها شفيتاكيتو، رغم كل دراسته للكتب المقدسة للفترة السابقة، قيل عنه إنه ليس سوى مغرور ولم يتعلم جيداً. إن الوعي الروحي ليس كمال الانسان العاقل بل طاقة تصب فيها ما هو أبعد منها مما يثير فيها الحياة. الكاتايوبانيشاد تقول: «بما أن النفس الحالية تنفذ إلى الخارج بالحواس فإن المرء ينظر للخارج لا الى نفسه. لكن شخصاً عاقلاً ما باحثاً عن الخلود ادار عينيه الى الداخل ورأى نفسه.» إنها رؤية بالعين الروحية للنقاء في القلب، الذي تغلب على عواطف الجشع والحسد والكراهية والشك التي كانت تكمن فيه. هذا هو الانجاز لحياة الانسان حيث مظهر من مظاهر وجوده قد صُعّد الى أعلى درجة، حيث كل تتجمع كل الحواس، والعقل كله يطفر الى أمام ويدرك في لحظة راعشة واحدة الاشياء التي لا يعبر عنها بسهولة. رغم أنها أبعد من كلمة نطق بها اللسان أويفكر العقل، شوق الروح وحبها، رغبتها وقلقها، بحثها وتفكيرها، فهي ملأى بالروح العلوية. هذه الحالة من الوجود أو المعرفة التي يستطيع بلوغها الانسان هي معنى الحياة الانسانية. انها الدين وليس مجرد مناقشة الامر حوله، انها السلطة المطلقة لفكرة المرء عن الله والحياة. الله ليس فكرة ذهنية أو مبدأ أخلاقي بل هو أعمق أعماق الوعي الذي تستمد منه الأفكار والقواعد. ليس بناء منطقياً بل الحقيقة النافذة الحاضرة في كل منا والتي تمنح كلاً منا الحقيقة التي

نملك. لقد تهيأ لنا الخلاص لا بالتعاليم بل بالمعرفة الروحية، جانانا أو الحكمة الروحية. هذه هي نتيجة اعادة صنع الانسان، إن المعرفة المنطقية شبيهة بالاصبع التي تشير الى شيء وتختفي حين يظهر ذاك الشيء. المعرفة الحقة هي الاتحاد بالله، حدس واضح البصيرة، التبصر بما يستنتجه المنطق وتعلمه الكتب المقدسة. حياة متقشفة تحيل المعرفة الى حكمة، والحكيم الى نبي.

هذا، على كل حال، ليس غرضه أن يدعم العاطفة أو يسحب اللمعان من الجهل. حقيقة التجربة لا تتأتى من سر وجودها أو من البهجة التي تحدثها فينا. إنها تابعة لحقيقة أنها ترضي حاجاتنا، بما فيها الحاجات العقلية وهكذا تجلب السلام لعقل الفرد وتسهم في الانسجام الاجتماعي للمجتمع. إن من يصل الى معرفة إدراك الحقيقة هو الانسان الكامل الهادىء الصافي الذهن. من الضروري لنا أن نمسك بحدسنا ونتمحصه خوفاً من أن نظن المفارقات مكتشفات، والعبارات براهين أو الكلمات حقائق حادة. اذا كنا في شك من ادعاءات الذكاء فسننزل أرض اكتفاء الذات الظلامية. كل تجربة لا تتلاءم مع المعرفة المختبرة يجب أن ترفض على أنها هراء، أن تكون روحياً ليس أن ترفض العقل بل أن تتجاوزه أن تفكر بعمق ليصبح التفكير معرفة أو رؤية، أو ما يمكن أن نطلق عليه التفكير الخلاق (الابداعي). الفلسفة والدين هما مظهران لحركة واحدة.

هذه النظرة هي انسانية في معنى أعمق. انها تنظر للدين على أنه تطور طبيعي لحياة انسانية حقيقية. الانسان، لاشك، هو معيار كل الأشياء؛ إلا أن طبيعته تحتوي أو تعكس كل مستويات الحقيقة من المادة لله. هو وجود ذو مستويات متعددة. يمكن أن يعرف بنفسه بطبيعته الحيوانية، الجسدية والنفسية أو بالعقل الواعي. الأهداف الحيوية اللا واعية، مهما كانت غير ممكنة الاستبدال وثمينة في مكانها، لا تستطيع بدون احداث كارثة أن تضبط وجود هو بعد كل شيء ليس حيواناً مجرداً ولا يستطع أن يكون كذلك. في فكر الانسان المعاصر وحياته فإن ذكاء الوعي الذاتي، بتحليله الواضح وأهدافه المحدودة يأخذ أعلى مكان، والتشكيكية الانتحارية هي النتيجة؛ لأنه في حين تقبل شهادة الحواس ونتائج المحاكمة والاستدلال فإنها ترفض الحدس الأعمق على أنه كاذب ووهمي. وهو الذي يجب أن يأخذه العقل المنطقي على أنه بديهة. الايمان في العقل المفاهيمي هو النظير

المنطقي للانانية التي تجعل النفس الانانية ألد خصوم الروح. الانسانية الحقيقية تعلمنا أن هناك شيئاً آخر في الانسان أكثر مما يظهر في وعيه العادي: شيء يؤطر المثل والأفكار. حضور روحي أصفى يجعله غير راض عن مجرد الأهداف الأرضية. المذهب الوحيد الذي له أطول سلف عقلي هو الايمان بأن الحالة العادية للانسان هي ليست وجوده المطلق، ذلك أن في داخله نفْساً أعمق سمّها نفساً أو روحاً أو شبحاً، في كل كائن يسكن نور لا تستطيع قوة اطفاءه، روح خالدة، عطوف ومتسامحة، الشاهد الصامت في قلبه. يتحد المفكرون العظام في العالم في سؤ الهم لنا أن نعرف نفوسنا. فسيوس يعلن: «من عرف طبيعته عرف السماء؟» يكتب القديس اوغسطن «لقد همْت يا الهي كشاة ضالة أبحث عنك خارج نفسي بتعليل قلق، في حين كنت فيّ (داخلي). . تجولت في شوارع وساحات مدن هذا العالم بحثاً عنك، لكني لم أجدك، لأنه عبثاً بحثت في الخارج عمن كان في نفسي» تقوم بدورة كاملة حول الكون لتقود الى النفس. وأقدم حكمة في العالم تقول لنا أننا نستطيع أن نتوحد مع الالهي بوعي طالما هو في الجسد لأن من أجل ذلك فقط ولد الانسان. إن أخطأ قدره فالطبيعة ليست على عجل؛ ستقبض عليه يوماً ما وتجبره أن ينجز هدفه السري. الحقيقة، الجمال السلام القوة الحكمة كلها صفات النفس الالهية التي تنتظر أن نجدها.

ما هي نفسنا الحقيقية؟ كياننا الجسدي يتغير باستمرار وأفكارنا تتجمع كالغيوم في السماء ثم تتبدد ثانية. إلا أن النفس لا تفنى أبدفا إنها موجودة في الكل ومتميزة عن الكل إن طبيعتها لا تتأثر بالأمور العادية إنها مصدر الاحساس بالهوية، من خلال التحولات المتعددة إنها تظل نفسها رغم أنها ترى كل الأشياء. إنها الشيء الوحيد الذي يبقى ثابتاً وغير متغير في فاعلية الكون المستمرة، المتعددة الأشكال، في التغيرات البطيئة للعضوية، في تدفق العواطف، في تبدد الافكار. ذيول الذكريات، شخصيتنا التى نحن عموماً نتخذها لأنفسنا تكون واعية فقط بين حيوآخر. وهناك فجوات فيها، تكون بلا وعي. العارف دائماً موجود، حتى لو حل الموت فهو لا يموت. حين الشمس والقمر كلاهما يغربان وتنطفىء النار ويتوقف الكلام، ماالذي سيقوم بدور النور للانسان يا. . ياجنامهايا؟ النفس تقوم بدور النور له. إنه من خلال نور النفس ينهض ويخرج ويعمل ويعود لاشيء من الخارج يمكن أن يلامسه. المشاعر والأفكار

على المستوى نفسه كموضوعات واحداث ما دامت ترى. يمكن أن تكون الأشياء مختلفة عما هي عليه. بدون ان تختلف عن ذاتها. هذه النفس المستمرة والتي هي رائية كونية لكل ما يرى، هذا الوعي الجوهري الذي لا شيء لديه قدرة على السيطرة عليه. وهي لاتعرف شيئاً عن الولادة ولا شيئاً عن الموت، التي هي فقدان كل المعرفة كل الأحلام، والأشواق هي كما يقول شامكارا: «غير قابلة للاثبات ولا تحتاج الى اثبات لأنها تثبت نفسها بنفسها. ومع أنها غير مفهومة، فهي الأرض لكل امكانيات الفهم. وكل فعل معرفة، وحتى الذي ينكرها فإنه يفترضها مسبقاً ما دام يفكر بها. إنها ليست عضواً أو وظيفة ولكنها كل ما يبعث الحياة وتقرر مصير كل الأعضاء وكل الوظائف. الخلفية الرحبة لوجودنا الذي فيه تكمن كل الأعضاء، والذكاء، والارادة. الجسد العقل والعالم كوابح مستحكمة مفروضة على هذا الوعي. هذه النفس الكلية يحوطها الغموض بسبب دناستنا النفسية وتقلباتنا وتصبح مشوشة مع النفس الحسية، والنفس الحسية نظام طاقات نفسية ومنطقية تزعم لنفسها استقلالاً تاماً وفردية لاتعرف إلا القليل عن أنها قادرة على المحافظة على نفسها بالتغير المستمر. نحن نأخذ شخصيتنا على أنها أعمق ما نملك والأكثر التصاقاً بنا، خيرنا المطلق. إلا أنها تنتمي الى الجانب الموضوعي، لقد تشكلت هي نفسها بوقائع نسبية عرضية ومتقلبة إذا ما قورنت مع النفس. يمكن أن تفكر بها وتحسب اهتماماتها، وتضحي بها أحياناً، إنها نوع من الوجود النفسي الذي يستجيب لأسمائنا معكوسة في المرآة، رقم في جداول احصائية إنها عرضة للسعادة والألم تتضخم حين تمدح وتنكمش عند النقد، تعجب بحالها وتضيع في المساخر. المنكادا أوبانيشاد وضع فرقاً بين الطائرين الذين يسكنان على الشجرة الواحدة أحدهما يأكل الفاكهة الحلوة والآخر ينظر ولا يأكل. الأول هو النفس الحسية والآخر هو النفس السامية.

الصفة المدركة بالحس للنفس الحسية واستجابة العالم لها يرمز إليه بعالم (مايا)[1] التي تعني هشاشة الكون، مايا لاتعني أن العالم التجريبي مع النفوس الذي داخله هو، لأن كل مافي الكون من جهد موجه وخاضع الى النفس المطلقة التي رغم كونها مفترقة عن كل شيء متضمنة في كل شيء. النقد بأن الفكر الهندوسي مؤمن بوحدة الوجود، يبرهن أن الوجود العلوي، الكامل واللامتناهي، هو مع ذلك مليء بأشياء حية تنفس وتتحرك كل حسب طبيعته. لا شيء يمكن أن يولد، يوجد أو يموت بأية درجة من الدرجات، لا شيء له الزمان والمكان والشكل



(١) مايا: الوهم.

والمعنى بدون هذه الخلفية الشاملة .

مايا هي كلمة تستخدم للاشارة الى ميلنا للتعريف على أنفسنا بنفوسنا الظاهرية ونصبح منفيين عن وعينا الروحي بأقصى ما فيه من صفاء ويقين . هذا الميل هو التعبير عن عمل العقل الواعي لذاته . النشاطات العقلية هي اشتقاقات مختارات ومادامت مفصولة عن الحقيقة التي هي نبعها السري . تشويه للمعرفة الصحيحة الذي يصل الى نتيجته الطبيعية في الأنانية . هدف كل المخلوقات البشرية هو تأكيد الذات . من أجل عزل الدوام المادي الذي تملكه كل حياة ثابتة في الأعماق من كدح الأحداث الحسية . يمكن أن نرفع حد الوعي الانساني الذي يعمل بشكل طبيعي في الانسان ، الانسان يستطيع أن يتجرد عن جسمه ولحمه ، عن مشاعره ورغائبه ، حتى عن الأفكار التي تندفع كالأمواج على سطح عقله ويبلغ معرفة صافية هي الحالة العارية لنفسه النقية . وبنظام ثابت يستطيع أن يعود الى الوجود النقي ، الموضوع الذي ينعكس ويصل الى حالة المباشرة والوحدة التي تختفي فيها كل (العماءات) الظلمات . حين تكسر حلقة الدخان حول النفس ونزيح الغلالات التي تغطيها نصل فوراً الى لحم قدر وجودنا . الـ«أنا» (أتمان) . النفس الشاملة . اللامتناهية البساطة هي ثالوث من الحقيقة (سات) والوعي (سيت) والحرية (أناندا) هذه هي الطريقة التي نصوغ بها في مفردات ذكية حقيقة وجودنا مع وعينا العادي الآن نحن نزكي للآخرين هذه الحقيقة بفهمها على أنها الشخصية العليا النقية أو الشخصية الكونية تعرض الكون . الاسلوب السلبي الذي يتطلب منا أن نتخلى عن الحيواني وأن نجرد أنفسنا من كل الصفات وأن يندفع شيئاً فشيئاً خلف الفوارق ونكشف قداسة التجربة التي لا يعبر عنها . هذا الجيشان ، هذا التركيز الثابت هذا البحر المقدس الساكن العميق في هدوء ، يعكس السماء على سطحه أو كما في صورة في بهاغافادغيتا «لا يزال كشعلة في مكان لا ريح فيه» تستحم كأنها في بريق مبهم (تيجاس) صعب وصفه ، صمت جاد (صادم) أو حساب سلبي هو كل ما يفتح لنا . وحين ، على كل حال ، نخطو الى الخلف من هذه الحالة الى وعينا العادي فإننا نمثل النفس كأنها غيرها في جلالها وسموها . نرتعد ونرتعش ، ننزف وننتحب بنظرة شوق إليها . لا نجرؤ حتى على رفع بصرنا اليها . نمتلىء برغبة الهرب من عالم النزاع والكفاح . في هذا المزاج تمثل العلوي كالشخصية المطلقة المطوقة (الشاملة) للعالم تعمل من خلال الكون ومن خلال نفوسنا من أجل

تكـوين المملكـة الكونية ، إذا كان المفهوم الشخصي أكثر أهمية ، فإن الفرد يبحث عن تطوره بخضوع وتواضع صادق لله .

يمكن أن نتبنى طريقـة (البـاكتي) أو العبـادة أو أسلوب اليـنانـا أو التأمل الذي تتحرر فيه النفس من كل ما هو غير النفس وتستعيد جلالها النقي . إن بلوغ المرتبة الروحية حين ينعكس على العالم المنطقي يظهر وكأنه تجلي النعمة الألهية .

يوضـح شامكـارا بجـلاء الفـرق ما بين النفس المطلقة ، والشخص الألهي ، والفرد الانساني :

«لـذلـك فإن النفس المطلقـة فوق التعبـير الكـلامي والعقـلي والنفس الـواحـدة ، هي ليست هذا وليست ذاك ؛ عنـدمـا تكـون لها ملحقـات الجسـد المحدودة والأعضاء المتميزة بأنها غير دقيقة المعرفة ، والرغبة . والعمل تدعى بالنفس الحسية الفردية وحين تكون النفس موصولة بالقوة الخلاقة الظاهرة من خلال المعرفة الخـالـدة وغـير المحـدودة فإنها تدعى الحاكم الداخلي (الوازع) والشخص الالهي . والنفس ذاتها الخارقة بطبيعتها مطلقة وتدعى بالنفس الثابتة و لعليا» .

حين نسـعـى لادراك هويـة المـتـعـالي في ذاتـه والـشـخـصـي في الهـدف الكوني ، بأسلوب مفاهيمي ، لابد أن نلاحظ أن الصيغ المنطقية الدقيقة في أحسن صلاتها غير تامة ومؤقتة . إن الوضوح والشفافية للرموز لا يعنيان أن الشيء المعـرف قد امسـك به تمامـاً . اولئـك الـذين ليسـوا على صلة بالحقية ولا استبصار للحقيقــة ، يقبلون الـرمـز النسبي للحقيقـة المطلقـة . وفي ثقتهم بذواتهم ينسـون بتـلاعبهم بالـرموز والتعريفات ينسون الشيء نفسه . فقط خلفية الحقية يمكنها أن تحول الأصـوات الجـوفـاء للكلمات الى تعبيرات عن الحقيقة . صورنا عن الله ليس فيهـا من الحقيقـة سوى الـروحيـة منها . انها ليست في الأشياء خارج أنفسنا «الفاني يصنع الأبدي» يقول رج فيدا . الراهب الهندي بودهيه هارما في القرن السادس من زمننـا قال للامـبراطـور لينـغ ووتي ؛ ليس هنـاك بوذا خارج الروح . كل ما هو غير الـروح تصـورات . الـروح هي بوذا وبوذا هو الروح . أن تتخيل بوذا خارج الروح «أن تفكـر أنـه قد شوهـد في مكـان خارجي ليس إلا هذيـان» التفـريق بين الذاتي والـذاتي العلوي موجـود لدى الصـوفيـة الشـرقيـة والغربية . اذا كان سامكارا يميز براهمان عن ايشفارا فإن ايكهارت يعارض ما بين الألوهية والله . في حين يكمن الله الالـه الثـالـوث في التعـاليم الكنسية ، فإن الالوهية تكون أعلى من الله وهي أرض

احتمالية الله المنحل في الألوهية التي هي وراء الوجود والخير.

الكون المتشعب الجوانب ليس وهماً، إنه وجود، رغم كونه من نظام أدنى، معرض للتغير. يزداد ويتناقص وينمو وينكمش. قارن مرة ثانية «إنه من يسكن الأرض، والذي هو غير الأرض والذي لا تعرفه الأرض من جسمه الأرضي، الذي يسيطر على الأرض من الداخل إنه نفسك المتحكم الداخلي الأبدي». وهذا صحيح ينطبق على الأشياء في العالم الذاتي والموضوعي التي هي تجليات «للرائي غير المرئي».

حين يعي الانسان للوجود العلوي يعود الى التماسك ويسيطر على حياته في ضوء حقيقتها يكون انساناً كاملاً. يصل الى شمولية مبهمة شبه تامة. كل قدراته التي كانت حتى الآن مقيدة بالاهتمامات الضيقة تصبح متحررة نحو غايات أكبر. تعاليم المايا تقول لنا إننا نسقط من وجودنا الأصيل اذا كنا تحت في عالم الموضوعات الحسية والرغبات الأرضية، مديرين ظهرنا للحقيقة التي تمنحها القيمة. انها مغوية وتثير الرغبات الحادة ولكنها لا ترضي الوجود الداخلي، وفي العالم الخارجي تأخذ طريقها في اضطراب متوتر (مسعور). هذا لا يعني أن نتخلى عن الحاجات الأرضية أو نحتقر الجسد أو العقل. الجسد ضروري للروح. النظام الذي يؤمن بالانبعاث لا يحتقر الحياة الجسدية. لأن كل روح بحاجة له. ليس من الضروري أن يضطهد الحياة الشخصية من أجل بلوغ غاية الدين. يجب أن يعاد خلقها وتطهر في ضوء الحقيقة الأعلى. إن من فيه تضيء شرارة الروح يتحول الى انسان جديد انسان الله الشخص المحوط بهالة، ينفذ الالهي في نفسه يملؤه ويفيض منه يمتصه ويغنيه في ذاته. ليس الله عنده نفساً أخرى. إنه النفس الحقيقة الصق فيه من هويته (Ego) (أنا) «أنا أعيش ولكني لست أنا بل هو المسيح الذي يعيش في» في نظام الطبيعة يحافظ على فرديته المنفصلة، وفي نظام الروح يأخذ الالهي بيده ويصوغ شخصيته. الفردية المدركة لذاتها المتكبرة تخضع الى صنعة الله المركز الواحد. يعمل في العالم بايمان أن الحياة في صفتها الطاهرة دائماً نبيلة وجميلة وفي احباطها الشر.

إن الحقائق الأساسية لدين روحي هي أن النفس الحقيقية هي الوجود العلوي، والتي شُغلنا أن نكتشفها ونصبح عن وعي مع هذا الوجود واحداً في كل.

الـروح التي وجـدت نفسهـا لم تعـد تعي نفسهـا في عزلتهـا . إنها تعاني تقريبا الحياة الكـونيـة التي فيهـا كل الأفـراد والأجنـاس والأمم ملحقـات تفصيلية . حافز وحيد يجري تحت كل مغامرات الانسان وتطلعاته . إنه تجربة الروح للوحدة الأساسية مع كامـل الـوجـود الظـاهـر في الكلمات «أنت فيّ وأنـا فيك» الصلة الواحدة هي الحياة والافتقـار لها موت . التضـامن السـري للجنس البشـري هو الـذي لا مفر منه . لا يمكن أن يزول بسبب جنـونـات العـالم العابرة . أولئك التواقون الى العيش بسلام مع أبناء جنسهم كل حياتهم لن يتمكنوا من النظر شامتين الى المذابح التي تقضي على الأعـداد الكبـيرة من النـاس لكـونهم ببسـاطـة لا ينتمـون الى عرقهم أو الى بلدهم . حين يعملون من أجل نظرة أشمل وأوسع منهم بذلك يقطعون سبل الحياة المصطنعـة التي تغـرينا (وتثنينا) عن منابع الحياة الطبيعية . إن مواقفنا من الأجناس الأخرى والأمم الأخرى ليست أكثر من أقنعة مصطنعة ، وعادات تفكير ومشاعر، بتحفـظ نمت بواسطـة مران طويـل في الخداع . طبيعة الانسان الاجتماعية تشوهت الى أشكـال عجيبـة بواسطـة السم الـذي انصب في دمـه الـذي أحاله إلى حيوان مفترس . العرقية والقومية التي تتطلب منا أن نمارس غرائزنا الدنيا لنطغى ونخدع ، لنقتل وننهب ، مصاحباً بشعور عميق من الفضيلة وأننا نفعل ما أمر به الله . كل هذا مكـروه ومن تيقظـوا روحيـاً . فعنـدهم كل العـروق والأمم تقف تحت قبـة السـماء نفسها . انهم يدعون الى علاقة اجتماعية جديدة ويخدمون مجتمعاً جديداً بحريات مدنية لجميع الأفراد وحرية سياسية لكل الأمم الكبير منها والصغير .

ان انهيـــار الحضـــارة المبنى على حماقـــات الشكـــوك المبنيـــة على الأوهـــام والانطبـاعـات الاخـلاقيـة وحماسات الاجناس والأمم المشوشة والقاسية لا يجوز أن تثبطنا لأن فيها عناصر الشخصية المضادة للمجتمع والأخلاق والتي تستحق الفناء . إنها تتوجه لا لخير الانسانية ككل بل لصالح أفراد ذوي امتيازات وأمم . وكل ما فيها من ذي قيمة سيدخل العالم الجديد الذي يناضل كي يولد . وبالرغم من كل مظاهر أن الأمـر معكـوس فإننـا نرى في القلق الحـاضـر اطلالة تدريجية لفجر ضوء عظيم . وجهـداً مجتمعـاً في سبيـل الحياة . ادراك أفضل بأن هناك روحاً سرية نحن فيها كلنا واحـد . وأن الانسـانيـة أعلى وسائل الاتصال فوق الأرض ، ورغبة متزايدة للعيش بهذه المعـرفـة وفي تأسس مملكـة الـروح فوق الأرض . لقـد أنتـج العلم الـوسـائل الضـروريـة لانتقال مريح للبشر وتبادل الأفكار . العالم عقلياً (ثقافياً) مربوط ببعض

في مشبكـة الأفكـار المشتركة والمعرفة المتبادلة. وحتى عقبات التعاليم الدينية لم تعد مخيفة كما في السابق. إن تقدم الفكر والنقد يساعد الأديان المختلفة لأن تنشد لحن روح الحقيقـة الـواحدة الخالد الشامل الذي تخضع له الحياة وتسعى إليه وتبتهج فيه في كل مكـان وزمـان. لانستطيـع أن نرى بوضوح أكبر أن حقيقة الدين لا بها يتفرد فيه ويتخصص به، لا بحرفية تعاليمه التي يميل القائمون عليه الى الاصرار عليها. ولا بالايـمان بالقتـال من أجله، بل ذلك الجزء منه الذي يستطيع فيه أن يشترك فيه مع كل الآخـرين، ادراك الانسـانية المطلق لنفسها وللعالم يمكن بلوغه فقط بمزيد مستمـر من تحريـر القيم الانسـانيـة والشاملة. الانسانية لا تزال قيد الصنع، الحياة الانسانية التي نحن عليها ما هي إلا المادة الخام للحياة كما يجب أن تكون. لايزال هنـاك أمـامنـا مالم نحلم به من كمال وحرية وسعادة بمتناول نوعنا البشري، إذا كنا فقط قادرين على شد أنفسنا الى بعض ونتقدم بهدف سام وحل جميل (مفيد). ما نحتـاجـه ليس بيـانـات أو برامـج بل الى القوة الروحية. في قلوب البشر قوة سوف تساعدنا على تنظيم عواطفنا الجشعة والأنانية وتنظيم العالم الذي هو واحد معنا في الرغبة*.

* محاضرة افتتاحية في جامعة اوكسفورد تشرين اول ١٩٣٦.

د. سارفيبالي راداكريشنا

# مهاتما غاندي
## عملاق بين الرجال

ذاك الرجل الضئيل. والضعيف في مظهره كان عملاقاً بين الرجال اذا ما قيس بعظمة روحه. الى جانبه الآخرون من الرجال، الهامون والمشاهير الكبار على طريقتهم، الكبار في المساحة والزمن يبدون صغاراً وعاديين. اخلاصه الروحي العميق، تحرره من الكراهية والحسد، تمكنه من ذاته، إحسانه الانساني الصدوق العطوف، إيمانه القوي الذي يشترك فيه مع عظماء التاريخ بأن قتل الجسد لا يقارن بتلوث الروح، إيمان نجح في وضعه قيد الاختبار في كثير من الظروف الدقيقة (الحاسمة) ويظهر أثر الدين في الحياة وأثر القيم الخالدة على مشاكل عالم الزمن المتغيرة.

كان إلهام حياته ما ندعوه عموماً بالدين، الدين ليس بالمعنى التسليم للمعتقدات أو التأكيد على الطقوس، بل الدين بمعنى الايمان الراسخ بالقيم المطلقة للخير والحب والعدل وبالجهد المتواصل من أجل تحقيقها على الأرض. سألته مرة أن يعرف نظرته الى الدين، وقد عبر بهذه الكلمات: «غالباً، ماوصفت ديني بأنه دين الحقيقة. ومؤخراً بدل أن أقول إن الله هو الحقيقة، صرت أقول الحقيقة هي الله من أجل أن أوضح ديني بشكل أفضل... لا شيء يصف بشكل كامل إلهي كالحقيقة. عرفنا انكار الله، أما انكار الحقيقة فلم نعرفه. أجهل الناس لديهم بعض الحقيقة في ذواتهم. كلنا شرارات من الحقيقة ومجموع هذه الشرارات أمر لا يوصف، ومثله كذلك الحقيقة المجهولة التي هي الله. وأنا أقترب منها في كل يوم بالصلاة الدائمة».

في الاوبـانيشـاد العلوي الـذي قيل عنه إنه الحقيقة والمعرفة والخلود. الله هو سيـد الحقيقـة، سانشيانارايانا. يقول غاندي: «لست إلا باحثاً عن الحقيقة. أزعم أني وجدت الطريق اليها. أزعم أني أبذل جهداً لا ينقطع لأجدها. وللوصول الى الحقيقـة تماماً على المرء أن يدرك نفسه ومصيره، وبكلمات أخرى أن يصبح كاملا. أنا وبكل أسى عليم بقصوري وفي هذا تكمن كل القوة التي أحوز لا أدعي قوى تفوق القوى البشرية. ولاأريد لي الاهاب الجسد ذاته القابل للفساد الذي لغيري من أضعف أقراني ولـذلـك فأنـا عرضـة للخطأ كغيري (كأي واحد). من خلال الصـلاة والصـوم من خلال الحب حاول غانـدي أن يتغلب على نزوات جسـده وتقلبات طبيعته وأن يجعل من نفسه أداة أفضل لعمل الله. لقد شعر بأن كل الأديان في أفضـل حالاتهـا تصف النظام نفسه لهناءة الانسان. الفيداس والتبيتاكا، التوراة والقران تحدثنا عن الحاجة الى ضبط النفس. مكانة الصلوات والصيام عند الحكماء الهنود قد عرفها بوذا والمسيح.

كان غانـدي على قناعـة بان كل الأديـان تهدف الى الهـدف نفسه. الحياة الـداخليـة حيـاة الـروح في الله، هي الحقيقـة العظمى، كل شيء آخـر خارجي. نعطي أهمية كبيرة لملحقات الدين لا للدين نفسه، لا لهيكل الله في الروح الانسانية بل للدعـائم والمسـانـد التي بنينـاهـا حول الهيكل خشية أن يسقط. هذه التفاصيل تتشكل حسب الظروف الخارجية وتلحق بتقاليد الشعب.

رجال الدين الهندوس الكلاسيون يؤ كدون على واجبنا في أن نرى كل البشر في نفوسنا أن نقر بقيمهم ولا نحكم عليهم بمعايير خارجية. لم تحاول الهند أبداً أن تلجم توق الروح أو أساليب الحياة عند المجتمعات التي استقرت فيها وأسهمت في غنى الثقـافـة الهنـديـة. يذكـرنـا غانـدي بتقاليد الهند العريقة، لا تقاليد التسامح فحسب بل الاحـترام العميق لكـل المعتقـدات، ويحـذرنـا من أن نضيـع الـتراث الـروحي الـذي عملت أجيـال من أسـلافنا على بنائه لنا بكثير من العناية ونكران الـذات. حين سئـل أن يعـرف الهنـدوسيـة قال إنـه على الرغم من كونه هندوسي- سانـاتـاني فإنـه عاجـز عن تعريف الهندوسية. كعلماني (لم يدرس علوم الدين) كان يمكن أن يقول إن الهندوسية اعتبرت كل الأديان جديرة بالاحترام الكامل، يقول غانـدي: «التسـامح ينطوي بداهة على ادعاء مجاني بدونية المعتقدات الأخرى عن دينـه هو. في حين تعلمنـا الأهيمـزا بأن نقـدم الاحـترام ذاتـه للمعتقـدات الدينية

للآخرين كما نقدمه لديننا وهذا إقرار بقصور هذا الأخير». لا يزعم غاندي العصمة للهندوسية ولا يمنح هذه الصفة للأديان الأخرى. «كان مستحيلاً علي أن أؤمن بأني أقدر أن أذهب الى الجنة أو أتوصل الى الخلاص فقط بكوني مسيحياً. . .». وأكثر من ذلك لم أكن لأعتقد أن المسيح وحده أبن الله المتجسد. . .» إن الحقية تنتمي الى الله والأفكار تنتمي الى البشر ولا نستطيع أن تكون على يقين من أن أفكارنا تمثلت كل الحقيقة. أيا كان ديننا فإننا نصعد التلة نفسها وعيوننا مثبتة على الهدف ذاته. قد نختار دروباً مختلفة ونتبع ادلاء مختلفين، حين نصل الى القمة فإن الدروب الموصلة اليها لانهم كثيراً اذا ما تابعنا الصعود، ما يهم في الدين هو الجهد.

مفهوم الدولة الهندية كدولة لادينية لا يعني أنها تهدف فقط الى الغايات الدنيوية في الحياة والراحة المادية والنجاح. يعني أن الدولة ستوفر معاملة حرة ومتساوية لجميع الأديان لأن تعلن عن نفسها وتمارس طقوسها تدعو لمعتقداتها مادامت هذه المعتقدات والممارسات لاتعارض العرف الاخلاقي والمعاملة المتساوية للأديان جميعاً تفرض التزاماً على معتنقي الأديان المختلفة بأن يمارسوا النتائج. وهي (١) كل الأديان صحيحة، (٢) كل الأديان فيها بعض الأخطاء، (٣) كل الأديان عزيزة علي معزة الهندوسية. إن توقيري لمعتقدات الآخرين هو نفسه الذي أحمله لمعتقدي أنا وبالتالي فإن فكرة التحول (من دين إلى دين) مستحيلة. . . إن صلاتنا للآخرين لا يجب أن تكون: «ربنا أمنحهم النور الذي منحتني. بل امنحهم كل النور والحقيقة اللتين يحتاجونهما من أجل الارتقاء» إن معتقدي يقدم لي كل ماهو ضروري لارتقائي الداخلي لأنه يعلم المرء الصلاة. لكني أيضاً أصلي بأن كل واحد آخر يمكن أن يرتقي الى كمال وجوده من خلال دينه، ذلك أن المسيحي يمكن أن يكون مسيحياً أفضل والمسلم مسلماً أفضل. أنا على قناعة أن الله سيسألنا يوماً ما فقط عما نحن عليه وعما فعلنا لا عن الاسم الذي أطلقناه على وجودنا وأفعالنا». وفي اجتماع الصلاة في ٢١ كانون الثاني ١٩٤٨ قال غاندي: إنه مارس الهندوسية منذ طفولته المبكرة. علمته حاضنته أن يدعو راما حين يخاف من الأرواح الشريرة. ومن ثم صار على صلة (احتكاك) بالمسيحيين والمسلمين وآخرين وبعد أن قام بدراسة جادة للديانات الأخرى ثبت على الهندوسية. لقد كان راسخ الايمان كما كان أيام طفولته. آمن بأن الله يمكن أن

يصنع منه أداة لانقاذ الدين الذي أحب ورعى ومارس.

ومع أن غانـدي مارس هذا الـدين بشجـاعـة وثبـات، فقد كان لديه حس فكـاهـة غير عادي ومـزاج مرح ومبهـج لا تألفهـا بالأرواح المتدينة الغيورة، وروح الدعاية تلك كانت حصيلة براءة القلب وعفوية الروح، في حين كان يستعيد حتى اللحظـات الهـاربـة والتافهة من الاسفاف فقد كان دائماً ذا نظرة بعيدة متأتية. لم تهز ثقتـه بالخـير الأسـاسي الذي تتضمنه الأشياء. . سلّم بدون مناقشة كثيرة بأن هذه الطريقة في الحياة نظيفة وصحيحة وطبيعية بينما طريقتنا في حضارتنا الآلية الصناعية غير طبيعية وغير صحية وخاطئة.

كان دين غاندي ديناً عملياً بكل معنى الكلمة. هناك رجال متدينون، حين يواجهـون المشـاكـل والاربـاكـات أكثر مما يطيقون، يلفون عباءاتهم حول أنفسهم وينسحبـون الى البيـع أو قمم الجبال يحرسون النار المقدسة التي تحترق في قلوبهم. اذا لم يكن الحقيقـة والحب والعـدل موجـودين في هذا العالم فإننا نستطيع أن نمتلك نعمتها في هياكل أرواحنا الحصينة، عند غاندي تقى الانسان لا ينفصل عن العمل «دوافعي دائـماً دينيـة صرفـة. لا أستطيـع أن أعيش حيـاة متدينـة مالم اعتبر نفسي واحداً من بين البشر، وهذا مالا أستطيعه إن لم أقم بدوري في العمل السياسي. إن مجمل فعاليات الانسان هذه الأيام تقوم على كل لا يتجزأ، لا تستطيع أن تفصل ما بين العمل الاجتماعي والسياسي والديني المحض في خزانات مسدودة الصنابير، لا أعـرف دينـاً منفصـلاً عن الفعـالية الانسانية إن تكريس نفسي للحقيقة شدني الى ميدان السياسة، واستطيع القول بلا أي تردد، ومع ذلك بكل تواضع، إن أولئك الذين يقولون إن الدين ليس له علاقة بالسياسة لا يعرفون ما هو الدين!. كثير ون منا ممن يدعون آنفسهم متدينين يراعون مظاهر الدين. يمارسون بشكل الي الطقوس. يذعنـون بشكـل سلبي للتعـاليم، ويتوافقون مع الأشكال كأن ذلك التوافق يجلب ميـزات اجتـماعيـة أو مكـاسب سياسية. نهتف باسم الله ثم نحتقر جيراننا. نخدع أنفسنـا بعبـارات فارغـة وكليشيهـات فكرية. كان الدين عند غاندي اشتراكاً عاطفياً في حياة الروح. كان بشكل قوي عملياً وحركياً (ديناميكي) كان شديد التأثير من الألم الذي يصيب العالم وكان يتوق «لمسح كل دمعة من كل عين» آمن بقداسة الحياة كلها. «سياسة مقطوعة الصلة بالدين» بالنسبة له «جثة لا تصلح إلا للحرق».

نظر الى السياسة كفرع من فروع الأخلاق والدين. ليست نضالاً من أجل

السلطة والثروة بل جهد حثيث ومتواصل لتمكين ملايين المسحوقين من بلوغ حياة فضلى، لرفع قيمة المخلوقات البشرية لتدريبهم على الحرية والحياة المشتركة، من أجل عمق روحي وانسجام اجتماعي. وإن سياسياً يعمل من أجل هذه الأهداف لا يستطيع إلا أن يكون متديناً، لا يستطيع أن يتجاهل الجزء التقويمي للأخلاق في الحضارة، أو أن يتخذ جانب الشر ضد الخير. وكونه لا يوالي الأشياء المادية للحياة، استطاع غاندي أن يحدث فيها التبديلات. أنبياء الروح يصنعون التاريخ بالوقوف خارج التاريخ.

انها لوقاحة من أي شخص أن يبدأ اصلاح العالم. لابد له أن يبدأ عمله من حيث هو. يجب أن يبدأ العمل الذي في متناول يديه. حين عاد من جنوب أفريقيا وجد الناس يعانون من موت الكرامة، ومن الفاقة، والألم، والامتهان، فأخذ على عاتقه مهمة تحريرهم كتحدٍ وفرصة متاحة. خطأ من الضعيف أن يخضع للاضطهاد وخطأ أن يسمح للقوي أن يضطهد. كان يشعر أنه لا تقدم ممكناً بدون حرية سياسية. إن التحرر من الحكم الخارجي يجب أن يتحقق لا بالاسلوب المعتاد في التجمعات السرية أو التمرد المسلح، واشعال الحرائق والاغتيال. الطريق الى الحرية ليس بالاستعطاف المذل ولا بالعنف الثوري، إن الحرية لا تهبط على الناس كهدية من الأعلى لكن عليهم أن يرفعوا أنفسهم إليها بجهودهم. بوذا يقول: «أنت يامن تعاني تعرف أنك تعاني من نفسك لا أحد يكرهك». إن في تطهير الذات يكمن طريق الحرية. ليست القوة دواء. إن استخدام القوة في مثل هذه الظروف لعبة حمقاء. قوة الروح لا تقهر. قال غاندي: «يريدنا البريطانيون أن نضع نضالنا في مصاف البنادق. إن لديهم السلاح وليس لدينا. وسبيلنا الأكيد لهزيمتهم هو أن نبقي نضالنا في الميدان الذي يملك فيه السلاح الذي ليس لديهم». اذا استطعنا أن نوحد ما بين الشجاعة الكاملة في تحمل الخطأ ونحن نقاومه بفضيلة كاملة بعيدة عن ايذاء أو كراهية المضطهد فإن نداءنا للانسان في مضطهدنا يصبح لا يقاوم. لشعب مضطهد قرونا من الأجانب، أعطى غاندي احتراما جديدا للذات وثقة جديدة بالنفس، وتأكيد جديد على القوة. لقد أمسك ناصية رجال ونساء عاديين، رجال ونساء كانوا خليطاً عجيباً من البطولة والحضارة، الروعة والدناءة، وجعل منهم أبطالاً ونظم ثورة غير مسلحة ضد الحكم البريطاني. فطم البلاد عن الفوضى والارهاب، وأنقذ النضال السياسي من أن يفقد روحه. كانت هناك

مناسبات في نضال الهند من أجل الحرية تبنى فيها معايير كانت غير مفهومة من السياسي العادي. هناك قادة عظام يعرفون كيف ينحنون ويتملقون من أجل أن يجذبوا الناس إليهم. في حين يثبتون أعينهم على الهدف لا يترددون في استخدام الأدوات للوصول الى الهدف. لم يكن غاندي كذلك. «اذا اتخذت الهند مذهب السيف يمكن لها أن تحقق نصراً خاطفاً؛ عندئذ لا تعود الهند كرامة قلبي. أومن إيماناً مطلقاً بأن للهند رسالة الى العالم؛ مهما كان الأمر، إن قبلت الهند لمذهب السيف فستكون قد حلت ساعة قضائي. حياتي وقف على خدمة الهند من خلال دين اللاعنف، الذي أؤ من بأنه جذر الهندوسية»، أمر بتعليق حركة اللا تعاون حين رأى شعبه غير قادر على أن يتطابق (يتوافق) مع مستواه الرفيع وبانسحابه عرض نفسه لسخرية خصومه «دعوا الخصوم يفرحون. باتضاعنا وهزيمتنا المزعومة خير لنا أن نتهم بالجبن من نقترف اثم الحنث بيمننا والاثم أمام الله. انه أفضل مليون مرة أن أكون اضحوكة العالم من أعمل بغير الخلاص تجاه نفسي.. أعرف أن الإبطال المتطرف لكل البرنامج العدواني يمكن أن يبدو سياسياً غير صحيح وغير حكيم لكن ما من شك في أنه صحيح دينياً». ماهو أخلاقياً خطأ لا يمكن أن يكون صحيحاً سياسياً. في مساء الثامن من آب ١٩٤٢ حين ما عرف في ذلك الوقت بـ«حلّ عن الهند Quit india » وأقرته لجنة مؤتمر الهند بالاجماع قال غاندي: «يجب أن ننظر الى العالم بعيون هادئة وصافية حتى لوكانت عيون العالم مغلقة بالدم اليوم» حين بدأت الاضطرابات البحرية في بومباي شتم أولئك الذين نظموها، «الحقد يملأ الهواء وعشاق الوطن غير الصبورين سيستغلون ذلك بسرور، إن استطاعوا، من خلال العنف، ليتقدموا بقضية الاستقلال، أقول إنه من الخطأ في أي وقت وفي أي مكان، لكن الأكثر خطأ وغير ملائم في بلاد أعلن مجاهدوها من أجل الحرية أن سياستهم هي الحقيقة واللا عنف.» كان لديه ايمان عظيم بأن روح العنف «هي حياة تقتل نفسها مع الزمن. إنها على النقيض تماماً مع روح الهند»، «لقد كافحت طيلة حياتي من أجل تحرير الهند لكن إذا لم أكن قادراً على تحقيق ذلك إلا بالعنف فلا أريده» إن وسائل بلوغ الحرية مهمة أهمية الغاية نفسها. إن هنداً متحررة بلا أخلاق لا يمكن أن تكون متحررة حقاً. لقد قاد النضال بتأسيس حكومة في الهند كما في جنوب أفريقيا، دون أي أثر من المشاعر العرقية، بكرامة متحضرة. انتقال السلطة في ١٥ آب ١٩٤٧ ظهر أثره على نهاية

النضال. الذي انتهى بتسوية ملأى بروح الصداقة والبهجة.

الحرية عند غاندي ليست حقيقة سياسية فقط، إنها حقيقة اجتماعية، لقد ناضل لا من أجل تحرير الهند من الحكم الأجنبي فحسب بل من أجل تحريرها من الفساد الاجتماعي والنزاع الطائفي «سأعمل من أجل هند يحس فيها أفقر الناس انها بلادهم التي كان لصوتهم أثره الكبير في صنعها؛ هند لا يكون فيها طبقة عليا وطبقة دنيا من الشعب. هند تعيش فيها كل الجماعات في انسجام كامل. ليس من مكان في هند كهذه للعنة اللامساسية أولعنة ادمان الخمور والمخدرات. وستكون للنساء الحقوق نفسها التي للرجال».

إن الحرية السياسية لا تمثل انجاز حلم الأمة، إنها تؤمن المدى والفرصة لتجديد حياة الأمة. الهند الحرة يجب أن تكون بلاد شعب فطن، يرعى قيم الحضارة الحقة، السلام، النظام، والارادة الطيبة ما بين الانسان والانسان، حب الحقيقة، السعي للجمال وكره الشر. حين نتسلق الى السلطة على اكتاف زملائنا. من أجل المال والسلطة، ومن أجل جعل الحياة أكثر بشاعة مما هي عليه فمعنى هذا أننا فقدنا جمال الحياة وكرامة الحضارة.

راغباً في جعل المجتمع الهندي حراً حقاً. وضع غاندي في المركز من برنامجه البنّاء المغزل ـ الدولاب، وإزالة اللا مساسية والانسجام الطائفي. الحرية مسخرة مادام الناس جائعين، يمشون عراة معروقين بفم صامت. المغزل الدولاب سيساعد على أن يخلص الانسان العادي من شرور الفقر والجهل والمرض والفساد «إن الحرية السياسية ليس لها معنى عند الملايين إن لم يعرفوا كيف يوظفوا خمولهم المفروض عليهم. ثمانون بالمئة من سكان الهند عاطلون عن العمل اجبارياً نصف السنة. يمكن أن يساعدوا فقط في احياء حرفة أصبحت طي النسيان وجعلها مصدر دخل جديد». أكد غاندي على استخدام المغزل كمهنة مساعدة للزراعة».

ناضل غاندي من أجل استعادة تقاليد الحضارة الزراعية التي عبرت عن الوحدة الحيوية لشعب يعمل بشكل مشترك على أرض معينة يسيطر عليه شعور مشترك عن الحياة والأرض والكون. إن الروح الطموحة للانسان تشعر أنها أقوى وأكثر حرية في القرى ذات الامداء المفتوحة والأحزمة الخضراء أكثر مما هي في المدن المكتظة بالبشر بعتمتها وقذارتها وجوها الكريه الراكد. وأمراضها من الحمى والكساح. في القرية الجماعة تشعر أنها مجموعة مسؤولة من الأفراد تتشارك بفعالية

في حياتها. حين ينتقل هؤلاء القرويون الى المدن يصبحون قلقين بلا روح وبلا أمل. الفلاح والنساج وضعها في غير مكانهما رجل الآلة ورجل الأعمال للتعويض عن ضجر الحياة ابتكرت المسليات المثيرة. لا عجب أن روح الانسان تضيع في قفر العيش. اذا أردنا أن نؤنسن المجتمع ونضفي الأخلاق على الأفعال والعلاقات يجب أن نعمل من أجل اقتصاد قرية غير مركزي حيث يمكن أن تستخدم الآلة الى الحد الذي لا تزعج فيه الاطار الأساسي للمجتمع وحرية الروح الانسانية.

غاندي لا يرفض آلة على هذا الشكل. يلاحظ: «كيف يمكن أن أكون ضد الآلة وأنا أعلم أن حتى جسدي هو آلة حساسة في معظمه؟ المغزل آلة عود الأسنان آلة. ما أعارضه هو الجنون وراء الآلة لا آلة كهذه. الجنون هو في ما يسمونه الآلة الموفرة للجهد. يظل الناس يوفرون في الجهد حتى يصبح الآلاف بدون عمل ويلقون في الشوارع المفتوحة ليموتوا من الجوع. أنا أريد أن أوفر الوقت والجهد، لا لفئة من الناس بل للجميع. أريد لتركيز الثروة أن يكون لا في أيدي القلة بل في أيدي الجميع. هذه الأيام الآلة تساعد فقط البعض أن يمتطوا ظهور الملايين. إن الدوافع وراء كل ذلك ليس انسانية توفير الجهد، بل الجشع انني أكافح بكل قوتي ضد هذا القانون للأشياء. يجب ألا تتسبب الآلة بضمور أطراف الانسان. . . المصانع التي تقوم على قوة دفع الآلة يجب أن تؤمم، وتضبطها الدولة. الاعتبار الأعلى هو الانسان».

كمصلح ديني واجتماعي يسر لنا معرفة الشرور الاجتماعية التي نعاني منها. لقد حضنا على تخليص الدين من كثير من الزوائد (الشوائب) التي على مدى تاريخها الطويل جعلته معوقاً، أخص اللامساسية. الهندوسية دفعت ثمناً عالياً بسبب تنكرها لمسؤولياتها الاجتماعية. إن دستور الهند يهدف الى إقامة نظام اجتماعي عادل تلهم فيه المثل العليا للفضيلة والحرية المؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية.

ناضل غاندي من أجل هند حرة وموحدة. ساعة انتصاره أثبتت أنها ساعة اهانته. كان تقسيم البلاد خطأً فادحاً عانينا منه. قادتنا في مزاج محبط متعبين من المذابح الطائفية سلموا بتقسيم الهند ضد ماتمليه عليه محاكمتهم. وضد نصيحة غاندي. على أية حال لم يحقق ثمن التقسيم السلام الطائفي، ولكنه في الواقع زاد من المرارة الطائفية. ولم يحضر غاندي احتفالات ١٥ آب في نيودلهي. لقد التمس

لنفسه عذراً. وقام بهجرة فردية الى البنغال سائراً على قدميه يواسي الفقراء والمشردين ويحثهم على أن ينزعوا من قلوبهم أي أثر للشك، والمرارة، والمهانة. الهجرة الكبرى، الآلاف من الناس هائمون هنا وهناك، قلقين مقتلعين من جذورهم مثقلين، العنف الطائفي المجنون كان أسوأ من كل شيء، الاحتقار الروحي في كل مكان، الشك، الغضب، الريبة، الحزن، وغياب الأمل ملأ غاندي بالحزن العميق وقادة الى تكريس بقية حياته الى الحل النفسي لهذه المشكلة. وكان لصيامه في كالكوتا ودلهي أثر محزن لكن الشر كان أعمق من أن يشفى بسهولة. وفي يوم ميلاده الثامن والسبعين تشرين أول ١٩٤٧/٢ قال غاندي: «مع كل نفس أصلي لله أن يهبني القوة أن أطفىء اللهب أو أن يزيحني من على هذه الأرض. أنا الذي رهنت حياتي لأربح استقلال الهند لا أريد أن أكون شاهداً على دمارها».

حين قابلته آخر مرة في أوائل كانون أول ١٩٤٧ وجدته في غم عميق وقد صمم أن يحسن العلاقات ما بين المجتمعات أو يموت دون هذا الأمر. وقد قابل الموت وهو يقوم بهذا العمل العظيم. إنه الصليب الذي حمله أولو القلوب العظيمة. أن يرهقوا أنفسهم بالأسى والمعاناة من أجل أن يعيش أولئك الذين سيأتون بعدهم في أمن وسلام.

نحن الآن أيضاً واقعون في شرك شرور أعمالنا الماضية. لقد علقنا في الشبكة التي نسجناها بأنفسنا حسب قوانين أخلاقياتنا المعوجة. خلافاتنا الطائفية لاتزال جرحاً ولم تصل الى درجة التعفن. لكن الجراح دائماً تتجه الى انتاج العفن. واذا كان لهذا الاتجاه أن يتوقف فعلينا أن نتمسك بالمثل التي عاش غاندي من أجلها ومات. يجب أن ننمي كبح الذات يجب أن نتحرر من الغضب والكراهية من فساد الرأي والقول، ومن العنف من أي نوع. سيكون تاجاً لعمل حياته إذا ما أقمنا كجيران أحباء وحللنا مشاكلنا بروح من السلام والارادة الطيبة. إن السبيل الى تكريم ذكراه أن نقبل ونبتني أسلوبه في العمل، سبيل الوفاق والتعاطف والتلاؤم ما بين كل الاختلافات.

يطوي النسيان نضال تلك الأيام، سينهض غاندي كنبي عظيم لثورة أخلاقية وروحية بدونها لن يجد هذا العالم المنقسم السلام. لقد قيل إن اللاعنف هو حلم الحكماء في حين أن العنف هو تاريخ الانسان. صحيح أن الحروب ضرورية

ومأساوية ونتائجها في تغيير مجرى التاريخ حقيقة واقعة ومؤثرة. لكن هناك نضالاً من أجل الكرامة الانسانية من أجل تجنب الكفاح المادي الذي يقيد الحياة، من أجل عالم بلا حروب. بين مقاتلي هذا النضال العظيم كان غاندي في المرتبة الأولى. لم تكن رسالته مسألة بحث أكاديمي في الدوائر الثقافية. انها الجواب على صرخة الانسانية الساخطة والتي هي على مفترق الطرق ـ ماالذي سيتكشف، قانون الغاب أم قانون الحب؟ منظماتنا العالمية سوف تثبت أنها غير فعالة اذا لم يكن ملهمها أن الحب هو أقوى من الكراهية. لم يصبح العالم واحداً فقط لأننا نستطيع أن ندور حوله بأقل من ثلاثة أيام. مهما بلغت سرعتنا في الانتقال فإن عقولنا لا تقترب من جيراننا. وحدة العالم يمكن فقط أن تكون بتوحد أهدافنا وتطلعاتنا، إن عالماً متحداً يمكن أن يكون فقط النظير المادي للقرابة الروحية، إن البدائل الآلية والبنى الخارجية لا يمكن أن تحقق بذاتها نتائج روحية. التغيرات في البنيان الاجتماعي لم تجد مكانها في عقول الناس. للحروب أصولها في القيم الزائفة، في الجهل والتعصب. القيادة الخاطئة قادت العالم الى بؤسه الحالي. يبدو في كل أنحاء العالم انتشار القيم الظلامية غير المتحضرة. الأمم الكبرى تدمر مدن بعضها بالقنابل من أجل أن تحقق النصر. إن النتائج الاخلاقية لاستعمال القنبلة الذرية يمكن أن يبرهن على أنها أكثر مأساوية من القنبلة نفسها. ليس الخطأ في أقدارنا بل في أنفسنا. الدساتير قليلة النفع مالم ندرب أنفسنا على أن نطيع وجداننا ونطور المحبة الأخوية. مالم يكتشف قادة العالم كرامتهم الانسانية العليا في أنفسهم، لا في المكاتب التي يحتلونها، في أعماق أرواحهم في تحرر ضمائرهم، فليس هناك أمل في سلام منتظم للمجتمع العالمي. كان لدى غاندي الايمان بأن العالم واحد في جذوره العميقة وفي تطلعاته العالية. عرف أن هدف الانسانية التاريخي كان تطوير حضارة عالمية ثقافة عالمية مجتمعاً عالمياً. يمكننا أن نخرج من بؤس هذا العالم فقط بانقشاع الظلمة المعششة في قلوب الناس وأن نحل محلها التفاهم والتسامح، قلب غاندي الحنون المعذب يبشر بالعالم الذي تتمنى الأمم المتحدة أن تخلقه. ذاك الرمز لماض يتلاشى هو أيضاً نبي العالم الجديد الذي يناضل من أجل أن يولد. إنه يمثل ضمير انسان المستقبل.

ونال غاندي جزاء جميع أولئك الذين يسبقون عصرهم، سوء الفهم الكراهية، رد الرجعية. الموت القتل بعنف «النور يأتلق في الظلمة والظلمة لا

تدركه» الصراع ما بين النور والظلمة، ما بين الحب والكراهية، ما بين العقل واللا عقل الذي في قلب الكون يظهر في هذه المأساة المؤثرة لعصرنا، لقد جرعنا سقراط الموت. سمّرْنا المسيح على الصليب. أشعلنا حزم الحطب التي أحرقت شهداء القرون الوسطى. لقد رجمنا وقتلنا أنبياءنا. لم ينج غاندي من قدر أن لا يكون مفهوماً أو مكروهاً. لقد قابل موته مواجهاً قوى الظلام والجهل المطبق، ومن خلال ذلك قوّى قدرات النور الحب والعقل. من من يدري لو أن المسيحية تطورت أما كان يصلب المسيح؟ منذ سنين أعلن رومان رولاند أنه يعد غاندي «كمسيح ينقصه الصليب» ولقد أعطيناه الصليب أيضاً. كان موت غاندي نهاية كلاسيكية لحياته. مات واسم الله على شفتيه والحب في قلبه، حتى بعد أن تلقى الجراح بالرصاص حيا قاتله وتمنى له الخير. لقد عاش ما كان يعظ به.

مالكاً وملهماً بالمثل العليا التي تستطيع بلوغها الطبيعية الانسانية، يعظ ويمارس بلا خوف الحقيقة كما تجلت له، قاد لوحده تقريباً مابدا أنه مهمة يائسة ضد قوى الجشع العقيمة والحماقة. ومع ذلك مواجهاً الصعوبات الشاقة بالسكينة، بقرار لم يخضع شيئاً للسخرية أو الخطر، غاندي قدم لعالمه المكذب كل ما هو نبيل في روح الانسان. أضاء كرامة الانسان بالايمان بأهمية جهد الانسان الخالدة، إنه ينتمي الى النموذج الذي يفتدي العالم.

إن كان غاندي قادراً على تخليص نفسه من كل الضغينة والحقد، لإيقاد شعل الحب التي أحرقت كل الدناسات، إن لم يخش شراً بالرغم من أنه مشى في وادي ظل الموت. إن مثل لنا الصوت الخالد للأمل فإن ذلك يسبب أنه آمن بتراث الهند وقوة الحياة الداخلية للروح. حين تعاودته المشاكل المادية والروحية حين هزته العواطف المتصارعة حين اضطهدته الاضطرابات تقاعد بارادته الى صفوف الروح الخلفية والدهاليز السرية للنفس ليحصل على القوة والانتعاش. أعادت حياته الحياة وأنعشت حسّ ومعنى وقيمة الدين. رجال كاولئك الذين امتلأوا بالتوازن الروحي ومع ذلك أخذوا على عاتقهم عبء معاناة الانسانية يولدون في العالم في فواصل طويلة.

لقد قتلنا جسده. لكن روحه التي هي نور من الأعلى ستنفذ بعيداً في الزمان والمكان وتلهم مالا يحصى من الأجيال بحياة نبيلة «كل ما هو ممنوحاً المجد والجمال والقوة، إعلم أنه نبع من جزء من بهائي».

## د. سارفيبالي راداكريشنا

### بهاغافان سري رامانا

مدهش الى حد ما أن كثيراً من دارسي الـدين يعتقـدون أن أنبياء الدين، الممثلين الحقيقيين للعبقـرية الدينية، ينتمون جميعاً الى الماضي ونحن اليوم نعيش على ذكـرى المـاضي. إذا كان الـدين حقيقـة حية، اذا كان له شيء من الحيوية، فيجب أن يكـون قادراً على إنجـاب أنـاس بين حين وآخـر يكـونـون شهـوداً على الحقيقة ويثبتون ويصححون من خلال تجربتهم التقاليد الدينية. حين تجف ينابيع التجربة فإن حبنا للدين يكون مجرد تعاطف، وإيماننا يغدو اعتقاداً وسلوكنا عادة لا حقيقـة تسـانـده. في التقـاليـد الـوثنية الهندية لم يكن يُعنى بالدين فهماً للحقيقة متخيلاً أو عقـلانيـاً انـما تلاحم مع الوجود المتجدد. يجب أن يشحن الدين وجداننا بالطاقة ويحول شخصياتنا ويجعل منا أشخاصاً جدداً. المتدينون الحقيقيون هم أولئك الذين لديهم الرؤية الثاقبة للحقيقة غير المرئية التي نحن الناس العاديين نكتفي بالاعتقاد بها. انهم ليسوا عجائب تدعو الى الحقيقة الروحية التي هي للخاصة ومكثفة. انهم يخبرونـا بأن لديهم معـرفـة مبـاشـرة للحقيقي الـذي لدينـا عنه معرفة غير مباشرة واستـدلاليـة. الله عنـدهـم حقيقـة لازمة، وجود حي وبوعيهم لهذه الحقيقة يتحول كامـل وجـودهم. فنانو الحياة الداخلية هؤلاء نماذج مختلفة. بعضهم مفعم بالشعر والموسيقى وآخـرون أهل عمل أقوياء؛ ويظل اخرون ذوي أرواح متوحدة. ورغم هذه الاختـلافـات فهم يمشـون على الـدرب نفسـه، يتحدثون لغة الروح نفسها وينتسبون الى عائلة واحدة.

بقيت التقـاليـد العـريقة الهندية محفوظة على أيدي أنبياء ولدوا في كل عصر

وجسدوا المثل العظيمة. ولدينا مثل هذه النفوس الصلدة حتى في يومنا هذا. ومن حسن طالعنا أن معنا في هذه الأيام تجسيدا حياً للحياة التي مركزها الله. صورة كاملة للحياة الالهية في مراياهم التي تعكس الوجود الانساني. سري رامانامااهارشي ليس عالماً؛ لم يتلق تعليماً، إلا أن لديه الحكمة الآتية من تجربة مباشرة مع الحقيقة، الحكمة التي تحصل عليها من خلال الانضباط، لامن خلال العقل بل من خلال الطبيعة من خلال المعرفة، والقوة والطاعة. امتلاك مثل هذه الحكمة يُخضع ثمار الروح والحب والنقاء والشجاعة والاتضاع والتواد والتوحد.

ولد سري رامانا في الثلاثين من كانون الأول عام ١٨٧٩، بميل كامن نحو الدين. لم يكن موفقاً في الدراسة لأن قلبه مشغول في مكان آخر. قراءته لبير يابورانام واعتمادها على تكريس ذات البهاكتاس أثر تأثيراً قوياً على طبيعته التقية. التغيير الذي أخذ به بعيداً عن الأمور الدنيوية هكذا يوصف بكلماته هو: كان قد مضى ستة أسابيع قبل أن أغادر مادورا نهائياً حدث ذلك التغير الكبير لحياتي، كان مفاجئاً. وقفت في أحد الأيام وحيداً في الطابق الأول من بيت عمي (أو خالي) وكنت في صحتي الجيدة المعتادة. لكن خوفاً مفاجئاً لا يخطىء من الموت استولى علي. شعرت أنني مقبل على الموت وفوراً أخذت أفكر بما عليّ أن أفعل. لم أهتم باستشارة أحد، سواء كان طبيباً أو كبيراً في السن أو صديقاً، شعرت أن علي أن أحل هذه المشكلة بشكل أو بآخر. جعلني خوف الموت منطوياً على ذاتي. قلت مخاطباً نفسي دون أن أنبس بالكلمات: «الآن الموت قادم ماذا يعني؟ من الذي سيموت؟ هذا الجسد يموت» وفوراً تمثلت الحالة. مددت أطرافي وصلبتها كما لو أن الموت حل بها فعلاً. قلدت جثة لاستعير جواً من الحقيقة لبحثي. أوقفت نفسي وأبقيت فمي مغلقاً ضاغطاً شفتي على بعضها حتى لا يخرج أي صوت. «حسن إذن». قلت لنفسي «هذا الجسد ميت». سيحمل متصلباً الى المحرقة ثم يحرق ويتحول الى رماد. لكن بموت جسدي هل أنا ميت؟» هل الجسد أنا؟ هذا الجسد صامت وعاجز، غير أني لا أزال مدركاً لكل قوتي الشخصية وحتى مع صوت الأنا في داخلي منفصلاً عن الجسد. اذن فأنا روح طالعة من الجسد، الجسد المادي يموت لكن الروح تصعد لا يمكن أن يمسها الموت أنا لذلك الروح التي لا تموت. لم يكن ذلك عملاً من أعمال الرياضة العقلية بل جاءني كومض أمامي شع كالحقيقة الحية شيء استوعبته فوراً دون أية مناقشة. كنت شيئاً حقيقياً كليه الشيء

الحقيقي الوحيد في تلك الحالة وكل الفاعلية الواعية المرتبطة بجسدي تركزت على ذلك . أناي أو نفسي كانت تحمل بؤرة الانتباه بروعة قوية . تلاشى خوف الموت في تلك اللحظة والى الأبد . الانكباب على النفس استمر من تلك اللحظة حتى الآن» تزايد الانكباب على المسائل الروحية جعلت من سري رامانا غير مبال بدراسة . حين قرع على ذلك غادر منزله في التاسع والعشرين من آب عام ١٨٩٦ مخلفاً ملاحظة «لقد بدأت من هذا المكان بحثي عن أبي حسب أوامره . بهمة فاضلة حقاً أقوم بهذه الرحلة . ولذلك من أجل هذا العمل لا أحد يحتاج الى أن يحزن أو أن يتقصى أثري في هذه المرحلة التي لاتحتاج الى المال» . وهكذا وتحت الاحساس بالامر الالهي غادر مادورا . وبعد قليل من المتاعب وصل الى تير وفانامالاي في الأول من ايلول . وحين زار المعبد سقط مغشيا عليه . في مثل هذه الظروف ينشأ الاحساس بالتوحد مع الحقيقة المطلقة . سري رامانا اعتزل العلم واصبح أفادهوتا وهي كلمة منحوتة تتألف من أربعة حروف آ ـ فا ـ دهو ـ تا . الحرف الأول مأخوذ من أكسارتفا أو الخلود (عدم الفناء) الثاني من فارينياتفا أو ذروة الكمال والثالث من قطع الوشائج التي تورطنا مع ماهو أرضي . والأخير من ادراك الحقائق المنقولة عبر الممر العظيم . «هذا أنت» . بلوغ هذه الحالة من الوعي المنسجم كان هدف الناس المتدينين . إذا أضعنا أنفسنا في الأمال والرغائب ، في المخاوف والأهواء التي تتزايد وتتضاءل مع أحداث العالم الخارجي . إذا ماخضعنا لغوايه ـ بدفة الزمان والمكان فسنخسر أنفسنا . الشك الذي يتيسرب من الخارج ليس ذا أهمية مقارنة مع الشك الذي ينبع من الداخل . الشر الحقيقي ليس موت الجسد بل إخفاق طبيعة المرء ، موت الايمان بالحقيقة المطلقة .

بتفكيره سري رامانا يتبنى الموقف الميتافيزيائي للأوفيتافيدانتا ، إنه يحدثنا عن الالهي الذي هو الموضوع التقي المتنزه عن كل الموضوعية الـ«أنا» مختلفة عن الـ«ي» ، النفس ليست الجسد الفاني ، ليست الحواس التي تعاني مصير الجسد ، ليست الحياة ، ولا العقل والذكاء . إنها الشاهد الطاهر الذي هو نفسه في الجميع . نتوصل الى إدراكه لا بالتنظير الميتافيزيائي بل بالانضباط الروحي . الحقيقة تصطدم بوهج الحياة ولكي تكتشف الحقيقة فالتركيز المطلق والترهب أمران اساسيان . علينا أن نهدىء رغائبنا ونثبت دوافعنا ، ونمشي في الدرب الاخلاقي . لا نستطيع أن نرى طالما أن رؤيتنا مشغولة في الأشكال الخارجية لكن أولئك الذين

يردون أبصارهم الى الداخل يرونها. لا أحد يستطيع أن يرى بوضوح مادام مجزءاً وغير متوحد وجدانه. يجب أن نصبح روحياً كلاً وأحراراً. لا نستطيع أن نمتلك هذه الكلية أو التوحد اذا لم نجتث دوافعنا الأنانية. لا نستطيع أن نعرف حقاً أو نفعل صواباً مادمنا خائفين جداً ما دمنا متراخين مقوقعين على ذواتنا. من أجل أن ترى الحقيقي لافقط أشياء العالم فإن على العين أن تنقلب. الله في داخلنا. لا الراحة بل التحكم هو السعادة «إن جاء أي رجل بعدي، فلينكر نفسه» هكذا يقول المسيح. وقف الذات على الله تعني إنكار الآنا. يجب أن نفرع النفس في متاهة الله. وهذا الاجراء يعين عليه ممارسة الخدمة غير الأنانية (يلسكاماكارما) والتقوى (بهاكتي) والتحكم بالعقل (يوغا) والتقصي؛ البحث في الذات والعبادة والدينية والخدمة الأخلاقية هي وسائل لهذا الادراك. غاية كل عبادة يوجاجابا دهايانا. هي الاتحاد بالله. ومع ازدياد حدة التقى لدينا فإن المسافة بين الانساني وبين الالهي تختفي. يعتقد الفكر الهندي بمراتب أربع لادراك الله - سالوكيا حيث يقيم والعابد في العالم ذاته، سانوبيا، حيث يكون المتعبد قريباً من الالهي، ساروبيا حيث يتمثل المتعبد المزيد والمزيد من أشكال الالهي وهباته. وسايوجيا حيث يكون المتعبد متحداً في الالهي.

حين يكتشف المرء الالهي في ذاته، عليه أن يكتشفه أيضاً في العالم الخارجي والأشياء. في حين تتجلى الأعالي في الداخل لأولئك الذين أزاحوا بحماسة كل ما يستقر في الخارج فإن عملية رؤية الكل في كمال الالهي هي أكثر شدة. الله هو الصمت الخالد والفعالية السرمدية كلاهما، الشاهد الثابت وأرض (الأرضية) كل ماهو ميتافيزيائي مطلق والاله الشخصي. الالهي يكشف عن ذاته جديداً في كل الحياة والوجود. لاشيء على الأرض خارج الوعي الالهي. الالهي في الحياة التي ولدتنا هو أبعد من أبعد أفكارنا. سري رامانا يسكن لا في عالم من الذاتية الصافية بل لديه الحس باللامحدود الذي في الكل. حين محا أناه الأنانية أصبح صوت الكل، إنه وجدان الكل، وطالما أنه ليس لديه رغبات أنانية ولا حس القوة فهو يدخل في حركة العالم ويقوم بما يتوقع منه بهذه الروح الشاملة. التشريف والتحقير، المديح واللوم لا تثيره. الأفعال ليست بحكم ضرورة الطبيعة بل متمركزة في حرية الالهي.

إنه افتراض زائف أن نظن أن الأقوياء روحياً ليس لديهم صبر على الضعف

الانسـاني . انهم ليسـوا بليـدي المشـاعر تجاه الأسُ الانساني الـ«تسيس هم كاشفوا الحقيقة، التي هي السعادة كلها، لا يحتفظون باكتشافاتهم لأنفسهم . إن لهم أهمية اجتـماعيـة . وبصحبتهم نحن، النـاس العاديين، ندرك واقعية عالم الروح ونقتبس بعضـاً من نارهم، عظـماء الـروح هم ملائكة معاونون يساعدون ويحمون ويمدون يدالعون للمحتاجين . الصلة بالناس تنتج الانفصال عن ثمار الفعل ذلك الانفصال يقود الى عدم الرغبة ومن عدم الرغبة ينهض استقرار العقل؛ التحرر في الحياة إذن قد بُلغ . الـ«يـويـاينشـاد» يسأل الطمـوح الى الحيـاة الـروحيـة ان يكـون في متنـاولـه، معلما ضليعـاً بالكتب المقـدسـة، ثابتاً على ادراكه العلوي . المعلم يري الدرب . وجوده القريب منه يشع بالأمن والفرح . يجدد أرواح اولئك الذين يطلبون مسـاعـدتـه . وبتبصـر نفسي حاذق يفهم حاجـات اولئـك الـذين يسعـون اليـه ويرضيهم . كجميع القديسين لديهم الأساس في الله : سطحه (مظهره) بجدول مع كل ماهـو موجـود . يحب كل المخلوقـات كما يحب نفسـه ولا يرتـاح حتى يرى كل امرىء يعكس الالهي في حياته .

القـديسـون هم دعـامـات المجتمـع . يلاحظ فيلو: «الأسر، المدن، البلاد والأمم يستمتعون بسعادة كبرى حين يأخذ فرد واحد بالاهتمام بالخير والجمال . مثل هؤلاء النـاس لا يحررون أنفسهم فحسب، بل يملأون من يقـابلونهم بعقـل حر» الحكيم الحق يمتلك الفـرح الـداخـلي والسـلام اللذين هما مستقلان عن الظروف الخـارجيـة . سعـادتهم لا تعتمد على الأشياء الخارجية . لقد تجاوزوا أشكال الحياة الاجتماعية . نكرانهم (زهدهم) للذات عفوي ولا يتضمن أي فكرة عن التضحية . انهم يعملون من أجل اتمام الالهي في العالم . لخير جميع الخلوقات ولاتمام الهدف . هم متوحدون في الوجدان والفعل مع الإلهي .

القول بأن النفوس الروحانية يتوقع منها الامتناع عن الفعل في العالم أمر غير صحيح . الفرص التي يتيحها العالم يجب أن يستفاد منها لتطوير النفس . الحياة لعبة حيث يجب أن نلعب أدوارنا، جميعنا فريق لأدوار مختلفة وشغلنا هو أن نلعبها بروح صحيحة، يمكن أن نخسر اللعبة لكن علينا ألا نكترث بها . المهم هو اللعبة لا ما نسجل من نقاط .

اذا كان للعالم أن ينقذ (يوهب الخلاص) فإن ذلك لا يتم إلا بتدخل عالم آخر فيـه، عالم حقيقـة أسمى وحقيقـة أعظم من تلك الغـارقة في النزاعات والمعاناة التي

نشهدها في أيامنا. إن إخفاقنا في تحقيق صلة مع عالم الحقيقة هذا، هو سبب بلوانا. وأناس مثل سري رامانا يذكروننا بذلك البعد الأعظم للحقيقة التي ننتمي إليها حقاً رغم عدم معرفتنا بها عموماً».

بها غافان سري راماناهاراشي - ذكرى العيد الذهبي - ١٩٤٦.

# جواهر لآل نهرو.

**جواهر لال نهرو.**

## الهند اليوم وغداً

محاولة فهم هند اليوم ووصفها يمكن أن تكون مهمة رجل شجاع، والحديث بأي شيء عن غد الهند قد يكون ضرباً من التسرع. حقاً، في أي زمان في تاريخ العالم لم يكن أكثر صعوبة من الآن التنبؤ بمستقبل أي بلد من بلدان العالم. تسير الأحداث بتسارع لا يصدق والتغيير يتبع التغيير. والمظهر السطحي للسياسة يغطي عدداً لا يحصى من التيارات تحت السطح، أحياناً تفجر شكل الأشياء أو تقلبها رأساً على عقب.

الهند اليوم ليست حصيلة الماضي المباشر فقط، بل آلاف السنين ذات القصة الطويلة لبلدنا. طبقة فوق طبقة من الفكر، التجربة والفعل شكّلانا وجعلا منا ما نحن عليه الآن. أولئك الذين من جبلي في الهند قد تشكلوا خاصة وتكونوا بسلسلة من الأحداث التي قد لا تكرر ثانية. ليس فقط لأننا كنا على صلة برجل عظيم وقائد قدير هزنا جميعاً هزة قوية، قلب حيواتنا وشدنا خارج نظام الحياة العادية بل لأننا أيضاً شاهدنا وشاركنا في أحداث ذات أهمية تاريخية. لقد مررنا بلحظات عديدة من التوتر الشديد والهيجان العاطفي. وأيضاً رد الفعل على ذلك والاحباط بين حين وآخر الأقرب ما يكون لليأس. ومع ذلك فليس صحيحاً كل الصحة لأننا نجونا من الشعور بالانقلاب العقلي والمادي الذي يلي عادة التوتر العصبي حين يكون شديداً. كان هناك دائماً ما نتشبث به، قائد كان كصخرة أو منارة وحركة أثارتنا واستنفد أفضل ما لدينا، تلك اللحظات كانت غالباً غير مسرة بل وكانت أحياناً مؤلمة، لكن كان هناك دائماً وشعور بالرضا واحساس بأننا نقوم

باعـمال عظيمـة وأننـا نساير خُطا التاريخ. كان الفكر والعمل يسيران معاً واثارا فينا بهجـة الحيـاة الكـاملة فينـا. ومـا أنقـذنـا، أكثر من أي شيء آخر، كان ايماناً بأننا نعمـل، حتى في الشؤون السيـاسيـة، على قاعـدة أخلاقية ومثل عليا. لم يتمكن الحقد منا شأنه في الصراعات، وخاصة، في النضالات القومية.

كان غانـدي دائـماً أمـامنا وفي عقولنا لكن كان هناك آخرون أيضاً عمالقة بين الرجال وكان هناك أيضاً رفقة مالايحصون من الرجال والنساء الذين علت مكانتهم لأنهم حالفـوا قضـايا عظيمة وقائداً عظيماً. وبين هؤلاء العمالقة الشباب في السن، لكن دائـماً يبدون من كبار المتقاعدين في الحكمة. كان مولانا آزاد. لقد احتل مكاناً خاصـاً في حركتنـا، ومثـل لنـا، أكثـر من أي شخص آخر، خلاصة الثقافات التي جاهـدت من أجلهـا الهنـد دائـماً. لقـد أعـانتنـا على أن نخرج من خنادق القومية الضيقة ووسعت نظرتنا. كان غريباً أن كثيراً من الناس، الذين كانوا مختلفين كثيراً فيـما بينهم، قد وجـدوا بينهم رابطـة قويـة مشـتركـة وأن عليهم أن يعملوا معـاً مدة جيل كامل.

ما الهنـد؟ يتردد هذا السؤال ويتكـرر في بالي وبحثت، على طريقتي كهاوٍ، عن جواب له في ماضيهـا وحـاضرها، بدايات تاريخنا المبكرة ملأتني بالعجب. لقد كان ماضي جنس قوي وعريق ذي روح مسائله، ودفع نحو البحث الحر، حتى في أقدم عصورها المعروفة، مقدماً الدليل على حضارة ناضجة ومتسامحة. قابلة بالحياة بأفـراحهـا وأعبـائهـا، كانت دائـماً تبحث عن المطلق والشـامـل. بنت لغة رائعة، السنسكريتية ومن خلال تلك اللغة وفنها وعمارتها، أرسلت رسالتها النابضة بالحياة إلى البلاد البعيدة انتجت الـ«أوبانيشاد. و«الغيتا» والـ«بوذا».

نادراً مالعبت أيـة لغـة في العـالم ذلـك الدور الحيوي في تاريخ أمة كما فعلت السنسكـريتيـة. لم تكن مركبـة الفكـر السـامي وبعض أروع الأدب فقـط. بل أصبحت الرابطة الموحدة للهند رغم وجود تقسيمات سياسية. الرامايانا والمهابهاراتا نسجتافي قماش ملايين الحيوات في كل جيل لآلاف السنين. كنت كثيراً أتساءل اذا ما نسي شعبنـا الـ«بـوذا»، والاوبانيشاد والملاحم الكبرى فكيف سيكون؟ سيقتلع من جذوره ويخسر مزاياه الأساسية التي تعلقت به وأعطته الصفات المميزة عبر تلك العصور المديدة. الهند لن تبقى الهند.

تدريجياً حل التخلف، فقـد الفكـر نضـارتـه وأصبح باهتاً. حيوية الشباب

ونضارته حل محلها الهرم. وبدل روح المغامرة جاءت الرتابة الميتة، وبدل النظرة الواسعة الباهرة حلت التقاليد والطقوس الاجتماعية. ومع ذلك كانت للهند من الحيوية ما مكنها من امتصاص جداول الشعوب التي كانت تنصب في محيطها الانساني العظيم، ولم تنس أبداً الافكار التي هزتها في أيام شبابها وقوتها.

ومن ثم تأثرت الهند بقوة بمجيء الاسلام والفتوحات الاسلامية. تلتها القوى الاستعمارية ومعها نمط جديد من السيطرة، والاستعمار الجديد وفي الوقت ذاته تأثير الأفكار الحديثة والحضارة الصناعية الآخذة في النمو في أوروبا. بلغت تلك الفترة أوجها، بعد نضال طويل، في الاستقلال ونحن نواجه الآن المستقبل بكل أعباء الماضي هذه فوقنا مع الأحلام المشوشة ومحرضات المستقبل الذي نسعى لبنائه. كل هذه العصور متمثلة فينا وفي بلدنا اليوم. القوة المنظمة والطاقة هما رمزا العصر الحديث. لدينا تقدم في علم الذرة والطاقة النووية في الهند والى جانبه عصر روث البقر. وهكذا كل قرن ممثل في هذا البلد، بالاضافة، الى التعددية الهائلة. خلف تلك التعددية هناك الوحدة التي أبقت شعبنا مع بعضه عبر العصور رغم الكوارث والنكبات. نحن نقتحم عالم العلم والتكنولوجيا ونحاول أن ننظم معرفتنا بالطريقة التي تمكن من زيادة السيطرة على قوى الطبيعة وتدفع الى الخلف لا بفقرنا وتخلفنا فحسب، بل أيضاً ببعض الأفكار الموروثة والعادات، ليس لنا مستقبل بغير العلم والتكنولوجيا، وفي الوقت نفسه سيكون المستقبل ضحلاً وفارغاً وبدون معنى حقيقي اذا تجاهلنا أو نسينا ماضينا.

وهكذا، في غمرة الاضطراب والتشوش في زمننا، نقف مواجهين كلا الطريقين: الأمام نحو المستقبل والوراء نحو الماضي مشدودين الى كلا الاتجاهين. كيف لنا أن نحل هذا الصراع ونرفع بناء للحياة يلبي حاجاتنا المادية، وفي الوقت ذاته نحافظ على عقلنا وروحنا؟ أية مثل قديمة أو جديدة، متنوعة أو مقتبسة في العالم الجديد يمكن أن نضعها أمام شعبنا وكيف نجعلها تتفاعل محدثة يقظة وفعلاً؟

لدينا مشاكلنا الخاصة في الهند، غير أننا نشترك بمشاكل كبيرة لعالم، رغم تقدمه الهائل، يظهر أنه متجه نحو فقدانه ايمانه بنفسه، في الوقت الحاضر نحن منهمكون كلياً في التقدم الاقتصادي. خطة خمسية وجهد هائل لرفع مستوى معيشة شعبنا. كل هذا أساسي وشرط لأي من أشكال التقدم. لكن شكاً يزحف الى عقولنا. هل يكفي هذا بحد ذاته أم يجب أن يضاف اليه شيء ما؟ دولة الرفاهية

مثـل جديـر، لكن يمكن أن يكـون كئيبـاً، وأمثلة الـدول التي حققت هذا الهدف ظهرت لها مشاكل ومصاعب جديدة لم تحل بواسطة التقدم المادي وحده أو بالحضارة الآلية، لعب الدين دوراً مهماً في تلبية حاجات رئيسية للطبيعة البشرية. لكن ذاك النمـط من الـدين قد ضعف تأثـيره كما أنه عاجز عن مواجهة الانقضاض الضاري للعلم والعقلانية سواء كان الدين ضرورياً أم لا، فإن الايمان بمثل أعلى مهم وأمر أسـاسي ليمنـح حيـاتنـا جوهـرها ويضمنا الى بعضنا. يجب أن يكون لنا إحساس بالهدف يتجاوز متطلبات حياتنا اليومية المادية والجسدية.

الاشـتراكيـة والشيـوعيـة تحاولان أن تقـدمـا الاحساس بالهدف هذا، لكنهما تتجهان الى تكوين تعاليمهما الخاصة بهما. أصبح الشيوعيون غيبيي هذا العصر.

كل مجتمـع يحاول أن يجد توازنـاً. أحيـانا يكون هذا عبر الصراعات وأحياناً بمحاولات عفوية ولا واعية لتحقيق الانسجام. المجتمع البدائي الذي يتغير كثيراً يعيش في حفرة وهكذا لديه توازن ذي مستوى متدن. المجتمع الدينامي يخلق التوتر في الفـرد كما في الجـماعة اذا كان هذا صحيحاً فإن التوترات الحالية في العالم تشير الى فاعليـة هائلة وكفـاح من أجـل توازن جديد وبعد جديد في الوجود الانساني. وهذا يجب أن يســرنــا لولا هذا الخـوف من أن أسلحـة هذا العصـر النـووي يمكن أن تقضي على الانسانية.

يجب أن ننظر للمستقبل ونعمل من أجله بعزم وبإيمان وقوة، في الوقت نفسه يجب أن نحـافـظ على تراثنـا المـاضي ونستمـد منـه العون. التغيير اساسي. لكن الاستمـراريـة ضروريـة أيضـاً، المستقبـل يجب أن يبنى على آسـاسـات مقامة في الماضي والحاضر. انكار الماضي وقطع الصلة به كلية هو أن نقتلع أنفسنا من الجذور ويجف نسغنـا ونـذبـل. كانت فضيلة لغـانـدي أن يبقى قدميـه مغـروسـتـين بثبات في التقـاليـد الغنيـة لشعبنـا وتـربتنـا وفي الـوقت نفسـه يوظفهـا على المستوى الثـوري. انتقـده كثيرون على ما يدعـونـه قبوله بالنظريات الاقتصادية العتيقة أو على دعمه لنوع من المحافظة على التقاليد أو حتى تشجيعه قوى رجعية ومع ذلك فإن كل من يتفحص فعاليته المختلفة يدهش بنتائجها الثورية. سواء نظرنا اليها في الحقـل السيـاسي أو الاجتـماعي، نجـد بعض الصعـوبـة في تبينها لأننا نشأنا على التقـاليـد الغـربيـة في الصراع. عرف أن الثورة الحقة يقوم بها الشعب ولا تكون في القمة وهذه الثورة يجب أن تكون اجتماعية اساساً. كثير من المصلحين الاجتماعيين

البارزين الذين جاؤ وا قبله ونجحوا في تحقيق بعض التغييرات الصغيرة أو بإحداث طائفة جديدة، لكن غاندي، كما يعبر رام راجا، جاء بالثورة الى ملايين البيوت من دون أن يدرك الشعب تماماً ما يحدث. نادراً ما أدان نظام الطبقات اجمالاً (رغم أنه في أيامه الأخيرة فعل ذلك الى حد ما) لكنه بإصراره على رفع شأن الطبقات المضطهدة والمنبوذين، هدم نظام الطبقات بكامله وقد فعل ذلك بقصد عارف النتائج، بفنه في العمل السياسي نفح روح الحياة في مئات الملايين من الشعب نزع الخوف منهم وخلق فيهم احترام النفس والاعتماد على النفس. بتأكيده على المحرومين والفقراء أجبرنا جميعاً على التفكير بشروط العدالة الاجتماعية. فعل ذلك كله بهدوء وبلا انفعال متجنباً الى حد كبير نزوعاً الى الصراع. وفوق كل ذلك طرح تأكيداً على الحقيقة والوسائل السلمية. حقاً أن الحقيقة أصبحت شرط حياة بالنسبة له وكان عمله الفعال ملازماً للحقيقة. في فعله كذلك أيحا ذاكرة شعبنا عن المبادىء الاساسية التي أغنت جنسنا في الماضي. وهكذا بنى على أساسات قديمة وفي الوقت ذاته وجه البناء نحو المستقبل. وحقيقة أن بعض آرائه الاقتصادية والأعمال الأخرى لم تتلاءم مع الأفكار الحديثة أو كان لها أهمية موقتة لم تكن لتزعجه. كان دائماً مهيأ لأن يكيف نفسه لظروف متغيرة شريطة أن يكون الأساس متينا.

كان دائماً يبدو لي مدهشاً كيف يمكنه أن يربط الماضي بالحاضر وحتى بالمستقبل. ولأنه فعل ذلك استطاع أن يجعل شعبه يتقدم خطوة بعد خطوة دون توقف، ويتجنب ايضا الصراع الى درجة معقولة. أعظم الدروس حيوية أعطاها لنا أو جعلنا نتذكرها من جديد. كان أهمية الوسيلة. الغايات لا تكفي لوحدها لأن الغايات تتشكل بالوسائل التي تقود اليها. إذا كان ثمة حقيقة أساسية في هذا المبدأ وفي هذا الأسلوب في العمل. فعلينا إذن أن نبني على الأساس الذي أقامه. لا يعني هذا انقياداً لكل شيء قاله أو فعله, ما يمكن أن يكون ملائماً في مرحلة من مراحل وجودنا قد لايكون ملائماً اليوم. يجب علينا أن نكيف أنفسنا مع الظروف المتغيرة. لكن يجب أن تظل المبادىء الأساسية نصب أعيننا هادية لنا.

حين جاء الاسلام الى الهند على شكل غزو سياسي جلب معه الصراع. كان له تأثير ذو جانبين. فمن جهة شجع ميل المجتمع الهندوسي الى الانكماش أكثر داخل قوقعته، ومن جهة أخرى جاء بهواء منعش جديد وأفكار جديدة وهكذا

كان له تأثير تجديد الشباب. كان المجتمع الهندوسي قد أصبح مجتمعاً منغلقاً على عكس البوذية التي هي من نتاج عظيم آخر للفكر الهندي. المسلمون القادمون من الخارج جلبوا معهم نظامهم المنغلق الخاص بهم. وهكذا اجتماع نظامان منغلقان، ولم يكن احدهما من القوة بحيث يجتث الآخر أو يقتلعه. النصر السياسي لم يؤ ذ الى فتح ثقافي أو اخلاقي أو ديني. التقاليد الهندية القديمة والديانة كانت لا تزال قوية وثابتة بما يكفي لمقاومة التأثير الجديد. جاء المسلمون برسالة قوية خاصة بهم فلم يكن من السهل احتواؤ ها كما حصل بالنسبة للقادمين السابقين لكنهم لم يستطيعوا أن يغيروا الصفات الاساسية للشعب الهندي. منذ ذلك الوقت فإن المشكلة الكبر ى التي واجهت الهند هي كيف لهذين النظامين المنغلقين وكلاهما ذو جذور عميقة، أن يقيما علاقة صحية بينهما، حكام حكماء مثل أكبر وآخرين تبينوا أن الأمل الوحيد للمستقبل يكمن في نوع من الانسجام أخذ يتأسس.

فلسفة الهندوس ونظرتهم للعالم كانت متسامحة بشكل عجيب، ومع ذلك فقد قسموا أنفسهم الى شيع متفرقة وطبقات. كان على المسلمين أن يواجهوا مشكلة جديدة، كيف يمكن أن يعيشوا مع الآخرين متساوين. في البلاد الأخرى حيث ذهبوا كان نجاحهم باهراً ولم تجابههم مثل هذه المشكلة. بدأوا بصراع مع العالم المسيحي ولم تحل المشكلة خلال مئات السنين. في الهند بدأت ببطء تظهر تركيبة جديدة. وقبل أن يكتمل تكونها تدخلت تأثيرات أخرى لتفعل فعلها. الأمم الغربية المتقدمة صناعياً وقد أصبح لديها شعور قوي بالتفوق الكبير على الآخرين وعاشت منفصلة تنظر من عل الى الذين تحكمهم. أصبحت الفجوة بينهم وبين الهنود أكبر بكثير مما كان بين الهندوس وبين المسلمين.

للمرة الأولى أصبحت الهند تحت حكم استعماري من بلاد بعيدة. سابقاً كان الغزاة والفاتحون القادمون الى الهند يجعلون منها وطنهم ولم ينظروا الى جهة أخرى، وأصبحوا هنوداً بشكل رئيسي. الآن. نمط جديد من الغزو أخذ مكانه ولم يستطع أن يوجد جذوراً في الهند. كان هناك حاجز كتيم بينهم وبين أهل البلاد سواء كانوا هندوساً أو مسلمين أو غيرهم.

ومع هذا أخذ فكر تحرري غربي جديد قادم من الغرب ومن عملية التصنيع يؤ ثر في عقل وحياة الهند. وأخذت تتكون قومية جديدة، التي هي بالطبيعة ضد الاستعمار وتعمل للاستقلال ومع ذلك أخذت تتأثر كثيراً بالحضارة الصناعية كما

تتأثر باللغة والأدب وأساليب الغرب. هذا التأثير كان شديداً على الشرائح العليا من الشعب أما الجماهير العريضة فكانت غارقة في الفقر.

جاء رام موهان روي، يسعى من أجل نوع من التأليف بين الهند القديمة والاتجاهات المعاصرة. فيفيكانادا استعاد بعض قوة الفكر الهندي العريق وألبسه بزة معاصرة. الحركات السياسية والثقافية نمت وبلغت ذروتها عند غاندي وطاغور.

في أوروبا حصل صراع حاد بين العلم وبين الدين التقليدي، وعالمية المسيحية لم تتلاءم مطلقاً مع النظريات العلمية. أما في الهند فلم يأت العلم بحس الصراع هذا فالفلسفة الهندية كانت قادرة على قبوله دون أن تمس مفاهيمها الأساسية بضرر. لكن البنيان الاجتماعي للهند أصبح معارضة أكثر فأكثر للاتجاهات الحديثة.

في الهند كما في غيرها تكونت قوتان ـ بروز القومية وهاجس العدالة الاجتماعية. أصبحت الاشتراكية والماركسية رمزي ذاك الهاجس الدافع للعدالة الاجتماعية وبعيداً عن محتواهما العلمي لقيتا قبولاً عاطفياً هائلاً لدى الجماهير. كان ماركس متأثراً مبدئياً بالظروف الكئيبة التي تكشفت في أيام التصنيع الأولى في أوروبا الغربية. في ذلك الوقت لم يكن هناك بناء ديموقراطي حقيقي للدولة. وصعب تحقيق التغيير بطريقة دستورية. فكان العنف الثوري الوسيلة الوحيدة للتغيير. لذلك، فكرت الماركسية بمفردات الثورة العنيفة كأمر لابد منه. كان ذلك أيضاً تقليداً أوروبياً، منذ ذلك الوقت، على أي حال، أخذت الديموقراطية السياسية تنتشر جالبة معها امكانية التغيير السلمي. كان هناك أيضاً التقدم الهائل العلمي والتكنولوجي الذي جعل الازدهار المادي في متناول الجميع. الرأسمالية نفسها اليوم تمر بتغيرات كبيرة رغم أنها تحافظ على ملامحها الاسياسية واتجاهاتها نحو الاحتكارات والتجمعات الاقتصادية. بناء الدولة الديموقراطي والعمل المنظم وفوق كل شيء، الدافع نحو العدالة الاجتماعية وكذلك التقدم والتكنولوجيا، قدموا جميعاً هذه التحولات، نرى الآن بلاداً رأسمالية حققت مستوى مادياً عالياً للحياة لجميع افراد شعوبها.

ترى أيضاً تقدماً هائلاً في الرفاهية المادية والتقدم العلمي اوالتكنولوجي في الاتحاد السوفييتي قد تحقق في وقت قصير نسبياً، والقول بأن هذا كله قد تحقق بصورة رئيسية بواسطة العنف غير صحيح، كان هناك عنف كاف في الأنظمة

الأخرى أيضاً. لكن صحيح، أظن أنه بسبب ظروف خاصة كان هناك عنف أكبر وتطهيرات مرتبطة بتطور الاتحاد السوفييتي. وأكبر إدانة وجهت لهذا العنف. وكانت من قبل قادة الاتحاد السوفييتي الكبار أنفسهم.

الشؤون الدولية اليوم محكومة بالصراع بين القوى الغربية والقوى الشيوعية وبشكل أخص التنافس ما بين الولايات المتحدة الامريكية وبين الاتحاد السوفييتي. ومع ذلك، رغم الاختلافات المعلنة فهناك تشابه عجيب بين هاتين القوتين العظميين. لقد بلغت كلتاهما درجة عالية من الحضارة الصناعية والآلية، والإيمان بالقوة المتعاظمة للآلة وقدرتها على حل المشاكل الانسانية. وشعبنا كل من القوتين يبديان الصداقة ومتعلقان بالسلام. الخلاف الحقيقي اليوم بين الدول المتقدمة والدول النامية، ولهذه الأخيرة جاء الادراك بأنه فقط عن طريق العلم والنماء الصناعي يمكن أن تحقق أي نوع من أنواع التقدم أو أن تتخلص من المصاعب المادية الهائلة التي ترزح تحتها. من أجل هذه الغاية تناضل هذه الدول بنجاح كبير أو قليل لأن المهمة صعبة. في أوروبا سبقت الثورة الاقتصادية الثورة السياسية وحين حلت الثورة السياسية كانت هناك موارد معينة أقامتها التغيرات الاقتصادية. أما في آسيا فالثورة السياسية سبقت وتلتها مباشرة مطالب تحسين الأوضاع الاجتماعية التي لايمكن أن تتحقق بسهولة بسبب التخلف الاقتصادي ونقص الموارد. مشاكل الدول النامية كانت مختلفة عن تلك التي سبق وأصبحت صناعية وبنت جهازاً للانتاج الضخم. ومن الواضح أن الدول النامية لا تستطيع أن تقوم بهذه العمليات الطويلة التي قامت بها أوروبا وأمريكا المصنعتين. هناك دائماً الضغط الاجتماعي المستمر الذي يمكن أن يقلق كل القلق البنية السياسية مالم يعط الشعب بعض ما يرضي طموحاته. ثم هناك ضغط التزايد السكاني السريع الذي يستهلك كل انتاج كبير يتحقق، مبقياً القليل جداً للإدخار أو الاستثمار من أجل تقدم أحسن. المشكلة الأساسية هكذا أصبحت واحدة وهي كيف يمكن، في البلدان النامية والفقيرة، أن تخلق الفوائض من أجل الاستثمار والانتاج الأكبر؟ كل محاولة من هذه تعني عبئاً أكبر على الجماهير. ومع ذلك، هذه الجماهير تطالب بالخلاص من أعبائها الحاضرة.

يمكن تطبيق المناهج القسرية. لكن في التحليل الأخير حتى القسر لا يستطيع أن يجدي طويلاً مع الجماهير الشعبية مالم يتلازم مع الأمل بالمستقبل.

هكـذا، الحـوافـز الأسـاسية لجهود أكبر يجب أن توجد، وبعض الأهداف المفهومة يجب أن توضع أمام الشعب. والتي تعطيه هذا الأمل في المستقبل. هذا المستقبل لا يمكن أن يكون بعيداً. في المجتمع الديموقراطي كل شيء يعتمد على قدرته على تحريض الشعب على انتـاج أكـبر بتقـديم ذلـك الأمل وتلك الحوافز، والى جانبها التحسين المستمر لنصيبها.

بين البلدان النامية، ربما تكون الهند أكثر تقدماً من أكثرها. خلال السنوات الأخـيرة القليلة حدث تقدم أكيد في بناء أساس متقدم للتصنيع وفي تحسين الزراعة وتقـدم في الـتر بية والصحة. لكن فوق كل ذلك، لديها ميزة المثل العليا والأهداف والنظم التي بنتها الحركة القومية التي جلبت الاستقلال.

لا تزال القومية أكبر قوة في آسيا، إن نماء هذه القومية في آسيا واضح. لكن حتى في أوروبـا تبـدو القـوميـة جليـة أكثر فأكثر. كان هناك القومية الرهيبة المرتبطة بالفـاشيـة والنـازيـة. وفي حين أزيل خطرها فإن قومية عدوانية، رغم أنها من نمط أنعم، لا تزال تؤ ثـر في سيـاسـات كثـير من البلدان. الأوروبية بشكل قل أو كثر، وإلى جانب ذلك هناك نزعة مناقضة تلك النزعة هي التعايش المشترك باتجاه وحدة أوروبية تتخطى الحدود كما تبدو وبمحاولات لاقامة سوق مشتركة ومؤ سسات عامة كثيرة مشتركة.

حتى في البلدان الشيـوعيـة، القـومية حقيقة واقعة، الاتحاد السوفييتي المتأثر كل التأثـر بالأفكـار المـاركسية وتنويعاتها اللاحقة فيه عنصر قومي قوي. في البلدان الأخـرى من أوروبـا الشـرقيـة، قوة القـوميـة واضحـة. حتى في الصين. تؤ سس الشيوعية نفسها على القومية، ويمكن القول إن قوة الشيوعية أينما مورست انما هي بفضل ارتباطها بالروح القومية. حين يفصل ما بين القومية والشيوعية فإن الشيوعية تضعف نسبياً، إلا أنها على كل حال تجسد السخط القائم في البلدان النامية والفقيرة.

الواقع القومي في البلدان التي لا تزال تحت السيطرة الأجنبية يأخذ بالضرورة شكـل النضـال من أجـل الاستقلال. في البلدان القوية المستقلة يميل هذا الواقع نحو التوسعية، رغم أنه يكبح بميول ونزعات أخرى.

هكذا نرى اليوم صراعاً ما بين الدوافع نحو اندماج أكبر، كالذي في اوروبا وغيرها، وبين القوى النافرة من المركز متمثلة بالقومية التقليدية. إن التطور الكبير

للعلم والتكنـولـوجيـا وبخاصة، الاتصالات تضغط من أجل مزيد من الاندماج. ويـمـكـن أن يفـترض أنــه في هذا المجــال كما في أمــور أخــرى العلم الــذي يمثل الحقائق الأساسية للحياة المعاصرة سينتصر في النهاية. الخطر الحقيقي يكمن في الصراعات القومية التي قد تقود للحرب.

احتمال مثل هذا الصراع يتزايد بالحرب الباردة بين الايديولوجيتين الكبريين في عالم اليـوم. ومـع ذلـك خلف ما يفـترض أنـه صراع ايديولوجيات مثل التنافس السيـاسي بين الأمم الكـبرى، التي تخشى كل منهـا الأخـرى. هنـاك اختـلافات السيـاسية في النظـرة والنظام الاقتصادي تماماً كما هي موجودة في مسألة الحرية والدولة بين الـدول الشيـوعيـة والـدول غير الشيـوعيـة. هذه الاختلافات أخذت تتضاءل بشكل ما ولعلها ستستمر في التضاؤل. والفجوة ما بينهما، على الرغم من أنها تبدو عريضـة وعميقـة، ستـزول، ليست الايـديـولـوجيـا وحـدهـا هي التي تغير الحياة الانسـانيـة، لكن نمـو العلم والتكنـولـوجيـا يقـولب باستمـرار البنيان الاقتصادي والاجتـماعي أيضـاً. الـوظيفـة تؤثر على الشكل. هذه قاعدة معمارية. يوازيها الى أقصى حد البنيان الاجتماعي، شكل ذلك البنيان يتبع وظيفته. العلم والتكنولوجيا يغـيران باستمـرار الـوظـائف، وهكـذا فعلى البناء الاجتماعي أن يكيف شكله مع الوظائف الجديدة.

هكذا فإن العامل الأساسي الأكثر ثورية في الحياة المعاصرة ليس ايديولوجية خاصـة بل التقـدم التكنـولـوجي. حيث يكـون التغيـير التكنـولوجي بطيئاً تستمر الأشكـال القـديمـة، المجتمـع النـامي المتخلف يكـون ذا بنـاء وشكـل اجتماعيين متخلفين لا يسمحان له بالتوافق مع العصر الحديث للعلم. لكن حقائق الحياة لا يمكن أن تنكر، تغيير يجب أن يأتي حاملاً معه نتائجه في قطاره. يمكن أن يكون ذاك التغيير مفاجئة ومغلقاً وحتى مع ذلك تأتي التغييرات، ولو أكثر بطأ.

في مجتمـع ديمـوقـراطي، أي، حيث يكـون انتخـاب وشكـل ما من الحكم النيابي، فإن وسائل تغيير الوظيفة وحتى الشكل متاحة إلى حد ما. لكن الأشكال المؤسسة قديماً والمصالح الموروثة تقاوم التغيير الى أن تفرضه الظروف عليها فرضاً. الـ«مؤسسة» مقاومة دائماً لأي تغيير سواء كان دينياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً.

الحيــاة تأقلم دائم مع شروط متغــيرة. كل شكــل سيـاسي أو اقتصــادي

واجتماعي له نظام معين. هناك نظام الدين ونظام الأعراف الاجتماعية وهذه تتضمن نظاماً خلقياً أو روحياً معيناً. حين تتغير الوظائف والأشكال فإن النظم القديمة تضعف ويحل محلها بالتدريج نظم جديدة. وتسارع التغيير التكنولوجي في الخمسين سنة الأخيرة يجعل ضرورة التغييرات الاجتماعية أعظم من أي وقت، ويستمر سوء التأقلم. في الأيام السالفة كانت الحياة أبسط وأكثر اتصالاً بالطبيعة وكان هناك وقت للتأمل والتفكير. الآن تصبح الحياة معقدة أكثر فأكثر، وهناك القليل القليل من التفكير الهادىء. حتى أوقات الفراغ لا يعرف المرء ماذا يعمل بها.

مشكلة الاستفادة من أوقات الفراغ آخذة في أن تصبح مشكلة كبيرة في البلدان المتقدمة مع أنها لا تؤثر بالهند في الوقت الحاضر ولن تؤثر في المستقبل المنظور. إن حياة منفصلة عن الطبيعة وتعتمد أكثر فأكثر على الأجهزة الآلية تبدأ بفقدان نكهتها حتى إن حس الوظيفة يفارقها. النظم الأخلاقية والروحية تتهدم ويتبعها نوع ما من الافلات مع شعور بأن شيئاً ما خطأ في حضارتنا. بعض الناس يتحدثون عن العودة الى الطبيعة والحياة الأبسط للأيام القديمة. لكن مهما كان في هذا الأمر من خير فمن المؤكد أنه لن يكون هناك عودة، لأن العالم قد تغير. يمكن لفرد أن يأخذ الـ«سانيازا» مع مافيها من زهد العيش، لكن المجتمع ككل لا يمكن أن يفعل ذلك. إن عليه أن يوطد نفسه على قبول العيش مع كل مشاكله ومصاعبه ويحاول معالجة معظمها. وإن لم يفعل ذلك ربما يطاله الفناء.

تقدم العلم والتكنولوجيا جعل مؤكداً امكانية حل معظم المشاكل الاقتصادية في العالم، وخاصة تأمين الحاجات الأولية للحياة لكل شخص في جميع أنحاء العالم. ويحمل وعداً بمستويات أعلى وسبلاً عريضة للتطور الثقافي أخذت تتفتح. اليوم دولة الرفاه الاجتماعي وحتى المجتمع بلا طبقات ليسا مثل الاشتراكية فقط بل هما مقبولتان لدى البلدان الرأسمالية أيضاً. مع أن سبل الطرق اليها مختلفة هكذا فالمثل الاساسية تتقارب من بعضها وهناك امكانية بلوغ تلك الأهداف بالرغم من أن الأساليب يمكن أن تكون مختلفة، لن تقوم هذه الأساليب على بعض النظريات المنطقية. بل ستساعد على الاعتماد على الخلفيات والتطور الثقافي لبلد أو مجتمع ـ تاريخياً وجغرافياً ودينياً واقتصادياً واجتماعياً. أي تغيير حقيقي

لا يمكن أن يفرض بسهولة . عليه أن ينمو. إن بلداً ، خصوصاً إذا كان ذا حضارة عريقة له جذور عميقة في الماضي لا يمكن اقتلاعها بدون ألم شديد بالرغم من ذلك فإن كثيراً من الأعشاب التي تأخذ شكل العادات المؤذية والعتيقة والمؤسسات يمكن بل يجب أن تقتلع منه . ما أن الطبيعة تنشيء نوعاً ما من التوازن الذي لا يمكن أن يشوش فجأة دون أن تظهر نتائج مزعجة ، كذلك الأمر في المجتمع أو البلد ، ليس من السهل أو المرغوب به أن تقلب أساليب الحياة فجأة أيضاً . محاولة حل مشكلة بهذه الطريقة يمكن أن تؤدي الى مشاكل أكثر حدة وأكثر صعوبة .

ذاك ينطبق على العالم الخارجي الذي نعيش فيه وينطبق أكثر على الحياة الداخلية للبشر . في التعامل مع المجتمعات القبلية والبدائية بشكل ما ، معروف جيداً أن المحاولة المتسرعة للتغيير تقود الى نتائج مدمرة . المجتمعات الأكثر تقدماً يمكن ألا تتأثر كثيراً من التغير السريع . لكن في عصر النفاثة وعصر السفر الى الفضاء القادم لا أحد يعرف أية تغيرات حيوية وغيرها يمكن أن تحدث .

اذا كان ذلك في الأمور الخارجية ، فلا بد إذن من تغيرات أكبر يمكن أن تحدث في عقل الانسان وعواطفه وروحه . الانسان اليوم كما لم يكن من قبل في التاريخ الانساني ، عليه أن يعيش مع التغيير كشريك دائم في فعالياته وفي مؤسساته . حقاً إنه لايستطيع أن يجاري ذلك التغيير ورغم أنه يستخدم منتجات العلم والتكنولوجيافإنه نادراً ما يفهمها . يفترض بالتربية أن تنشيء انساناً اندماجياً وتؤهل الشباب كي يقدموا اعمالاً مفيدة للمجتمع وأن يأخذوا دورهم في الحياة الجماعية . لكن حين يكون المجتمع متغيراً من يوم لآخر فإنه من الصعب معرفة كيف يكون التأهيل وأي شيء يستهدف . هناك نقص في الانسجام بين الحضارة المتقدمة تقنياً والأشكال القديمة للحياة الاجتماعية والفلسفة التي يتضمنانها . العلاقة مع الطبيعة تتغير ، وحتى العلاقة مع شخصية المرء الخاصة تقاسي التغيير . قيم الشخصية الانسانية يحط منها في المجتمع الآلي . الفرد يفقد نفسه في الكتلة البشرية ويميل الى أن يصبح مجرد آلة بجهاز معقد يهدف باستمرار الى تحسينات اقتصادية واجتماعية للجماعة ككل .

يعلق الكثير منا كبير أهمية على التطور وعلى حرية الفرد . إن الخلفية الايديولوجية تساعد أو تعوق هذه العملية ، لكن لعل أكبر عامل كامن على محو قيمة الفرد هي استخدام الآلة واستخدام الآلية لادارة الآلة .

نرى آثار التغيرات التكنولوجية السريعة هذه أكثر ما تكون لدى الشبان والشابات اليوم. الآباء والمربون والمشرفون الاجتماعيون قلقون بسبب الهوة ما بين الشباب والراشدين. لم تعد نماذج السلوك التي يمارسها الكبار مقبولة لدى الشباب، وهناك رفض للمعايير الاخلاقية القديمة. في حالات متطرفة، هناك جنوح نحو الجريمة، وادمان الخمر، التخريب والاباحية بالاضافة الى الموقف السلبي من الحياة والمحتقر للعمل. في عالم مستمر التغير وبدون أي تأكد على اليقين تطغى مبادىء مثل السعادة هي كل شيء في الحياة. استمرارية الثقافة القومية تهدد ويصبح الميل الى التفتت حقيقة واقعة.

قد تكون هذه نظرة متطرفة لا تقدر ما يجري اليوم بشكل عادل. لكن مالاشك فيه أن هذه الميول قائمة، وبشكل واضح في المجتمعات الأكثر تقدماً وتطوراً أكثر مما في الهند أو البلدان النامية الأخرى. لكن من المهم أن نلاحظها لأن قوى مشابهة تقارب أن تؤثر على حياتنا أيضاً. لعل كل ذلك نتيجة ضمنية لهذا العصر الانتقالي السريع. وإن قاعدة جديدة للحضارة، تتلاءم مع التكنولوجيا ستخلق بالتدريج وستتطور بها ايديولوجيا جديدة وأشكال جديدة للحياة الجماعية وفلسفة حياة أكثر اتساعاً بالطبع.

لا أدري إن كانت هذه تعد نظرة كثيرة التشاؤم حول ما يجري. إن رد فعلي على الأحداث التي تجري في الهند والعالم ليس متشائماً ولدي بعض الايمان، الذي أعجز عن تحليله أو شرحه، يملأني بالأمل في المستقبل. لعل ذلك بفضل ما حبيت به من طبع، وأعظم ما نلته من حظ هو محبة الشعب الهندي. لكن حتى في سفراتي في الخارج، تلقيت ترحاباً وصداقة من كثير من الناس في كل مكان. وهكذا تولدت لدي محبة شديدة وإيمان بشعبنا هنا في الهند واحترام ومحبة لشعوب البلدان الأخرى. تبين لي أن مايمنحه الانسان يأخذه. فإذا منح المرء المحبة ردت اليه بأعظم منها. وإذا ماأظهر الكراهية ارتد عليه مثلها. لقد رأيت وشعرت أن الناس في كل مكان يتوقون للسلام والارادة الطيبة والتعاون. إن كان ذلك كذلك، كما أعتقد أنه كذلك. اذن لابد أن يكون ممكناً تحول مجرى الأحداث من الصراع الى التعاون من أفكار الحرب الى أعمال السلم.

أظن أن الخـوف قد يكـون أعظم الشـرور لأنه بسبب الخوف يتولد الضعف والصـراع . العنف هورد فعـل على الخـوف وكذلك الكذب . في المأثور من كتاباتنا جاء : إن أعظم هبة يتلقاها المرء في اللاخوف (ابهايادان) .

إن المرء المتحرر من الخوف قادر على رؤ ية الأشياء بشكلها الصحيح ويتمتع بنزاهة العقل والفعل .

نحن نرى الخوف اليوم يغلف العالم وحتى أقوى الأمم وأكثرها يستولي عليها الخـوف . والثـروة والقوة بدل أن تخففا من الخوف فانهما تزيدانه . لاأحد منا ، ماعدا القديسين ومن فوق البشر، يمكن ألا يخالجه الشعور بالخوف أبداً . لكن يمكن أن نضـع هذا الأمـر نصب أعيننا ونحاول الوصول اليه . ومن أعظم اسهامات غاندي للهند هو أن عمل على تقليل الشعور بالخوف لدى الناس .

عدم الخوف يقود الى التعاطف والتسامح ، حين نفكر ببوذا فإن حنوه يغمرنا وحين نفكر بأشوكا فإن تسامحه العجيب يشدنا خارج معتقداتنا الضيقة .

العـالم يمتـلىء بالصـراعـات ـ القـوميـة والعـالميـة والعرقية والدينية والمذهبية والطبقية . ومن العبث أن نتجاهل أو ننكر هذه الصراعات . لكن يمكن أن نتناولها لابأسلوب الصراع بل بالاسلوب السلمي ومن ثم نسعى لحلها .

عالمياً . المسألة الكبرى اليوم هي السلام العالمي . وذلك يتطلب محاولة حل المشـاكـل الكبرى والصراعات التي تقلقنا . كيف يكون الحل؟ ليس بإمكاني القول لكن يجب أن يكون واضحاً بذهننا وبالوسائل التي نتبناها واسلوب المعالجة للبحث عن حل . غالباً ماكان يقال : إن الخيار اليوم مابين الحرب ، المتضمنة الدمار الشامل تقريباً ، وبين حل سلمي ما لهذه المشاكل . اذا كانت هذه هي البدائل إذن فالخيار واضـح وبعـد أن نقـر هذا الخيـار فإن من الواجب أن يتبعه أن علينا أن نتجنب كل مايزيد التوتر . يجب أن نصل الى نتيجة حازمة هي أن الحرب مسألة لاغية تماماً لأنها لاتعد حتى بالنصر ولابثمار النصر . الحياة على حافة الحرب والمغامرة بأنها لن تحدث أمر ينم عن غياب الحكمة . بالرغم من أننا يمكن أن نختلف عن بعضنا . يجب أن نمتنـع عن النقـد الغاضب والادانة : يجب أن ندرك أنه من العبث أن تعتبر فئة نصف العـالم شريـراً أو محكـوماً بالشر . سهل أن تنتقد العالم الرأسمالي أو العالم الشيوعي . إلا أنهـما كليهـما لهما حسنـات كبـيرة وإن كان لهما سقطات كثيرة ، وكلاهما يجنحان الى الاتجـاه ذاتـه بالـرغم من صراعـاتهـما الـداخلية وكـلاهما محكـومـان بتقـدم العلم

والتكنـولـوجيا. السبيل المفتوح أمامنا هو أن نقبل العالم على ماهو عليه ونسعى لأن يسـود التسـامـح بيننا. الصراعات القديمة بين الديانات المتباعدة انتهت بالتدريج بعـد حروب دمـوية ومن ثم نشأ التسامح. ليس من سبب يمنع أن يحل التسامح ايضاً بين النظريات الاقتصادية والاجتماعية المتنافسة. وفي نهاية المطاف حقائق الحياة هي التي ستقـرر وتؤ ثـر عليهـما كليهـما. يجب أن يكـون متـاحاً لكل بلد أن يطور نفسه بطريقته الخاصة، يتعلم من الآخرين، ولايكون مفروضاً عليه منهم، بهذه الطريقة كل ايديولوجية ستؤ ثر في الأخرى وتتأثر بها.

القـوميـة حالـة صحيـة للشعب ومطلوبة؛ حين تقمع يكون رد فعلها قوياً، لكن حين تقترن بقوة كبيرة فإنها قد تنزع الى العدوان والشوفينية. القومية المعاصرة هي رد فعل ضد الامبر يالية الأجنبية وضد العرقية.

لاتزال العرقية قائمة بدرجات متفاوتة في كثير من البلدان ولكنها مدانة على وجه الاجمال. وهي مقبولة فقط في اتحاد جنوب افريقيا كفلسفة للدولة. من الواضح أن ذلـك مصـدر رهيب للصـراع وطـالما أنه مقرون بالهيمنة في أسوأ أشكالها فسيولد المرارة وردود الفعل الشديدة. أن يترك هذا الصراع يتقرر بوسائل العنف لهو مشورة اليأس، وبغض النظـر عن النتـائـج الكارثية التي يمكن أن يجلبها في ذيوله. إنه من الممكن للرأي العالمي أن يصبح قوياً بحيث لايستطيع أي بلد أو جماعة أن يدافعوا عن العنصرية أو يمارسوها.

الامـبر يـاليـة أو الاستعـمار، أي شكـل اتخـذ لم يعد مقبولاً نهائياً وهو مصدر صراع. فهـو لا يزال موجـوداً في أمكنـة متعددة وفلسفاته تؤ ثر في كثير من العقول. غير أنه يفقد رصيده وهو في حالة الدفاع في كل مكان. لذلك يجب للسياسة العالمية أن تضع حداً للامبر يالية وللعنصرية وتترك البلدان تقرر مصائرها بنفسها. قد يقود ذلك الى الاضطرابات والفوضى في بعض البلدان، لكن ذلك سيظل محدوداً ولن يؤ ثـر بمسـاحـات أكـبر وربما استطاع تصحيح نفسه بعد حين. إن ما هو خطأ ويجر عواقب وخيمة اليوم هو محاولة أي بلد بسط ارادته على بلد آخر.

الأحـلاف العسكـريـة والحـرب الباردة مهما كانت مسوغاتها في الماضي تقود اليـوم الى عدم الأمن والى خوف الحـرب. إنها تمنع التطور العادي للبلدان وتفسد جو العـالم. ومـادامت الحرب الباردة قائمة فلن يكون هناك تسامح. وبدل أن تقدم المسـاعـدة للبلدان النـاميـة لرفع مستواها تأتي الاعتبارات العسكرية لتأخذ دورها

وغـالبـاً ما تدعم الأنظمة السياسية الرجعية والمكروهة من الشعب، وهكذا يضاف مزيد من عدم الأمن.

من غير الـواقعي القـول إن القـلاقل والصراعات وعواطف العالم يمكن أن تزال بعصا سحرية أو بعبارات ورعة. لكنه من الواقعي جداً أن ننصح بسبيل فعل يميـل الى تقليـل التـوتـر ويطـرح جانبـاً امكـانيـة الصـراع. جوهرياً سبيل الفعل هذا هو مقـاربـة عقليـة جديدة في التفكير يتبعها اجراءات اقتصادية وسياسية على الخط معها. الباتشيل أو المبادىء الخمسة التي قيل عنها الكثير تقدم هذه المقاربة، لكن هذه المقاربة يمكن أن تصبح حقيقة اذا ما رافقها تغير في العقل والروح لا بجرد كلمات في الهـواء فقـدت معنـاهـا، السـلام ليس امتناعاً مادياً عن الحرب بل محاولة خلق مناخ سلام في كل أنحاء العالم.

حاولنـا في الهنـد اتبـاع هذه السياسة في الشؤون العالمية رغم أني لا أستطيع القـول إننـا حققنا نجاحاً دائماً في عملنا. السياسات الخارجية تعتمد بصورة مطلقة على الظروف العالمية والتطورات العالمية. لذلك فالتقدم الداخلي بالنسبة لنا يصبح أمـراً رئيسيـاً اذا كنـا نريد لعب دور مؤثر في القضايا العالمية. وهو أكثر أهمية أيضا، بالطبع، لوجودنا.

بعـد الخطـة الخمسيـة الأولى وسنتين من الخطة الثانية حققنا تقدماً أكيداً في كثير من الاتجـاهات بعضها واضح وآخر ليس شديد الوضوح. سير التقدم لم يكن سريعاً في بعض الجهات السرعة التي أحببنا أن تكون، لكن علينا أن نتذكر أنه كان تقـدمـاً صلبـاً وملمـوسـاً، زراعياً وصناعياً معاً هذا التقدم حقيقة واقعة وعليه كلية يتوقف مستقبلنا.

الـتر بيـة هي أسـاس هذا التقـدم وقـد أوليت عنـايـة كافيـة لانتشار التر بية الأسـاسيـة والـتر بيـة الفنيـة ملايـين الأولاد والبنـات يذهبـون الى المـدارس والكليـات ومئـات الآلاف يتلقـون التـدريب في الجـامعـات والمعاهد الفنية. هذه الأرقـام تمثـل جزءاً من التعـداد السكـاني في الهنـد ولا يزال أمـامنا الكثير نقوم به. فالأعـداد كبيرة وهـذه عنـد تخرجهم من المـدارس والكليـات يجلبون نظرة جديدة للعمـل في حيـاتهم. هكذا، ببطء ولكن بتصميم تتغير نماذجنا. أعظم تغيير وربما أكثـرهـا ثوريـة هو في التـوسـع في تعليم المرأة. هؤلاء البنات والفتيات هن اللواتي يؤثرن ويغيرن الى الأمام مجمل حياة الشعب الهندي. هذه التغيرات تأخذ سبيلها

في الـوقت الحـاضـر في المـدن والبلدان أكثر منها في المناطق الريفية، لكن حتى قرانا قد تأثـرت بها وعلى مدى بضـع سنـين سيشمـل التعليم الأساسي جميع من هم في سن التعليم.

قيل الكثير من النقد للتربية في وقتنا الراهن وقد شاركنا تقريباً في نقد بعض مظاهرها ومع ذلك تظل الحقيقة أن التعليم ينتشر بسرعة ويغير في نسيج حياتنا.

هناك المشكلة السكانية. لقد حدثت زيادة عجيبة في السكان في جميع أنحاء العالم، وبسرعة الزيادة هذه من المتوقع أن يصبح عدد سكان العالم ما بين ٣,٥٠٠ الى ٥٠٠٠ مليـون مع نهايـةهذا القرن. تختلف الـزيادة المتوقعة في الهند بين ٦٠٠ مليـون و٦٨٠ مليـون في عام ٢٠٠٠ إن الـرقم ٦٠٠ مليـون هو أقـل ما يمكن أن نتوقع، شريطة أن نستطيع كبح سرعة النمو الى حد ما.

هناك مظهران لهذا النمو السكاني، الأول الذي نعيره اهتمامنا الكبير هو أنه يقف في طريق تقدمنا الاقتصادي ويبقى المستويات متدنية حتى لو كنا نحقق تقدماً في اتجاهات اخرى. المظهر الثاني هو ان التزايد السكاني الهائل في العالم يلتهم موارد العالم والمواد الصناعية بسرعة مذهلة. إذا فعل العالم جميعه ماتفعله الولايات المتحدة الامريكية بهذا الشأن اليوم فمن المحتمل اذن في نهاية هذا القرن أن تستهلك جميع المـواد الأسـاسيـة في العـالم المتـاحة اليوم. هذا بالطبع بعيد الاحتمال لكن لو كانت درجة الاستهلاك أقل في البلدان الأخرى فإن المواد المتاحة لا تستطيع البقاء أكثر من بضع مئات من السنين.

هكذا، تظهر لنا نتيجتان الأولى أن علينا أن نكبح الزيادة السكانية والأخرى أن علينا أن نجد مصادر جديدة للطاقة وللمواد. ولعل تطور الطاقة النووية سيؤمن لنـا مصـادر أخـرى للقـدرة. إننـا في الهنـد معنيـون جداً بكبـح الـزيـادة السكانية وهذه أصبحت مسألة ذات أهمية بل مسألة ملحة.

هنـاك حقيقتـان أسـاسيتـان علينـا أن نبقيهـما في الذهن، الأولى نمو القدرة الانتاجية الهائل لدى بعض الدول والذي يستتبع نمو الثروة والقوة كنتيجة للنمو في العلم والتكنـولـوجيـا. والثـانيـة هي التفاوت الكبير بين الدول الغنية والقوية وبين الدول النامية. هذا التفاوت يجنح نحو الزيادة، وفي الواقع ازداد بصورة واضحة في السنـين الأخـيرة بالـرغم من الجهود المبذولة لرفع مستوى الدول النامية. إذا سمح للقـوى الاقتصـاديـة وغـيرهـا أن تقوم بدورها كاملاً، فستجعل الأمم الغنية أغنى

واقوى في حين يكون على الآخرين أن يكافحوا لتأمين احتياجاتهم الأساسية . وسيعطى الذين يملكون المزيد، في حين أنه في البلد الواحد المناطق الأكثر تطوراً تميل نحو التقدم أكثر من المناطق الأخرى.

وكنتيجة لذلك فالصراعات وأخطار الحرب بين الأمم تقوم والقلق الاجتماعي يتزايد في البلدان النامية فمن جانب القوة والثروة هما مصدرا التنافس والصراع، ومن جانب آخر الفقر والبؤس يقودان أيضاً الى الاضطرابات والصراع . وكلاهما يولدان الخوف وعدم الأمن. الكثير من التركيز على الثروة والقوة لا يجلب الأمن ويمنع التفاهم المطلوب بين القوى الفاعلة في العالم. هذه التفاوتات سواء كانت بين الأمم أو في داخل الدولة الواحدة يجب أن تقلل .

ليس من الممكن أن تحل مشاكل العصر النووي بأساليب الأمس التقليدية . لا في السياسة ولا في الاقتصاد تستطيع هذه الأفكار التقليدية أن تقدم نتائج مرضية . في الشؤون العالمية نرى نقص في الحكمة في مواصلة حرب باردة مع كل ما يرافقها من خوف وحقد، حين يكون حقيقة واقعة أن ذلك يزيد المخاطر على الانسانية وربما لا يقود الى حل. التجارب النووية تتواصل أيضاً رغم أن العلماء البارزين يقولون لنا إن لكل من هذه التجارب نتائج مؤذية جداً في الحاضر وللأجيال القادمة . لماذا إذن تمارس هذه السياسات البالية والتي لا تستند الى منطق أو عقل وبعيدة عن أي مبدأ أخلاقي؟ يمكن للمرء أن يتوقع قراراً فورياً بالاجماع لوقف جميع التجارب والسير في تخفيض متوالٍ للتسلح. سيمنع الخوف أية خطوة افرادية لكن العقل يمكن أن يضع ترتيبات هي من مصلحة كل بلد .

تنطبق المناقشة ذاتها على النظريات والاجراءات الاقتصادية وهناك قلة فهم للاخطار الموروثة في عالم يتألف من فقر جماعي مع بلدان غنية قليلة نسبياً تحصل على كل الخطوة . اذا كان ضرورة ملحة للبلدان النامية أن ترفع مستوياتها فإنه ضروري ايضا للبلدان الغنية أن تسرع هذه العملية . هذه المشاكل الحالية تنتمي إلى العالم الجديد ولا يمكن أن تحل بوسائل من العالم القديم .

إنها المأساة أن أموالاً طائلة تنفق على التسلح الى درجة مؤذية للتقدم الاجتماعي في العالم.وإنها المأساة أكبر أن مناخ الخوف وعدم التعقل يستمران في حين أن سبل التفاهم مفتوحة . التفاهم لا يحصل بالوسائل العسكرية التي تقود فقط الى

مزيـد من الخـوف والتـوتـر. إنني لا أصب اللوم على بلد محدد لأن كل البلدان، بمقـاديـر مختلفة، واقعة في قبضة هذا المناخ من الخوف ولا تستطيع أن تخلص نفسها منه. كل ما نستطيع فعله أن نحاول جهدنا أن نغير هذا المناخ بعلاقاتنا مع البلدان الأخرى.

في أيام الرأسمالية المبكرة وحتى أيامنا هذه الى حد كبير كان الاهتمام الأكبر معقـوداً على الانتـاج. كان ذلـك ضروريـاً آنذاك. لكن أصبح مؤكداً أن الانتاج ذاتـه لا يحل مشـاكلنـا أو يحقق السعـادة والـرضـا. ان الشفق بالثـروة والتملك والمـزيـد من الثـروة يصبـح أمـراً مفسـداً ويخلق المنـافسـات النـابعـة عن الجشـع والـصـراعـات. اذا كان الهـدف هو الـتـوازن الاجتـماعي في بلد أو في العـالم أجمـع فالانتـاج لوحـده لا يحقق ذلـك. إنه يميل الى خلق مزيد من عدم التوازن. وهكـذا فمسألـة التوزيع العادل والاستخدام الصحيح لما ينتج يصبحان هامين. في التحليـل النهـائي ما هو مطلوب هو الحكمة. كيف نعيش وكيف نحقق حياة مقبولة للفـرد والمجتمـع. السيـاسـة الاقتصـاديـة لا يمكن أن تعتبر ترجمة لقوانين الطبيعة بعيداً عن الاعتبارات الانسانية والعناصر الاخلاقية.

اشرت الى هذه العناصر الكبرى أكثر من مرة لاننا لا نستطيع أن تتجاوزها ولأنهـا تؤثـر حتى في حيـاتنـا المنزلية. إننا مشدودون جداً الى الافكار الموروثة ومن الصعب أن نتـدارس مشـاكلنـا في سيـاقهـا اليـومي الـراهن. الفقـر اهـانـة ورد الفعـل الطبيعي هو أن نتخلص منـه. والحـديث عن الحـرية في الفقر كلام يناقض نفسـه. وأسـوأ ما في الأمـر أن الفقر يكاد يصبح دائماً. لكن المزيد من الثروة والغنى سواء لدى الفرد أو المجتمع لهما شرورهما المصاحبة والتي أصبحت حقيقة واقعة هذه الأيام. إن تكديس الثروات المادية يؤدي الى الخواء في حياة الانسان الداخلية.

إن الطـريق الاشـتراكي يعنى بالاقتصـاد ولا شك، ولكنـه يحاول أن يأخـذ بعين الاعتبار هذه العوامل الأخرى أيضاً، هناك خطر أن الاشتراكية، وهي تؤدي الى الـوفـرة وحتى الى توزيـع عادل يمكن أن تظـل غافلة عن ملامـح ذات أهمية في الحياة. ولهذا السبب أكثر من غيره يصبح التأكيد على الفرد ضرورياً.

مشـاكلنـا اليـوم في الهنـد بشكـل رئيسي حول التطـور الاقتصـادي ورفـع مستويات المعيشة. لقد وضعنا قاصدين كهدف نموذج المجتمع الاشتراكي، رغم أننـا لم نعـرفـه بدقـة. وأعتقـد أنه يفضل أن نتجنب التعريفات الدقيقة لأنها تصبح

تعـاليم أو شعـارات، تصبح عوائق في طريق التفكير الواضح في عالم سريع التغير. لكن الاغراق في الغموض أيضا يصبح عائقا في طريق الفعل المؤثر. لذلك يجب أن يكون لدينا أهداف معرفة محددة وبعض الأفكار الواضحة حول كيف نحققها.

قلت سابقـاً أن على كل بلد أن يتطـور بدون أن يفرض عليه ذلك من الخارج. وفي حين يُرحب بالمسـاعـدة والمشورة، فإن الاملاء يمنع النماء الصحي ويثير الصراع. لذلـك يجب أن يتـاح لكـل بلد أن يرسم سياسته الخاصة شريطة ألا تؤذي البلدان الاخرى الى أبعد الحدود الممكنة. يجب أن نقر أن لا أحد منا يحتكر الحقيقة وأيضاً أن ما يلائمنا قد لا يلائم آخرين يعيشون في ظروف مختلفة. يجب أيضاً أن نقبل أن علينا أن نعيش في هذا العالم مع كثير مما نكره، والتأثير الوحيد الذي يجب أن نمارسه هو في سلوكنـا الخـاص وسياستنا الخاصة والتعاون الطيب مع الآخرين على الرغم من الاختلافات الكبرى بين الايديولوجيتين المتصارعتين اليوم إني أؤمن بأن نقاط التشـابـه تتكـاثـر والظـروف تقـارب ما بينهما. إن زال الخوف والتهديد ولم يستخدم الاكـراه فإن عمليـة التقـائهـما معـاً ستتسـارع هذا يعني، بوضـوح، الحـالـة الـراهنـة يجب أن تقر، سواء في المجـال السيـاسي أو الاقتصـادي، أو بين الأمم. والمشاكل التي تتطلب حلولاً يجب أن تعالج بأساليب سلمية.

هنـاك صراعـات في الأمـة الـواحـدة، هناك اختلاف، على أية حال، وكما في النظـام الـديمـوقـراطي يمكن أن تحل هذه الخـلافـات بالاقتراع وبأساليب دستورية عاديـة. اجمـالاً الصراعات الدينية لم تعد قائمة الآن. الصراعات العنصرية محدودة في بضـع منـاطق في العـالم، على الـرغم من أن الصـراعات العنصرية قائمة على الخصوصية المحلية أو اللغوية بشكل رئيسي، فإن صراع المصالح الطبقية هو الذي يطرح المشاكل اليوم، وفي مثل هذه الحالات والمصالح الثابتة ليس سهلاً تنحيتها. ومع ذلك لقد شهدنا في الهند مصالح ثابتة قوية كتلك التي للأمراء وكما للجاغيردار (كبـار المـلاك) والتـالـوكدار والزمندار وقد حلت مشاكلها بأساليب سلمية، ومع أن ذلك قد عنى تهديم نظام قائم لمصلحة قلة ذات امتياز.

ولــذلـك حين يجب أن نعـترف بوجـود الصـراع الطبقي، فليس من سبب يدعـونـا لأن لا نتعـامل معه بأساليب سلمية، وستنجح هذه الأساليب فقط إذا كنا موضوعين بالقدر الكافي، واذا ما فهمها الناس بوضوح.

شخصياً أعتقد أن مجتمع الكسب الذي هو أساس الرأسمالية، لم يعد ملائماً في العصر الحاضر، ربما كان ملائماً في فترة سابقة. وبلا شك للرأسمالية نقاط كثيرة في رصيدها لكن العالم قد كبر على هذه المرحلة. إنها كثيرة التعقيد وشديد الازدحام حتى نكاد نجلس على أعتاب بعضنا. لذلك يجب أن نستنبط نظاماً أعلى يساير الاتجاهات والظروف المعاصرة من غير أن يسوده الكثير من التنافس بل يسوده تعاون أكبر. وفي النهاية لابد أن يقود هذا الى الدولة العالمية. وهذه يمكن أن تقوم فقط في مناخ يحقق حرية كل جماعة قومية في أن تتطور حسب رغباتها دون التدخل بالآخرين.

في حين يبدو مجتمع الكسب القائم على دافع الربح أنه غير ملائم في العالم الجديد الذي ينشأ، فيجب ألا يعني هذا ألا توجد حوافز. ستظل الحوافز ضرورية رغم أنها قد لا تكون مقصورة على الفوائد المالية. يجب أن نشجع روح المغامرة والاختراع والمخاطرة من أجل أن نعطي حياتنا الاثارة والمعنى. الشركات الخاصة يمكن أن يظل لها ميدان كبير لكن حتى هذا يجب أن يزاول بطريقة مختلفة لا بطريقة الكسب المحض. لقد دخلنا في الهند، متأخرين، ميدان الثورة الصناعية. وقد فعلنا ذلك في وقت أصبح فيه أجزاء من العالم في عصر النفاثة والذرة. علينا لذلك أن نتقدم بآن واحد متأثرين بهذين المتغيرين الثوريين وهذا يستتبع عبئاً هائلاً. لقد قبلنا بالاشتراكية كهدف لنا لا لأنها تبدو لنا صحيحة فقط ومفيدة، بل لأنه ما من سبيل آخر لحل مشاكلنا الاقتصادية. لقد قيل أحياناً إن التقدم السريع لا يمكن أن يتحقق بالأساليب السلمية والديموقراطية وأنه يجب أن نتبنى أساليب سلطوية وقسرية. أنا لا أوافق على هذا الطرح. والحق أن أي تخل في الهند اليوم عن الأساليب الديموقراطية سيقود الى التمزق ويمكن أن يضع حداً لأي أمل قريب في التقدم. انني أؤمن بكرامة الفرد وبأكبر مجال من الحرية له، على الرغم من أن الحرية في مجتمع معقد يجب أن تكون محدودة وإلا أضرت بالآخرين.

إن العمل الكبير الذي وضعناه على عاتقنا يتطلب أقوى أشكال التعاون من جماهير شعبنا. والتعاون لا يمكن أن يحصل ما لم نضع سلفاً هدفاً مقبولاً من هذه الجماهير ويعدها بنتائج. التغيير الذي نسعى له يحتم أعباء على شعبنا. حتى أولئك الذين هم أقل الناس قدرة على احتمالها؛ فما لم يدركوا أنهم شركاء في بناء المجتمع الذي سيجلب لهم الفائدة، فإنهم لن يتقبلوا هذه الأعباء أو يقدموا تعاوناً كاملاً. ما

يدعى «الشركات الخاصة» لن يروق لجماهير شعبنا. سوف يقود الى استخدام مواردنا غالباً لاغراض ليست ذات أفضلية، وسيعني استغلالاً لدافع الربح الذي قد يستفيد منه الفرد لكن لا المجتمع ككل.

المطلب الملح في العالم اليوم هو العدالة الاجتماعية والمساواة. كان النظام الاقطاعي قائماً على ملكية فئة قليلة الأرض والآخرون يعيشون على حافة الوجود. لا أحد يقبل بهذا النظام اليوم. وكذلك أيضاً كثير من الأنظمة السائدة اليوم قد فقدت أهليتها ولم تعد منسجمة لا مع تفكير الشعب ولا مع التقدم العلمي.

طبيعة المهمة التي يجب أن نواجهها تتطلب عملاً مخططاً وعلمياً من أجل أن نستخدم مواردنا المتاحة بأفضل السبل وأن نوجه جهود الأمة نحو هدفنا. من العجيب في عصر العلم هذا أنه لا يزال هناك بعض الناس يؤمنون بأن أسلوب الشركات الخاصة العشوائي هو الدافع السائد للأفراد.

نحن في أواسط خطتنا الخمسية الثانية ونشارف على الثالثة. لقد وصلنا الى مرحلة يجب أن تعلن بها تلك الخطة بكل تأكيد عن الأهداف المادية المطلوب تحقيقها، واسلوب تحقيقها. في نهاية الخطة الثالثة نأمل كما أشار رئيس جمهوريتنا في خطابه في مجلس النواب أن «أساساً صلداً سيوضع للتقدم في المستقبل، فيما يتعلق بصناعتنا الأساسية وانتاجنا الزراعي والتطور الريفي. وبما يؤدي الى اقتصاد يعتمد على ذاته ويتوالد ذاتياً» لا نتوقع أن تحل مشاكلنا في نهاية الخطة الثالثة ستليها خطط خمسية أخرى كثيرة، إلا أننا نهدف الى كسر حاجز الفقر هذا بحيث لا يتمكن تخلفنا من ترسيخ نفسه، إذا نجحنا في ذلك وأنا واثق من ذلك، عندئذ سنتقدم بخطى أسرع وسنكون أقل اعتماداً على الآخرين.

سيتسبب هذا بأعباء ثقيلة، لكن لا مهرب منها إذا كنا جادين ومصممين على التقدم بسرعة نحو أهدافنا.

في الأشهر الأخيرة اتخذت بعض القرارات بشأن الأرض والتي أثارت بعض الانتقادات. نرى هنا الصراع الطبقي الذي لا يمكن تجنبه حين يحدث أي تغيير اجتماعي كبير. أنا على يقين بأننا سنحل هذا الصراع أيضاً سلمياً وتعاونياً كما حللنا سابقاً صراعات أخرى مثلها.

أنا مقتنع بأنه ليس هناك من سبيل آخر إلا سبيل التعاون من أجل سكان الريف. إن التعاونيات المتعددة الأغراض أساسية بالنسبة لهم وهذه يجب أن تقود

الى زراعة تعاونية. لا أعتقد أن مزارع الدولة الزراعة التعاونية ملائمة للهند في هذه الظروف ولا أحب لمزارعينا أن يصبحوا وحدات متماثلة في آلة. الحقيقة التي يجب أن نذكرها هي أن هناك كثيراً من الناس في هذا البلد ومساحة صغيرة نسبية من الأرض. إن حقيقة الجدل القائم حول هذه العناصر تشير الى التقدم الحاصل ونحن في سبيلنا الى الخروج من اساليب الاقتصاد التي عفى عليها الزمن.

لن نستثير حماسة جماهير حصادينا بنظرية ما، مهما كانت جيدة. العمل الرئيسي هو أن نجعلهم يفهمون ويتعاونون ويطورون اعتمادهم على الذات. من هنا أهمية تزويد قرية (البانشايات) والقرية التعاونية بالقدرات. والقول إنهم يمكن أن يسيئوا استخدام هذه القدرات فيه بعض الصحة إلا أنه غير مثبت، إذ لابد من المجازفة، لأن بذلك فقط يتعلم الناس من خلال التجربة والخطأ.

شرعت حركة التطوير الاجتماعي في عملها منذ ست سنوات ونصف وتغطي الآن أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ قرية. هذا تقدم مدهش واعتقد أنها ستحقق تقدماً، وقد حققت الى حد ما، نتائج ثورية في البلد. أعرف تماماً مواقع الخطأ فيها لكن نجاحاتها أكثر وضوحاً. النتائج المؤثرة ستعتمد على مستوى ارتباط الناس بها. الرسميون والفنيون ضروريون، لكن الجزء الأهم هوما يقوم به المزارع العادي، أعتقد أن روحاً جديدة تنتشر في ريفنا نتيجة لخطة التطوير الاجتماعي هذه.

سواء في الأرض أو في الزراعة أو في الجهاز الحكومي التغيرات المؤسسية تصبح ضرورية بين حين وآخر مع تغير الوظائف، وستحل مجموعة من القيم التي سادت مجتمع الكسب القديم القائم على دافع الربح. يجب أن يأخذ التغيير الكلي وقتاً، لأن المشكلة أمامنا في النهاية هي تغيير تفكير وفعاليات مئات الملايين من الشعب، وأن يتم ذلك بشكل ديموقراطي وبموافقتهم. لكن سرعة التغيير لا يجوز أن تتباطأ والظروف، في الحقيقة، لن تسمح بكثير من التدرج.

تقدم الهند اليوم صورة يختلط فيها الأمل بالغم كثيراً. فيها الكثير من مظاهر التقدم وفي الوقت ذاته الكثير من المراوحة في المكان، فيها روح جديدة وأيضاً يد الماضي الميتة والامتيازات، فيها مظاهر الوحدة الشاملة والميول الى التمزق. أين تذهب حيوية عقول الشعب وإرهاصاته وفعالياته. لعلنا نحن الذين في قلب مشهد التغيير المتواصل لا نستطيع ادراك الأهمية الكاملة لكل ما يجري. غالباً البعيدون يقدرون أن يقوموا هذه الحالة بشكل أفضل.

انـه من المـدهش أن بلداً وشعبـاً تجذر في المـاضي ، وكـان قد أظهـر مقـاومة شديدة للتغيير في الماضي ، تراه الآن يسير قدماً بسرعة وبخطى حثيثة . نحن نصنع التاريخ في الهند على الرغم من أننا قد لا نعي ذلك .

ما الـذيسينبثق عن جهـد الجيـل الحـالي ومعاناته؟ ما ستكون عليه الهند في الغد . لا أستطيع أن أقول ، أستطيع فقط أن أعبر عن آمالي وتمنياتي . وطبعاً أريد للهنـد أن تتقـدم في الحقل المادي لانجاز خططها الخمسية ، لرفع مستويات المعيشة بين سكانها ؛ أريد أن تتوقف الصراعات الضيقة التي تحدث باسم الدين أو بسبب النبـذ . اللغـة أو المنطقـة وأن يبنى مجتمع بلا طبقات وبلا حصون ، يكون فيه لكل فرد أن ينـال فرصتـه حسب ما يستحق وحسب قدرتـه . وعلى الأخص . آمـل أن تنتهي لعنة النبذ لأنه لا يمكن أن يكون هناك ديموقراطية ولا اشتراكية على أساس نظام النبذ .

أديـان أربعـة عظيمـة أثـرت في الهنـد ، اثنـان انبثقـا من فكـرهـا الخاص ، الهنـدوسيـة والبـوذية واثنان قدما من الخارج رسخا نفسيهما بقوة في الهند ، المسيحية والاسـلام . العلم اليـوم يتحـدى المفهـوم القـديم للدين ، فإذا ما تعامل الدين مع العلم لا على أسـاس التعـاليم والشعـائـر بل بأمور الحياة العليا ، فلن يكون هناك صراع مع العلم ولا منـازعـات بين الأديـان . وقـد يكـون للهنـد امتيـاز كبير في أن تسـاعـد على ايجـاد هذا الاتحـاد . قد يكـون هذا في تقـاليد الهند المنقوشة في كتب آشوكا . ولنستذكر رسالة آشوكا :

«زيادة القوة الروحية على أشكال كثيرة

«لكن جذورها في ابتعاد المرء عن المفاخرة بدينه الى درجة تحقير ديانة الأخرين ، أو التحدث بخفة عنها بدون مناسبة أو صلة .

«وحـين تحل منـاسبـة ملائمـة فيجب أن يوجـه الاحـترام الـلائق لذوي الـديـانـات الأخرى . وإن سلوك هذا المسلك يرفـع من شأن تدين المـرء ويعـين الأخـرين من الـديـانـات الأخـرى . والسلوك بمسلك مخالف يؤ ذي دين المـرء نفسـه ويسيء الى ديانات الأخرين .

«إن من يوقر دينه ويحط من شأن من يعتنق ديناً آخر ومن يجعل دينه فوق كل الأديان الأخرى، فإنه يؤذي دينه بكل تأكيد».

في أيام آشوكا غطى الدين كل صنوف الاعتقاد والواجب. واليوم لا نتعارك بسبب الدين كثيراً، لكن حول المسائل السياسية والاقتصادية والايديولوجية. لكن يمكن أن نقتدي بنصيحة آشوكا أثناء تعاملنا مع الناس المخالفين لنا في السياسة أو الاقتصاد. لم يكن للحرب الباردة مكان في ذهن آشوكا. ولا حاجة بنا اليها اليوم.

ستكون هند الغد ما نصنعه بها اليوم بعملنا. ليس لدي أي شك في أن الهند ستتقدم صناعياً وكذلك، ستتقدم في العلم والتكنولوجيا، وأن شعبنا سينهض وأن التربية ستنتشر والشروط الصحية ستكون أفضل وأن الفن والثقافة سيغنيان حياة الناس. لقد بدأنا حجنا بتصميم قوي وقلب طيب وسنبلغ غاية الرحلة مهما طالت.

لكن ما أعيره اهتمامي فيها ليس مجرد تقدمنا المادي بل نوعية الناس وعمقهم. أتراهم حين يجنون القوة من خلال التقدم الصناعي سيخسرون أنفسهم في طلب الثروة والعيش الرغيد؟ سيكون ذلك مأساة لأنه مناقض لما نهضت الهند من أجله في الماضي وأظن الحاضر أيضاً كما مثله غاندي، القوة ضرورية لكن الحكمة أساسية. الخير فقط في اجتماع الحكمة والقوة.

هل نستطيع أن نجمع التقدم العلمي والتكنولوجي مع تقدم العقل والروح أيضاً؟ لا يمكننا أن نكون غير مخلصين للعلم لأنه يمثل حقيقة الحياة الأساسية اليوم. وكذلك لا نستطيع أن نكون أقل اخلاصاً لتلك المبادىء الأساسية التي نهضت بها الهند عبر العصور. فلنتابع إذن طريقنا في التقدم الصناعي بكل قوتنا وعزمنا وفي الوقت ذاته نتذكر أن الغنى المادي دون تسامح وتعاطف وحكمة يمكن أن تتحول الى تراب ورماد. ولنتذكر أيضاً أن «صانعي السلام هم المباركون».

* * *

خلال هذه السنين من التفكير والعمل كان ذهني مشغولاً بالهند، أحاول فهمها وتحليل ردود فعلي تجاهها. عدت الى ايام طفولتي وحاولت أن أتذكر ماذا

كنت أشعر آنذاك؟ أي شكل غامض أخذه ذلك المفهوم في عقلي الآخذ في النمو وكيف تقولب بالخبرة الحديثة؟ أحياناً يتراجع الى الخلف، إلا أنه كان دائماً هناك، متغيراً ببطء، خليطاً عجيباً مستمداً من القصص والأساطير القديمة والحقيقة المعاصرة. يولد احساساً بالاعتزاز كما يولد احساساً بالخجل. لأني خجلت من كثير مما رأيت حولي، من الأعمال الخرافية، ومن الأفكار المهترئة وفوق كل شيء، من دولتنا المحتلة والمبتلاة بالفقر.

وحين كبرت وشاركت في نشاطات تعد بالسير بالهند نحو الحرية، تملكتني فكرة الهند. ما هذه الهند التي تملكتني، والتي تلوح لي باستمرار تحثني على العمل الذي كنا ندركه ادراكاً غامضاً لكننا نشعر بأعماقنا أنه أمنية قلوبنا؟ التحريض الأولي جاءني، أفترض، عبر الكبرياء الفردي والقومي معاً، والرغبة المشتركة مع الجميع، في مقاومة سيطرة الآخر والتحرر لنعيش حياتنا الخاصة، التي نختارها. بدا لي شنيعاً أن بلداً عظيماً كالهند ذات الماضي الغني والعريق يمكن أن تكون مقيدة اليد والقدم بجزيرة بعيدة فرضت ارادتها عليها. وكان أكثر شناعة أن هذا الاتحاد المفروض لم يولد غير الفقر والمهانة بما لا يوصف. كان هذا سبباً كافياً لي ولغيري لكي ننشط.

لكنه لم يكن كافياً لارضاء التساؤلات الثائرة في ذاتي. ما الهند؟ بعيداً عن مظاهرها المادية والجغرافية؟ ما الذي مثلته في الماضي؟ ما الذي منحها القوة حينئذ كيف فقدت تلك القوة القديمة؟ وهل خسرتها تماماً؟ هل تمثل أي شيء حيوي الآن، غير كونها موطن عدد هائل من البشر؟

هذا الجانب الدولي الأوسع للمشكلة تنامى فيّ وأنا أدرك أكثر فأكثر كيف أن العزلة غير مرغوبة ومستحيلة معاً. المستقبل الذي تشكل في ذهني كان على هيئة تعاون ودي سياسياً واقتصادياً وثقافياً بين الهند وبين البلدان الأخرى في العالم. لكن قبل أن يأتي المستقبل، كان هناك الحاضر وخلف الحاضر يجثم ماض طويل متشابك خرج منه الحاضر. وهكذا نظرت الى الماضي كي أفهم.

كانت الهند في دمي وكان فيها الكثير مما أثارني فطريا. ومع ذلك كنت أقاربها كناقد غريب تقريباً. مملوءاً بكراهية الحاضر وكذلك كراهية كثير من بقايا الماضي التي رأيت الى حد ما. تقدمت منها عبر الغرب ونظرت اليها كما يمكن أن يفعل غربي صديق. كنت راغباً وتواقاً الى تغيير وجهها ومظهرها وأن ألبسها ثوب

الحـداثـة. ثم ثارت فيّ الشكـوك. هل عرفت الهنـد، أنـا الـذي يفـترض أني رميت بكثير من أجزاء تراثها؟ كان هناك الكثير مما رمي يجب رميه؛ لكن من المؤكد أن الهند لم تكن بلا شك ما كانت عليه ولم تكن لتستمر وجوداً ثقافياً لآلاف السنين لو لم تمتلك شيئاً ما شديد الحيوية والثبات، شيئاً ما ذا قيمة. ما هو هذا الشيء؟

وقفت على رابيـة موهـو نجـودارو في وادي الهنـدوس في شمال غربي الهنـد، وكـان ينبسـط حولي دور وشـوارع تلك المـدينة القديمة التي يقال إنها أقيمت منذ ما يزيـد على خمسـة آلاف سنـة. كانت حتى ذلك الوقت صورة حضارة قديمة حسنة التنظيم. يكتب البر وفسور تشايلد: «تمثل الحضارة الهندوسية توافق الحياة البشرية مع بيئـة محددة هي نتيجـة جهـد صبـوردام سنـين طويلة. ومـازالت باقيـة، انهـا هنـديـة بصـورة واضحة وتشكل قاعدة ثقافة الهند المعاصرة». فكرة عجيبة: فأية ثقافة أو حضارة لها هذه الاستمـراريـة خمسـة أو ستـة آلاف سنـة أو أكثـر؛ ليس بمعنى الثبات أو عدم التغـير، لأن الهنـد كانت تتغير وتتقدم دائماً. كانت على علاقة حميمة مع الفرس، والمصـريـين واليـونـان، والصينـين والعـرب وسكان آسيا الوسطى، وشعوب البحر الأبيض المتوسط. لكن على الرغم من تأثيرها بهم وتأثيرهم بها فإن أسس ثقافتها ظلت قوية وكافية للبقاء. ما هو سر هذه القوة؟ من أين جاءت؟

قرأت تاريخهـا وقـرأت أيضـاً جزءاً من أدبهـا الثري القديم، ولقد تأثرت كل التأثر بقوة الفكر، وصفاء اللغة وغنى العقل الذي يقف خلفها. ارتحلت في الهند في صحبة رحالة نجباء من الصين ومن غربي آسيا ووسطها جاؤ وا الى هنا في الماضي البعيـد دونـوا رحـلاتهم. فكـرت بما وصلت إليـه الهنـد في شرقي آسيا، في انغكور بورو بـودور وأمكنـة أخـرى كثيـرة. تجولت في جبـال الهيمـلايا، التي كانت شديدة الارتبـاط بالأسـاطـير والحكايا والتي كان لها كبير الأثر على فكرنا وأدبنا. لقد شدني اليهـا حبي للجبـال وقـرابتي لكشمـير خاصـة، ورأيت هناك لا حياة الحاضر وقوته وجمـالـه فحسب، بل عذوبـة العصـور الماضية أيضاً. أنهار الهند العظيمة التي تجري من ذلـك الجبـل الشـاهق في سهـول الهنـد أدهشتني وأعـادت الى ذاكرتي جوانب تاريخنـا التي لا تعـد. الهنـدوس والسندهو اللذان منهما أصبحت بلادنا تدعى الهند وهندوستان والتي عَبْرَها مرت الأجيال والقبائل والقوافل والجيوش لآلاف السنين؟؛ نهر الـبراهمابـوتـرا، وكأنـه مقطـوع من مجرى التـاريـخ الـرئيسي لكنه يعيش في قصة قديمة شاقا طريقه في الهند عبر أفجاج محفورة في قلب الجبال الشرقية الشمالية، ثم يفيض

بهدوء بانسياب رشيق بين الجبل والسهول الغابية. نهر الجمنا الذي انعقدت حوله أساطير الرقص والمرح واللهو الكثيرة والغانج نهر الهند الفائق على الجميع، والذي أسر قلب الهند، وشد الى ضفتيه الملايين التي لا تحصى منذ فجر التاريخ. قصة الغانج من منبعه الى البحر من العصور السحيقة الى الحديثة هي قصة حضارة الهند وثقافتها، قصة قيام امبراطوريات وسقوطها. قصة عظيمة فخورة؛ مغامرة الانسان وضالة العقل التي أسرت مفكري الهند، غنى الحياة وانجازها وعدها وكذلك انكارها والزهد بها، قصة الارتفاع والهبوط، النماء والتلف، قصة الحياة والموت.

زرت النصب القديمة والآثار والتماثيل القديمة والصور الجدارية - أجانتا، وايللورا، كهوف الفيلة وأمكنة أخرى - ورأيت الأبنية الجميلة لعصر متأخر في أغرا ودلهي حيث روى كل حجر قصته عن ماضي الهند.

في مدينتي اسلام اباد أو في هاردوار كنت أذهب الى احتفالات الاغتسال الكومبه ميلا. وأرى مئات الآلاف من الناس قادمين كما قدم أسلافهم لآلاف السنين من كل أنحاء الهند، ليغتسلوا في الغانج، وأتذكر وصفاً لهذه الاحتفالات كتبه حجاج صينيون وآخرون منذ ألف وثلاثمئة سنة، وحتى ذلك الحين. هذا الاغتسال كان قديماً وضائعاً في تاريخ قديم مجهول. وتعجبت أي إيمان رائع ذاك الذي شد شعبنا أجيالاً وأجيالاً الى هذا النهر الهندي الشهير.

زياراتي ورحلاتي تلك مع خلفية قراءاتي أعطتني تبصراً في الماضي. وأضافت الى الفهم العقلاني المجرد الى حد ما تقديراً عاطفياً وثم تدريجياً أخذ احساس بالواقعية يتسلل الى صورة الهند العقلانية، وأصبحت بلاد أجدادي مسكونة بالبشر، الذين ضحكوا وبكوا، أحبوا وعانوا؛ وكان بينهم رجال ممن عرفوا الحياة وفهموها ومن فيض حكمتهم شادوا البناء الذي وهب الهند استقراراً ثقافياً دام آلاف السنين. مئات من صور الماضي الحية ملأت ذهني وكانت تنهض كلما زرت مكاناً معيناً مرتبطاً بها. في سارناث قرب بيناريس. كدت أرى بوذا يلقي موعظته الأولى وبعض من كلماته المدونة يصبح مثل صدى بعيد يرجع إلي منذ ألفين وخمسمئة عام. أعمدة آشوكا الحجرية بنقوشها تكاد تخاطبني بلغتها البهية وتحدثني عن انسان، رغم أنه امبراطور كان أعظم من أي امبراطور أوملك. وفي فاتحبور كان (أكبر) ناسياً لامبراطوريته جالساً يعقد المناقشات والحوارات مع رجال الفكر

من كل الأديان، متشوقا لأن يتعلم شيئاً جديداً وباحثاً عن جواب لمشكلة الانسان الأزلية.

هكذا انبسطت أمامي المشاهد الطويلة لتاريخ الهند بكل نهضاتها وعثراتها، بانتصاراتها وهزائمها... بدا لي فيها شيء فريد حول استمرارية تقليد ثقافي خلال خمسة آلاف سنة من التاريخ، من الغزوات والانتفاضة. تقليد انتشر بين الجماهير وأثر بها. الصين وحدها لديها مثل هذه الاستمرارية في الحياة الثقافية. مشاهد الماضي تلك اندمجت في الحاضر الحزين حين كانت الهند على عظمتها التليدة واستقرارها بلداً مستعبداً ملحقاً ببريطانيا، وفي كل أرجاء العالم كانت تدور حرب ضروس تنهش الانسانية. لكن رؤيا خمسة الآلاف سنة منحتني بُعداً جديداً وبدا لي عبء الحاضر أخف. السنون المائة والثمانون من الحكم البريطاني في الهند كانت واحداً من الفصول الحزينة في قصتها الطويلة؛ لابد أن تجد نفسها ثانية. ها قد ختمت الفقرة الأخيرة. وسيتجاوز العالم أيضاً رعب اليوم ويبني نفسه مجدداً على أسس جديدة.

* * *

في الهند بسبب حرية العقل المعترف بها، مهما كانت محدودة في الممارسة، ليس الباب موصوداً بوجه الأفكار الجديدة. فهي تؤخذ بعين الاعتبار ويمكن أن تحظى بقبول أكثر مما تلقاه في بلدان ذات النظرة الأكثر خشونة للحياة وأكثر تقيداً بالتعاليم. إن المثل الأساسية للثقافة الهندية عريضة الأساس ويمكن أن تقتبسها أية بيئة. إن الصراع المرير بين العلم والدين الذي هز أوروبا في القرن الثامن عشر لن يكون له وجود في الهند ولن يؤدي التغيير القائم على تطبيقات العلم الى أي صراع مع تلك المثل. لاشك في أن هذه التغيرات يمكن أن تهز، كما تفعل الآن، عقل الهند، لكن بدل أن تجابهها أو ترفضها ستجعلها عقلانية من وجهة نظرها الايديولوجية متلائمة مع بنيتها العقلية. ولعله في هذه العملية يمكن أن تدخل تغييرات حيوية كثيرة في النظرة العتيقة، لكنها لن تركب من الخارج وستبدو وكأنها نمت بشكل طبيعي من خلفية الشعب الثقافية. هذا أكثر صعوبة اليوم مما كان عليه بسبب الفترة الطويلة للنماء المتوقف والضرورة الملحة الى تغيرات نوعية كبيرة.

سيكـون الصـراع، على أيـة حال، مع كثـير من البنى الفـوقيـة التي نمت وأحـاطت بتلك المثـل الأسـاسية الموجودة والآخذة بخناقنا. لابد لهذه البنى الفوقية من أن تزول بسبب فسادها الذاتي الكثير ومناقضتها لروح العصر. والذين يسعون الى المحـافظـة عليهـا يسيئون خدمة المثل الأساسية للثقافة الهندية، لأنهم يخلطون الجيد بالسيء مما يسيء الى الجيد. ليست مسألة سهلة أن نفصل ما بينهما أو نرسم حداً فاصلاً بينهما، فالأفكار ستظل تختلف بشدة. لكن ليس ضرورياً أن نرسم أي خط نظـري أو منطقي. منطق الحيـاة المتغـيرة، وسير الأحداث سيرسم لنا تدريجياً ذلك الخط. أي نوع من أنواع التطور ـ التكنولوجي أو الفلسفي ـ يحتم الاحتكاك بالحيـاة، وبـالحـاجـات الاجتـماعية، واذا افتقرت الحركات الحية في العالم الى هذا الاحتكـاك سيقـود الى ركـودهـا وفقـدانها حيويتها وقدرتها على الابداع. لكن اذا حافظنـا على تلك الصـلات مع الحيـاة وكنـا منفتحـين عليها فسنكيف أنفسنا مع منحنى الحياة دون أن نفقد الصفات المميزة الرئيسية التي قيمناها.

كان طريقنـا الى المعـرفـة في المـاضي تركيبيـاً ولكنـه محدود في الهنـد. تلك المحـدوديـة استمـرت وأفسحت الطـريقـة الـتركيبيـة المجال بالتدريج لطريقة أكثر تحليلية. علينا اليوم أن نؤكد بصورة أشد على المظهر التركيبي ونجعل العالم بأسره ميدان دراستنا. هذا التوكيد على التركيب ضروري حقاً لكل فرد أو أمة اذا أرادت أن تخرج من أخاديد الفكر والفعل التي عاش بها معظم الناس طويلاً. تطور العلم وتطبيقـاتـه جعـل ذلـك ممكناً لنا ومع ذلك فإن الزيادة الكبيرة للمعرفة الجديدة قد زادت من صعـوبـاتهـا. التخصص أدى الى تضييق الحيـاة الفردية في أخدود محدد وعـمال الصنـاعة غالباً ما يكونون مقيدين حتى النهاية في جزء من الانتاج. سيستمر التخصص في المعرفة والعمل. إلا أنه يبدو أساسياً أكثر من أي وقت مضى أنه يجب تشجيـع النظـرة التركيبية لحياة الانسان ومغامرة الانسان عبر العصور. هذه النظرة عليهـا أن تأخـذ بعـين الاعتبـار المـاضي والحـاضر، ويجب أن تشمل في مداها كل البلدان وكـل الشعـوب. وبهـذه الطريقة ربما يمكننا أن نطور، اضافة الى خلفياتنا القومية وثقافاتنا، تقدير الآخرين وإمكانية لفهم الشعوب الأخرى والتعاون معها. هكـذا أيضـاً يمكن أن ننجـح الى حد ما في بنـاء شخصيـات اندماجية (توحيدية) بديلاً عن فرديات اليوم العرجاء. يمكن أن نصبح كما يقول أفلاطون: «مشاهدي كل الـزمن وكـل البشـر» نسحب الـدسم من الكنـوز الغنيـة التي راكمتهـا البشرية

نضيف اليها ونطبقها في البناء من أجل المستقبل.

انها حقيقة غريبة وهامة، بالرغم من التقدم العلمي المعاصر والحديث عن العالمية، أن العنصرية وعوامل أخرى متفرقة ذات الأهمية بادية للعيان اليوم إن لم تكن أكثر من أي وقت مضى فهي كما كانت في العصور السالفة من التاريخ. هناك نقص ما في كل هذا التقدم، لم يولد الانسجام بين الأمم ولا في داخل الروح الانسانية. لعل مزيداً من التركيب وقليلاً من التواضع أمام حكمة الماضي، الذي هو على كل حال تراكم خبرات الجنس البشري، يمكن أن يساعدانا على الحصول على مدى جديد وانسجام أكبر. هذا الأمر تحتاجه خاصة تلك الشعوب التي تعيش حُمّى الحياة في الحاضر الراهن ونسيت تقريباً الماضي. لكن لبلدان مثل الهند. فإن التأكيد على أمور أخرى ضروري، لأن لدينا الكثير من الماضي حولنا وقد تجاهلنا الحاضر. يجب أن نتخلص من التفكير الخرافي والغيبي، المنفلت من ضبط العقل في الطقوس الدينية والعاطفية الصوفية التي تعترض طريق فهمنا أنفسنا والعالم. علينا أن نتلاحم مع الحاضر، مع هذه الحياة، وهذا العالم، وهذه الطبيعة التي تحيط بنا في تنوعها اللا نهائي. بعض الهندوس يتحدثون عن العودة الى كتب الفيدا، وبعض المسلمين يحلمون بحكومة اسلامية. أوهام باطلة، لأنه لا عودة للماضي؛ ليس هناك رجوع للوراء حتى لو ظُن الرجوع جذاباً. ليس هناك سوى طريق ذي اتجاه واحد.

يجب على الهند أن تخفف من تدينها وتتحول الى العلم. يجب أن تتخلص من الانغلاق في الفكر والعادات الاجتماعية الذي أصبح مثل سجن لها يصعق روحها ويمنع نماءها. إن فكرة الطهارة الطقسية نصبت حواجز في وجه التواصل الاجتماعي وضيقت مجال النشاط الاجتماعي. إن الممارسات الدينية اليومية للهندوسي المحافظ تعنى بما تأكل أو لا تأكل، من تأكل معه ومن يجب أن تبتعد عنه، أكثر من عنايتها بالقيم الروحية. قواعد وأصول الطبخ تطغى على حياته الاجتماعية. المسلم لحسن الطالع متحرر من هذه النواحي لكن له طقوسه ورموزه الضيقة، ونظام يتبعه دينياً، ناسياً درس الأخوة الذي علمه إياه دينه. نظرته للحياة ربما هي أكثر محدودية وجدباً من نظرة الهندوسي مغ أن الهندوسي المتوسط اليوم هو ممثل بائس للنظرة السائدة حالياً، لأنه فقد الحرية التقليدية للفكر والأصول التي

تغني الحياة من وجوه مختلفة.

النبذ هو رمز وتجسيد لهذا الانغلاق بين الهندوس. لقد قيل أحياناً أن فكرة النبذ الأساسية يمكن أن تبقى أما ما طرأ عليها من تطور وتشعبات يجب أن تزول، اي أنه يجب ألا تعتمد على مولد الشخص بل على أخلاقه. هذه المعالجة خارجة عن الموضوع ولا تخدم غير تشويش المسألة. في السياق التاريخي دراسة نشوء النبذ لها بعض القيمة، غير أننا بالتأكيد لا نستطيع العودة الى الفترة التي بدأ فيها. النبذ في المنظمات الاجتماعية اليوم لم يبق له مكان. اذا كانت الاخلاق هي المعيار الوحيد والفرصة بقيت متاحة لكل شخص فالنبذ اذن يفقد كل ملامحه المعاصرة المميزة وينتهي في الواقع. لم يقد النبذ في الماضي الى اضطهاد بعض الفئات فقط، بل أدى الى فصل ما بين التعليم النظري والمدرسي وبين الحرفيّة والى طلاق ما بين الفلسفة والحياة العملية ومشاكلها. لقد كان النبذ عملاً ارستوقراطياً قائماً على التقليدية. هذه النظرة يجب أن تتغير كلية لأنها تتعارض تماماً مع الظروف المعاصرة والمثل الديموقراطي. التنظيم الوظيفي للفئات الاجتماعية في الهند يمكن أن يستمر، لكن حتى هذا سيخضع لتغيير كبير كطبيعة الصناعة المعاصرة التي تخلق وظائف جديدة وتنهي كثيراً من الصناعات القديمة. الميل اليوم في كل مكان وباتجاه التنظيم الوظيفي للمجتمع. ومفهوم الحقوق المجردة يخلي مكاناً لهذه الوظائف. وهذا ما ينسجم مع المثل الهندي الأعلى القديم.

إن روح العصر في صالح المساواة رغم أن الممارسة تتنكر لها تقريباً في كل مكان. لقد تخلصنا من الرق في المعنى الضيق للكلمة، أي أن يكون انسان ملكاً لآخر. لكن عبودية جديدة أسوأ من القديمة بأشكال مختلفة أخذت مكانها في جميع أنحاء العالم. فباسم الحرية الفردية تستغل النظم السياسية والاقتصادية البشر وتعاملهم على أنهم سلع. ومرة أخرى بالرغم من أن فرداً لا يمكن أن يكون ملكاً لآخر فإن بلداً أو أمة يمكن أن يكونا ملكاً لأمة أخرى، وهكذا أصبح الرق الجماعي مسموحاً به. العنصرية أيضاً من ملامح عصرنا المميزة، إذ لم نكتف بالسيادة على الأمم بل على العروق أيضاً.

مع ذلك فإن روح العصر ستنتصر. في الهند، بأي ثمن يجب أن نهدف الى المساواة. ذلك لا يعني ولا يمكن أن يعني أن كل فرد مساوٍ للآخر جسدياً وعقلياً أو روحياً أو يمكن أن يجعل كذلك. لكنه يعني فرصاً متساوية للجميع ولا حاجزاً

سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً يقف في وجه أي فرد أو جماعة. يعني ايماناً بالانسانية واعتقادا بأن لاعرق أو جماعة يعجزان عن التقدم وفعل الخير بطريقتهما الخاصة، إذا ما أتيح لهما ذلك. يعني ادراك حقيقة أن تخلف وانحطاط أي جماعة ليس عائداً لضعف موروث فيها بل بشكل مبدئي لنقص في الفرص وللاضطهاد الطويل الذي مارسته جماعات أخرى عليها. إنه يجب أن يعني فهماً للعالم المعاصر حيث التقدم الحقيقي، سواء كان قومياً أو عالمياً، أصبح شأناً مشتركاً بشكل كبير وأن الجماعة المتخلفة تشد الجماعات الأخرى الى الوراء. لذلك ليس فقط الفرص المتكافئة التي تعطى للجميع، بل يجب أن تمنح فرص خاصة للنمو التربوي والاقتصادي والثقافي للجماعات المتخلفة من أجل أن تلحق أولئك الذين سبقوها. أية محاولة لفتح أبواب الفرص للجميع في الهند ستحرر طاقة هائلة وامكانية وتحول البلد بسرعة مدهشة.

اذا كانت روح العصر تتطلب المساواة، فإنها تتطلب بالضرورة أيضاً نظاما اقتصادياً يتلاءم معها ويشجعها. إن الاستبدادية لا تقوم على عدم المساواة بل يجب أن تُخلّد في كل مجالات الحياة. إنها تقمع قوى الابداع والتجديد في الأمة. وتحصر المواهب والقدرات. وتثبط روح المسؤولية. أولئك الذين حكم عليهم أن يعيشوا تحت الاستبداد يفقدون حس الكرامة والاعتماد على الذات. المشاكل في الهند، المعقدة كما تبدو، هي بسبب محاولة التقدم في حين المحافظة على البناء السياسي والاقتصادي لم تمس بشكل أو بآخر. أصبح التقدم السياسي تابعاً للمحافظة على هذا البناء والمصالح القائمة الثابتة. والاثنان متنافران.

التغيير السياسي يجب أن يتم وكذلك التغير الاقتصادي ضروري. ذلك التغير ينبغي أن يكون باتجاه جماعية ديموقراطية مخططة. يقول ر. هـ. روني: «الخيار ليس بين التنافس والاحتكار بل بين الاحتكار غير المسؤول والخاص وبين الحصر المسؤول والعام. الحصر العام منتشر حتى في الدول الرأسمالية وسيستمر في الانتشار الصراع بين ما يمثله الحصر العام وبين الاحتكار الخاص سيستمر الى أن يذوب هذا الأخير. إن الجماعية الديموقراطية لا تعني إزالة تامة للملكية الفردية بل ستعني ملكية الشعب للصناعات الأساسية والكبيرة. ستعني الادارة التعاونية أو الجماعية للأرض. في الهند خصوصاً سيكون من الضروري بالاضافة الى الصناعات الكبيرة أن تقوم الصناعات الصغيرة في القرى على أساس

تعاوني. إن نظاماً كهذا للديموقراطية المشاعية سيحتاج إلى تخطيط حريص ومستمر ومتلائم مع حاجات الشعب المتغيرة. يجب أن يكون الهدف توسيع مقدرة الأمة الانتاجية بكل اتجاه ممكن وفي الوقت نفسه امتصاص كل القوى العاملة للأمة بهذا النشاط أو ذاك ومنع البطالة. والى أبعد حد ممكن يجب أن تتوافر الحرية لاختيار المرء مهنته. والتساوي في الدخل ينتج عن كل ذلك، بل سيكون هناك مزيد من المشاركة المتساوية وميل متقدم نحو التساوي. على أية حال فإن الفروق الكبيرة الموجودة اليوم ستختفي كليا. والفروق الطبقية التي هي وليدة الفروق في الدخل بشكل رئيسي ستبدأ بالتلاشي.

مثل هذا التغيير يمكن أن يعني قلقاً لمجتمع التملك الحاضر القائم مبدئياً على دافع الربح. يمكن أن يستمر دافع الربح الى حد ما لكنه لن يكون الدافع المسيطر ولن يكون له المدى نفسه الذي يحتله اليوم. من العبث القول أن دافع الربح لا يروق الهندي الوسط، لكن أيضاً ليس صحيحاً أن الاعجاب به في الهند كبير كما هو في الغرب. مالك المال يمكن أن يحسد لكنه لايخص بالاحترام أو الاعجاب. لا يزال الاحترام والاعجاب من نصيب الرجل أو المرأة المتصفين بالخير والحكمة. ومن نصيب أولئك يضحون بأنفسهم أو بما يملكون للخير العام. النظرة الهندية، حتى لدى الجماهير، لم تتقبل أبداً روح التملك.

الجماعية تتضمن عملاً اشتراكياً وجهداً تعاونياً. هذا ايضاً منسجم تماماً مع المفاهيم الهندية القديمة القائمة على فكرة الجماعة. وانحلال نظام الجماعة في ظل الحكم البريطاني. وخاصة الحكم الذاتي للقرية، سبب جرحاً عميقاً للجماهير الهندية وهو جرح نفسي أكثر منه اقتصادي. لم يحل محله أي شيء ايجابي. فقد فقدت الجماهير روح الاستقلال بمعنى المسؤولية. وقدرتها على العمل المشترك في سبيل الأهداف العامة. القرية التي كانت وحدة عضوية وحيوية أصبحت مع مضي الزمن منطقة مهجورة؛ مجرد مجموعة من الأكواخ الطينية والأفراد المنعزلين. لكن لا تزال القرية متماسكة بواسطة روابط غير مرئية والذكريات القديمة تنبعث. لابد أن يكون سهلاً وممكناً أن نستفيد من هذه التقاليد العريقة ونبني قوتها الاشتراكية والتعاونية المتعلقة بالأرض والصناعات الصغيرة. لم تعد القرية تستطيع أن تكون وحدة اقتصادية مكتفية ذاتياً (رغم أنها قد تكون غالباً مرتبطة جوهرياً بمزرعة تعاونية أو مشاعية) لكن يمكن أن تكون بشكل جيد وحدة حكومية

انتخـابيـة، وكل من هذه الوحدات تشكل المجتمع الذي يحكم نفسه بنفسه داخل الاطار السياسي الأكبر وترعى الحاجات الأساسية للقرية. اذا ما عوملت الى حد ما كوحدة انتخابية، فإن هذا سيبسط الانتخابات في المناطق وفي عموم الهند بشكل ملحـوظ وذلـك بتخفيض عدد النـاخبـين المباشرين. إن مجلس القرية نفسه الذي اختاره البالغون من الرجال والنساء في القرية يمكن أن يسمي الناخبين للانتخابات الأكـبر. إن الانتخـابـات غير المبـاشـرة لها مضـارهـا لكن اذا أخذنا بعين الاعتبار الجـذور الاجتـماعيـة في الهنـد فإني على ثقـة أنـه من الضـروري أن نعـامل القرية كوحدة. وسيحقق هذا تمثيلاً أكثر صحة وأكثر مسؤولية.

الى جانب هذا التمثيـل المحـلي يجب أن يكـون هنـاك تمثيـل مبـاشـر في التعاونيات والتجمعات الزراعية والصناعية. وهكذا يتضمن التنظيم الديموقراطي للدولـة الممثلين المهنيـين والمحليـين معاً وسيكون مبنياً على أساس الحكم الذاتي. مثـل هذه الـترتيبـات ستكـون منسجمة مع ماضي الهند تماماً كما هي منسجمة مع متطلباتها الحالية. لن يكون هناك احساس بالقطيعة (إلا في الظروف التي أوجدها الحكم البريطاني). وسيتقبلها العقل الجماهيري كاستمرار لماض لا يزال يتذكره ويرعاه.

مثـل هذا التطـور في الهنـد الـذي يمكن أن يترافق مع التأميم السيـاسي والاقتصـادي، لن يولـد أيـة صراعـات مع الأمم الأخـرى وسيكون عاملاً قوياً من أجـل السـلام في آسيـا والعـالم. إنـه سيساعد على تحقيق ذلك العالم الواحد الذي نساق إليـه بصـورة حتميـة. رغم أن عواطفنـا تغـوينـا وأن عقولنا تخفق في فهمه. الشعب الهنـدي المتحـرر من حس الاضطهاد المزعج ومن الاحباط. سيستعيد هذا الشعب الهندي اعتباره ثانية ويتخلى عن قوميته الضيقة وعزلته. فخورين بتراثهم الهنـدي سيفتـح الهنـود عقـولهم وقلوبهم الى الشعـوب والأمم الأخـرى ويصبحون مواطنـين في هذا العـالم الـواسـع الرائع سائرين الى الأمام مع الآخرين في المسعى القديم الذي كان أسلافهم فيه الرواد. *

---

* مقاطع من (اكتشاف الهند).

# الفهرس


- تمهيد ..... ٥
- رابندرانات طاغور ..... ٩
  - دين الفنان ..... ١١
  - مدرسة الشاعر ..... ٣١
- سوامي فيفيكانادا ..... ٤٥
  - الدين الشامل ..... ٤٧
- مهاتما غاندي ..... ٧٣
  - الهيمالايا ..... ٧٥
  - كانيا كوماري ..... ٧٧
  - الحضارة الهندية ..... ٨٠
  - السواراج والاعتماد على الذات ..... ٨٣
  - يجب أن يبدأ الاستقلال من القاعدة ..... ٨٥
  - نحو الاعتماد على الذات ..... ٨٧
  - التعليم ..... ٨٨
  - علينا أن نبني تراثنا ..... ٩٠
  - العمل البناء ..... ٩٣
  - سواديشي ..... ٩٥

تعريف السواديشي ........ ١٠٢
قَسَمُ السواديشي ........ ١٠٣
التفاوت الاجتماعي ........ ١٠٧
عار الهندوسية الأكبر ........ ١٠٨
المنبوذية والنظام الطبقي ........ ١٠٩
الانسجام الاجتماعي ........ ١١٠
حُلُمي ........ ١١٢
اقتصادنا ........ ١١٤
لعنة التصنيع ........ ١١٦
لا حرب طبقات ........ ١١٧
الاشتراكية ........ ١١٩
الاشتراكية والساتياغراها ........ ١٢١
براهماتشاريا واللاعنف ........ ١٢٣
ضبط النسل ........ ١٢٦
الله خير ........ ١٢٨
خطاب الى امريكا ........ ١٢٩
التسامح الديني ........ ١٣٢
تراث الهند الروحي ........ ١٣٣
القانون والحياد الديني ........ ١٣٤
جوهر الغيتا ........ ١٣٥
ـ شري أوروبندو ........ ١٤١
كارما ........ ١٤٣
جوهر البهغفات غيتا ........ ١٥٠
الانسان : الكائن الانتقالي ........ ١٥٩
الطموح الانساني ........ ١٦٥
رسالة الخامس عشر من آب ١٩٤٧ ........ ١٧٠
ـ مولانا أبو الكلام آزاد ........ ١٧٣
الهند وآسيا ........ ١٧٥

الفن والتربية ........ ١٧٧
التربية الاجتماعية والمناطق الريفية ........ ١٧٩
مفهوم الانسان في الشرق والغرب ........ ١٨٠
الفن والشعب ........ ١٨٩
التواترات والنظرة الغاندية ........ ١٩١
دور الفن، والمسرح، والموسيقى ........ ١٩٥
دور الفن البصري ........ ١٩٨
**ـ د. سارفيبالي راداكريشنا** ........ ١٩٩
روح العالم التي لمّا تولد ........ ٢٠١
مهاتما غاندي عملاق بين الرجال ........ ٢٢٧
بهاغافان سري رامانا ........ ٢٣٨
**ـ جواهر لآل نهرو** ........ ٢٤٥
الهند اليوم وغداً ........ ٢٤٧

# هذا الكتاب

أعماق أي تراث ثقافي تنعكس على أفضل وجه في كتابات العقول الراجحة. وفي هذه المجموعة من المختارات نقدم سبعة من كبار الهنود، عاشوا في هذا القرن وأثروا فيه. ولعبوا دوراً فعالاً في إحياء الثقافة الهندية المعاصرة وتوحيدها.

في هذه الطبعة الموسعة، نطلع القارىء على كوكبة من المفكرين، أسهم كل منهم اسهاماً فعالاً في آداب الهند والعالم.

الناشر

السعر : ١٧٥ ل.س